بُرهان شاوي

Burhan Shawi

استراحة مفيستو

MEPHISTO RESIDENCE

رواية

Novel

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

كلمة
KALIMA

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

استراحة مفيستو

MEPHISTO RESIDENCE

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1437 هـ - 2016 م

ردمك 2-1426-02-614-978

ردمك 2-79-902-9938-978

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 009613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

كلمة
KALIMA

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلمة للنشر والتوزيع
12 نهج بيروت، 2080 أريانة - تونس
الهاتف: 0021671703355 - الفاكس: 0021671706253
البريد الإلكتروني: info@kalima-edition.com

استراحة مفيستو

MEPHISTO RESIDENCE

رواية

بُرهان شاوي

Burhan Shawi

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

كلمة
KALIMA

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

المحتويات

آدم المسكين 9

المقبرة 20

مرايا آدم المقعرة 30

الاختطاف..! 44

مرايا حواء الصوفي المحدبة 59

حواء النمرود.. ورائحة النقود 73

حواء المسافر.. 94

حواء الأعمى 108

صدمة حواء الدلو – المدفون 123

مرآة الرغبة 132

3 و 8 140

عربة الوهم 152

قاع السماء...قاع الأرض 166

"وكَمَنْ خرج لاهث الأنفاسِ من البحرِ إلى الشاطئ،
فيتلفتُ إلى المياهِ الرهيبةِ، ويتأمل
هكذا التفتتْ روحي إلى الوراء
وكانت لائذةً بالفرار
لكي تُحملق في الطريق الذي
لم يدَعْ أبداً إنساناً حيّاً"

دانتي أليغيري – الإنشودة الأولى

الفصـــل الأول

آدم المسـكيـن

رن الهاتـف الأرضـي مـرات عديـدة دون أن يرد أحد في الشـقة. وحينما رنّ للمرة الأخيرة امتدت يد مرتبكة لتأخذ السماعة. وما أن نطق حامل السماعة بكلمة: ألـو.. حتـى انهالت عليه الشـتائم والتهديدات والوعد بالمجيء حالاً لكسـر رقبته وسحق رأسه، وجعله عبرة لمن اعتبر.. فليس هناك في هذه المدينة من لا يعرف ماذا يفعل بمن يتلاعب معه ويماطل في تسديد دينه.. و قد أنذره مراراً ولكن يبدو أن عليه أن يعرف الآن ماذا ينتظره.. فلا مجال للتأجيل ولا التسويف..!.

كان المتكلـم هـو هابيـل السـفاح. المعروف في بعض أوسـاط هـذه المدينة المترامية بجشعه وعنفه وعلاقاته المشبوهة مع شخصيات مهمة تؤمن له الحماية.. هابيل السفاح الذي اشتهر بلقبه عن جدارة.. لا أحدَ يسخر منه بأن يأخذ منه ديناً ولا يرجعه.. لاسيما إذا خسر أحد من الذين يرتادون شققه العديدة، التي تقام فيها موائد القمار بكل أنواعها، مبلغاً كبيراً وعجز عن سداده..!!.

****

يعرف آدم المسكين بأن هابيل السفاح لا يمزح في أقواله ولا يطلق التهديدات لمجـرد بـث الرعب في نفس الآخـر المتلقي، بل هو مجرم ميت القلب، لا يرحم أياً كان ممن عليهم تسديد ديونهم في الوقت الذي يقرره هو، وأنه يفعل أي شيء وبشكل بشع.. يقتل بلا خوف وبلا تردد.. ويصنع العاهات إذا ما أشفق على أحدٍ ما، فليس في قاموسـه كلمة مرادفة للشـرف أو التسـامح..؛ فهو كما يشـاع عنه قد أخذ ابنة أحدهم تعويضاً عن خسـارته مبلغا كبيراً في القمار وعجز عن سـداده..

ويشاع أنه حوّل الابنة إلى محظية، ثم نادلة، ثم عاهرة في البيوتات الكثيرة التي يملكها..!

لم يكن آدم المسكين مقامراً، ولا من رواد بيوت المسرات العابرة المدفوعة الثمن، التي هي تجارة هابيل السفاح الأصلية والسرية برغم أنه أحد الشخصيات المعروفه أمام الناس.. لكن الأمر جرى وكأنه خارج سياق الزمن وخارج سياق يوميات حياته..!.

جرى ذلك بعد وصول خبر حادث اصطدام السيارة التي تقل والديه.. لم يعرف حينها ماذا يفعل، ولا كيف يتصرف، فليس لديه المال أن يذهب إلى تلك المدينة التي تم نقل ضحايا الحادث إليها.. لحظتها اتّصل بصديقه الجامعي الوحيد قابيل ابوالندى.. المغامر الفقير مثله، الذي أرشده إلى هابيل السفاح..!!

أقنعه بالذهاب إليه في مكتبه المعروف بجادة « الفردوس» وسط المدينة.. وبيّن له بأن هابيل السفاح برغم سمعته السيئة كصاحب كازينوهات القمار ومنازل المسرات العابرة..، لكنه مراب كبير، يمنح الناس قروضاً بفوائد..! صحيح أن نسبته تكون عالية جداً.. وأنه قاسٍ وعنيف جداً مع من يستغفله ولا يرجع له دينه في الوقت المحدد..، لكن ليس أمامه الآن سوى التوجه إليه، فليس هناك من يمكن أن يمدّ يد المساعدة له.. ناهيك أن ما يحتاجه لنقل الجثامين ودفنهم وإقامة العزاء يكلف مالاً كثيراً..

وهذا ما حصل فعلاً، فقد ذهب إليه واستدان منه مبلغاً ليس بالقليل من أجل إنجاز ما عليه من التزامات الدفن ومجلس العزاء مع إضافة مبلغ صغير له ليتصرف به.. وبنسبة ربوية كبيرة.. وهكذا تراكم عليه الدين حتى تضاعف المبلغ المستحق سداده..

وبرغم أن هابيل السفاح كان مستريحاً لعجز آدم المسكين عن السداد، لأن ذلك يعني تراكم نسبته، إلّا أنه أحس بأن آدم المسكين يستغفله.. فهو عاجز بالمرة عن تسديد الدين.. لذا قرر استرجاع دينه مع الأرباح دفعة واحدة.. ولما عجز آدم المسكين عن إرجاع الدين.. أدرك هابيل السفاح بأنه لن يستعيد دينه منه، فبدأ بتهديده.

جلس آدم المسكين على الصوفا في الصالون الضيق. أخذ رأسه بين كفيه وأحنى جذعه الأعلى إلى الأرض مفكراً بالمصيبة التي هو فيها، والتي ستنتهي بعد ساعتين بكارثة مرعبة كما وعد هابيل السفاح..!.

كان قلبه يخفق بسرعة، وثمة قطرات من العرق البارد قد تجمعت على صدغه. أحس بالعجز النفسي الكامل على مواجهة الوضع الذي هو فيه.. ولا إرادياً وجد نفسه ينزل إلى بئر أعماقه المظلمة والعميقة.. وكان سطح ماء البئر مثل مرآة سوداء.. سوداء إلى حد اللمعان.. أحس بالخوف البارد يقبض على روحه.. ارتعب من فكرة النزول إلى بئر أعماقة المظلمة.. لكنه ظل يحدّق في مرآة البئر السوداء.

****

فقد آدم المسكين والديه، قابيل المسكين وأمه حواء المسكين، قبل عام في حادث اصطدم سيارة النقل التي كانا فيها على الطريق الخارجي حينما كانا متجهين لمدينة فيها مرقد لوليّ من الأولياء الصالحين.. ولم يتركا له شيئاً سوى هذه الشقة المتشققة الجدران في بعض أركانها، والتي تضم غرفتين وصالة وملحقاتها من مطبخ مفتوح وغرفة للحمام والمرافق الصحية.. شقة تدخل عليها الشمس نهاراً من جانبيها الشرقي والغربي عبر غرفة نومه ومن خلال الصالة أيضاً..!

كما لم يتركا له ما يوفر له متطلبات العيش سوى راتب تقاعدي بسيط جداً..، بالكاد يكفي لإطعامه بشكل بائس ومساعدته في التنقل، حتى أنه أخذ يمشي مسافات طويلة ولساعات من أجل أن يوفر لنفسه نفقات التنقل.

****

لم تكن حياته سهلة. يتذكر أنه ولِد لأسرة فقيرة.. والده كان يعمل موظفاً بسيطاً جداً، بدرجة مستخدم، مهمته توزيع الشاي والقهوة على الموظفين في دائرة حكومية من دوائر البلاد، أمّا أمه، فكانت ابنة وحيدة لموظف عجوز يعمل في تلك

الدائرة التي كان الأب يعمل فيها..؛ ولكي يضمن الأب مستقبل ابنته فقد زوجها لهذا العامل البسيط، موزع الشاي، الذي وجد فيه الطيبة والتواضع وشكر النعمة مهما كانت تافهة.

وكما روت له أمه ذات مرة بأن والده كان فقيراً وكان يعيش مع أمه في غرفة بالإيجار. فلم يكن أمام جدّه إلا أن دعاهما للعيش معه في شقته هذه. ولم يمض عام من زواج والديه الفقيرين حتى تعالت في شقة جدّه صرخاته الأولى.

****

لا يذكر آدم من طفولته ومن صورة جدّه سوى ذكرياته وهو في الخامسة من عمره.. فهو يتذكر الآن هيئة رجل بدين يجلس على كرسي من الخيزران.. ولا يدري لِمَ يتذكر الآن جيداً بأن جدّه كثيراً ما كان يتبول على نفسه، أو يتغوط على نفسه، حينما لا تكون والدته أو والده موجودين في الشقة..

يتذكر أيضاً أن أمّه التي كانت تخدم في بعض البيوت، لتساعد في مصاريف البيت، كانت تأخذ جدّه إلى الحمام دون تذمر، وتحممه كطفل صغير مثلما كانت تفعل له. ويبدو أن الأب المجروح الكبرياء لم يكن يتحمل الحالة التي وصل إليها، فقد مات غماً وهو على كرسيه الخيزران.

وفي تلك السنة حينما كان هو في الخامسة، توالت المصائب على عائلته، فبعد موت الجدّ أصيب هو بشلل الأطفال. يتذكر الآن هذه الفترة المؤلمة عليه وعلى والديه.. وتلك الأيام الطويلة التي كانت أمّه تحمله لتدور به بين المستشفيات الحكومية والعيادات الطبية الخاصة، وذلك الكم الهائل من الإبر التي زرقت في جانبي آليته..؛ والتي ساعدته بعد عام على أن يتحرك ويمشي، لكن بشيء من العرج من خلال سحب إحدى الساقين.. العرج الذي تلاشى تقريباً بعد سني المراهقة، لكن المتأمل بإمعان في مشيته الآن سينتبه إلى عدم استطاعته تحريك إحدى ساقيه بحرية كاملة.

****

فجأة..؛ رنّ جرس الباب الخارجي. فزّ آدم المسكين من تداعياته. أطبق على بئره ومرآته السوداء. شعر للحظات بخطر محقّق ومفاجئ. لكنه تذكّر بسرعة خاطفة بأن هابيل السفاح قال له بأنه سيكون عنده بعد ساعتين، بينما لم يمض من الوقت سوى ربع ساعة.

نهض عن الصوفا خائفاً. أحسَّ بتشنج في عضلات. أراد أن يتوجه إلى باب الشقة فلم يستطع إلّا بعد لحظات ظل فيها واقفاً في مكانه دون حراك. ثم بخطى وئيدة وحذرة وخافتة اقترب من الباب، ومدّ بطريقة حذرة وجهه، واضعاً إحدى عينيه على العدسة السحرية التي تتوسط الباب، فرأى جارته حواء الدلو تحمل بيدها صينية صغيرة فيها صحنان يتعالى من أحدهما بخار مع قطعة من الخبز.

كان آدم المسكين جائعاً، فهو لم يذق الطعام منذ الصباح حينما اشترى لنفسه وهو في طريقه إلى الجامعة لفة من الجبن الرخيص.. وحينما عاد إلى البيت لم يشرب سوى الشاي. لذلك أحس بدفق من المشاعر المضطربة والمتناقضة.. فها هي أمواج الحياة تسري في كيانه، وفي الوقت نفسه يجد أنه لا يستطيع أن يقابل هذه المرأة التي يشتهيها وحده وهو في مثل هذه الحالة التي هو فيها. لكن جوعه من جهة واطمئنانه بأن الطارق جارته دفعه بشكل لا إرادي إلى أن يسحب لسان القفل كي يفتح الباب لها.

****

جارته حواء الدلو امرأة في الخمسين من العمر.. متوسطة القامة.. متناسقة الجسد.. تميل إلى النحول برغم الإمتلاء الخفيف في ردفيها ومؤخرتها.. تشع بأنوثة صارخة برغم سني عمرها، إذ تبدو للناظر إليها وكأنها لم تتعد الأربعين إلا بقليل.

إنها تعيش مع زوجها، الذي لم يره أو يتعرف عليه بعد، وهو موظف متقاعد يقضي معظم وقته في المقاهي أو يتجول في المدينة وكأنه يكتشفها لأول مرة، فقد قضى سني عمره كبندول الساعة الحائطية يتحرك يميناً ويساراً في حركته بين

البيت والدائرة غير البعيدة عن مكان سكنه، ولم يعرف من مدينته سوى الطريق القصير بينهما. كما لديها ابنة متزوجة تعيش مع زوجها في منطقة بأطراف المدينة، لكنها كانت تزور أمها بالمناسبات.

كانت حواء الدلو تشبه أم آدم المسكين وكأنها أختها التوأم الصغرى، فأمه حين فارقت الحياة كانت في الستين من العمر.. وكانت حواء الدلو صديقة لها.. تلك الصداقة التي تشكلت قبل موتها بأشهر قليلة بعد أن انتقلت مع زوجها إلى شقتها الحالية في هذه البناية، وبعد إحالة زوجها إلى التقاعد وتخفيض مرتبه مما دعاهما إلى البحث عن شقة أرخص في إيجارها.

حين التقت حواء الدلو صدفة عند مدخل البناية بآدم المسكين أول يوم انتقالهما إلى الشقة لم تكن تعرف أنه ابن العائلة التي تعيش قبالتهما في الطابق نفسه. لا تعرف ما الذي شدّها إليه.. ربما طوله الفارع.. ونحوله المحبب.. وشعره الكثيف المبعثر.. كان الوقت صيفا وكان هو يلبس قميصاً داخلياً أزرق اللون يكشف عن ذراعييه القويتين وبنطلونا خاكي اللون.. ودون إرادة منها نظرت إلى جزئه الأسفل تحت الحزام.. فشعرت بخدر لذيذ في منطقتها السفلى.. لكنها لم تعط تلك اللحظة اهتماما مبالغا فيه، إذ من النادر أن يراودها مثل هذا الشعور إزاء شخص ما، لاسيما إذا كان بعمر ابنتها.

فوجئت صباح اليوم التالي من استقرارهما، عندما فتحت بابها مصادفة مع انفتاح باب الشقة المقابلة وخروج آدم المسكين متوجها للجامعة..؛ فشعرت بسعادة لا تعرف مصدرها، وبإحساس غامض يدفعها للتعرف على الجيران في الشقّة المقابلة.!.

وهكذا بدأت صداقة الجارتين حواء الدلو وحواء المسكين.. ومن خلال أمه كانت تتسقط أخباره وتتعرف على شخصيته.. فعرفت أنه طالب جامعي يدرس الأدب الإنكليزي.. وأنه لا يواظب على الدراسة بحيث أنه أعاد السنة الأولى.. وأنه يقرأ كثيراً.. وأن أمه تخاف عليه من القراءة التي ستذهب بعقله، أو تدفعه إلى الانتحار..!!وأنه، وهذا هو المهم بالنسبة لحواء الدلو، بلا صداقات نسوية ولا علاقات غرامية..!..

إلّا أن هـذا التواصـل انقطـع بعد الحادث.. علـى الرغم من حثها لزوجها أن يقوم بالواجب معه ويساعده في مراسيم الدفن والعزاء لأنه عمليا لا أقرباء لديه.. لكن زوجها لم يستجب لذلك..؛ فبادرت هي بالعناية به.. لاسيما في المناسبات التي تسمح بالتواصل بين الجيران دون مقدمات.. إلّا أنها انتبهت إلى أن آدم المسكين انكمش أكثر منذ وفاة والديه.. تقوقع داخل نفسه.. فلم تجد معه محاولاتها في التقرب إليه.

حواء الدلو لم تيأس.. إذ ظلت تسعى إلى الاهتمام بآدم المسكين؛ وظل هو كما هو.. كلما سعت بالاقتراب منه تجده ينكمش على نفسه، بحيث لا يفسح لها إلّا الممكن البسيط من الحديث، أو السماح لها في المناسبات والأعياد بأن تقدم له الطعام أو الحلوى.. أو اختلاق المناسبات وادّعاء الأفراح العائلية غير الحقيقية من أجل ذلك.

كانت حواء الدلو منذ انتقالها في اليوم الأول إلى شقتها الجديدة غير واضحة وصريحة مع نفسها كلياً في فهم دوافعها للاهتمام بآدم المسكين، لكنها من أجل أن لا تشعر بالذنب وبالتأنيب الأخلاقي فقد وجدت في ينابيع حنانها وطيبتها وفي سيل الأحاديث عن احترام الجيران ما يبرر لها ذلك الاهتمام..

بيد أنها قبل شهرين، وفي ليلة كان فيها القمر بدراً استيقظت على شخير زوجها المزعج.. حينها أحسّت بضغط الدماء على كل مسام جسدها.. وانتبهت وهي في الفراش بمشاعر تحرك دفق الدماء في جسدها، ودغدغة مخدرة تسري بين فخذيها.. وفجأة.. وهي في غرفتها المعتمة رأت آدم المسكين يقف بقامته الفارعة عند باب الغرفة.. فزّت من استرخائها اللذيذ.. نظرت ثانية بفزع إلى باب الغرفة فلم ترَ أحداً.. تعوذت واستغفرت ربها.. ثم نهضت عن السرير. وذهبت إلى المطبخ.. أعدّت لنفسها كوبا من قهوة النسكافيه.. وجلست تفسّر رؤيتها الغامضة.. بينما كان شخير زوجها يأتيها رتيبا وكأنه إيقاع من عالم آخر..

ومنذ تلك الليلة أخذ خيال آدم المسكين يظهر لها حينما تكون وحدها.. لاسيما حينما يخرج زوجها في رحلته النهارية المعتادة لاكتشاف المدينة.. إلى أن

فـزّت ذات ليلـة علـى يد زوجها تهزها لتوقظها.. وحين فتحت عينيها رأت زوجها ينظر إليها بتساؤل.. ثم سألها بخفوت: ما بك حواء.. هل رأيت كابوساً..؟..

لـم تعـرف هـي لحظتها بماذا تجيب.. فقال لها بأنه سـمعها تأن وتتأوه وكأن هنـاك مـن يعذبها..! لكنها انتبهت لنفسـها فجأة وأحسّـت بالرعـب.. فقد وجدت نفسها قد مدّت يدها لتداعب ما بين فخذيها..! وحمدت الرب بأن زوجها لم ينتبه لذلك، وأن الغطاء وعتمة الليل ستراها..

بعـد تلك الليلة انتبهت ليقظة جسـدها المعذبـة.. وأخذت تتدفق عليها رؤى ومشـاعر تسـتحضر فيها آدم المسـكين ممتزجا مع رغبة غامضة في أن تراه.. وأن تكـون قربه...ومنـذ تلـك الليلة أخذت تبحث بتفكيـر وروية ومكر عن الحجج أو المناسـبات لتحمل له الفطور أو طعام الغذاء.. لكنه في غالب الأحيان كان يصد رغبتهـا بحكـم طبيعته الانعزالية وخوفه الفطري من النسـاء، ومن الآخرين الغرباء بشـكل عـام، حيـث كان يعاملهـا بحياديـة وبـرود لا يليقـان أحيانا بحـرارة ودفء كلماتها ورغبتها المفضوحة نحوه.

لكـن حـواء الدلـو لـم تكـن تعرف بـأن آدم المسـكين كان ينتقد نفسـه على جبنه وتردده في التواصل معها، فقد كان يشـتهيها سـراً، ويشـتم نفسـه أحياناً على انكماشـه على نفسـه وعدم مبادرته في أي شـيء نحوها بينما هي تفيض عليه من رقتها وطيبتها وحنانها الأمومي الفياض.. بل وإشعاعات الرغبة التي لم تكن حواء الدلو تستطيع كتمها بالكامل..

وبرغم كل هذا فلم تكن حواء الدلو مبالية لبرودة تواصله معها، فكأنها كانت بغريـزة الأنثـى تعـرف أنـه يميل إليها لكنـه متردد وخجول، وربمـا هو بلا تجارب نسائية أو عاطفيه.. لذا عليها الصبر إلى أن تنضج الثمرة فتسقط دون قطاف..!.

****

فتح آدم المسـكين الباب بشـيء من الحيوية. حين نظرت إليه أدركت الجارة حواء الدلو، بأن حيويته ليس لتغير في سلوكه نحوها، وإنما لأنه جائع جداً بحيث

لا يستطيع السيطرة على سلوكه المتحفظ.. أحست بخفقان قلبها وجيشان مشاعر الشفقة والحنان نحوه، لكنها أرادت أن تستفيد من حالته النفسية تلك، وقررت المبادرة..، فما أن مدّ يده لأخذ الصينية منها حتى تمسكت هي بها دافعة إيّاه بها إلى داخل الشقة. وخلال لحظات صارت هي داخل الشقة.

ارتعب آدم المسكين حين صارت جارته داخل الشقة وبيدها صينية الطعام، فكثيرا ما كان يستلم صينية الطعام أو صحن الفواكه والحلوى عند الباب دون أن يسمح لها بالدخول..!.. لكن هي الآن في الشقة.. ارتبك جداً.. حتى أنه نسي جوعه ورغبته في إلتهام الطعام..!

انتبهت حواء الدلو لملامح الارتباك بل والرعب التي ارتسمت على وجهه فلم تود أن تحرجه أكثر، فبالنسبة لها أنها أنجزت خطوة مهمة في دخولها للشقة، وعليها الآن أن تهدئ من مخاوفه وروعه بأسلوبها الأنثوي. فقالت له:

- اليوم أعددتُ وجبة كنا نعدّها معاً أنا والمرحومة أمك.. فتذكرتك.. فأحببت أن أحمل لك شيئا منها.. أنت شاحب الوجه.. ما بك..؟ هل أنت مريض..؟

قالت ذلك بتلقائية ملتفتة في نواحي الشقة الضيقة التي تعرفها جيداً.. ودون أن تنتظر جوابه اتجهت إلى جانب الصالون ووضعت الصينية على الطاولة الصغيرة بعد أن رتبت بعض الكتب التي كانت ملقاة على جانب من الصوفا.

كان هو ينظر إليها وفي نفسه تتصارع رغبات شتى.. فهو مرتبك من وجودها معه في الشقة، وفي الوقت نفسه أعجبه ذلك..!. بل انتبه لنفسه بأنه وأثناء انهماكها بوضع الصينية وترتيب الكتب وهي منحنية كان هو يتأمل مؤخرتها المتناسقة.

انتبهت الجارة الخمسينية إلى أنه لم يجب على سؤالها، فأدركت ارتباكه وخجله، ولم تشأ أن تحرجه أكثر، كما أرادت له أن يتذوق الطعام، فقالت له:

- أنا سأذهب.. لا تتعب نفسك بحمل الصينية.. أنا سأمر في وقت لاحق لأخذها.. فربما تحملها أنت ولا أكون موجودة بالبيت..!

انتظرت أن ينطق شيئاً إلّا أنه ظل صامتاً ومرتبكاً. نظرت إليه للحظات.. تأملت خصلات شعره المبعثر.. كما أعجبها شحوبه الذي منحه وسامة خاصة،

وفي الوقت نفسه فجّر في أعماقها حناناً منحها سعادة خاصة. اقتربت منه خطوة فأحست الخوف في نظراته.. لفحته أنفاسها الطيبة.. أحس وكأنه لا يعرف كيف يتحكم في نفسه.. لكنها لم تشأ أن تضغط عليه أكثر.. ابتسمت له برقة ابتسامة ملغزة تشي بالرغبة والانتصار الأنثوي أكثر مما تكتم. وغادرت الشقة.

أحس آدم المسكين بضعف شخصيته وخذلانه. انتقد نفسه لأنه ظل واقفا كالصنم أمامها. لم يتحرك، ولم ينطق بأية كلمة، علماً أنها بدأت الحديث معه، وكان واضحا أنها تريد البقاء أكثر. " إلى متى سأبقى جبانا هكذا.. إلى متى..؟ " سأل نفسه بصوت داخلي صامت لكنه عال.

****

التهم آدم المسكين الطعام بنهم وسرعة حتى أنه أخذ يشرب مرق الدجاج الذي كان ساخنا مباشرة من الصحن دون أن يستخدم الملعقة، بل إنه من شدة جوعه لم يستطع السيطرة على طريقة شربه لمرق الدجاج من الصحن فاندلق شيء من المرق مبللاً أطراف فمه ورقبته ومنسكبا قليلاً على قميصه. وتوجه لأكل صحن الرز مع فخذ الدجاج بشراهة، ولم يأكل الخبز.. وإنما بعد أن انتهى من الصحنين أخذ يأكل الخبز وحده، فأدرك أن جوعه أكبر من أن تسده هذه الوجبة، فأخذ يمسح صحن المرق بقطعة الخبز عسى أن يبللها بما تبقى من الدسم.. ولم يكن يستكمل ما تبقى من قطعة الخبز حتى رن الهاتف الأرضي.

فزّ آدم المسكين عند سماع رنين الهاتف الأرضي. أعاده الرنين إلى كوابيسه.. ولم يكن أمامه إلى أن يستسلم لقدره القاسي. لكن صورة جارته الخمسينية حواء الدلو ونظراتها الحنونة والواثقة ورغبتها الأنثوية المثيرة منحته جذوة من حياة وعزاء وجوديا يمنح وجوده معنى، لكنه الآن بانتظار كارثة مؤلمة ولا وقت للمغامرات النسوية وللأفكار الفلسفية عن الوجود ومعنى الحياة وجدواها.

نظر إلى الساعة الجدارية. عرف بأنه لم يمض من الموعد الذي حدده هابيل السفاح سوى أربعين دقيقة.. أي أن المتصل ربما ليس هو.. وربما هو..!

لم يكن بمقدوره الرد على أي كان. وكان قد قرر مع نفسه مغادرة الشقة، لكن فجأة برقت في ذهنه فكرة لم ينتبه لها سابقا.. ألا وهي بيع هذه الشقة البائسة بأي مبلغ ممكن أن يحصل عليه منها ليسد بها دينه الذي بالتأكيد سيلتهم ثلثي المبلغ التقديري الذي سيحصل عليه.. ويستطع بما تبقى أن يؤجر غرفة بائسة على السطوح. إلّا أنه رد على فكرة بيع الشقة بأن هابيل السفاح لم يترك له من الوقت كثيراً.. كيف يمكنه بيع الشقة خلال ساعة وبعض الوقت..؟ هذا جنون..! فكرة بيع الشقة منحته بعض الأمل.. لذلك فكر بأن عليه مغادرة الشقة الليلة بأية طريقة.. وألّا يعود إليها إلّا بعد أن يبيع الشقة، وربما ستساعده جارته الخمسينية في ذلك. إذن عليه أن يكسب بعض الوقت.

لم يرد آدم المسكين على الهاتف. قام عن مكانه. ألقى نظرة سريعة إلى ما حوله، وعلى صينية الطعام.. أحس بمشاعر العرفان والدفء نحو جارته التي أطعمته، وغادر الشقة.

حين صار خارج شقته وقف عند بابها من الخارج.. نظر إلى الشقة المقابلة القريبة حيث تسكن حواء الدلو التي بعد دخولها شقته اليوم صارت وكأنها دخلت حياته.. تمنى لو يراها الآن ويحدثها عن بيع الشقة.. لكن لا وقت لديه.. فربما سيفاجئه هابيل السفاح وأعوانه.

هبط السلّم المظلم والضيق بسرعة وكأنه مطارد من أشباح سود غير مرئية مسلماً نفسه لليل والظلام.

الفصل الثاني

المقبرة

المساء كان معتماً على غير العادة في مثل هذا الوقت. لا قمر ولا نجوم في السماء. غيوم سوداء تثقل على المدينة وكأنها جيش من الأشباح المظلمة تحمل راياتها السود وتلتّف لتحاصر المدينة والبلاد كلها. الشوراع مقفرة إلّا من سيارات تمر بين فترة وأخرى مسرعة سرعة جنونية وكأنها مطاردة من قبل كائنات لامرئية مرعبة.

لم يكن آدم المسكين يعرف إلى أين يتجه. كان همّه الأول الابتعاد عن الشقة قبل وصول هابيل السفاح الذي كان غضبه عارما وتهديداته مخيفة هذه المرة. لم يكن يعرف إلى أين تقوده خطاه لأنه كان غارقاً في تداعياته، لاعنا نفسه على هذه الورطة التي ألقى بنفسه في عمقها.!..

دار في عدة أزقة دون هدى. أزقة فارغة معتمة، وكأنه يمشي في مدينة مهجورة من السكان. التّف إلى الشارع العام المضاء بمصابيح أعمدة الكهرباء.. الطريق الطويل العريض الذي يقود إلى خارج المدينة حيث على جانب منها تمتد مقبرة المدينة حيث دفن والديه. كانت هناك حانات مفتوحة لكنها خالية من الرواد. وفنادق لا يقف أمامها أحد لكنها مفتوحة الأبواب ولا يبدو أي شخص في داخلها.. رأى عربة لبائع متنقل محملة بالفواكه لكن صاحبها غير موجود..! سار مندهشا مما يراه حتى أنه ظن نفسه يحلم وأن ما يراه ليس حقيقياً.

ظل يمشي في الشارع العريض.. فجأة فزّ من سرحانه على صوت صافرة سيارة الإسعاف. مرت سيارة الإسعاف التي كانت مقبلة من الجهة التي يمشي نحوها تتبعها سيارتان للشرطة من أمامه واختفت السيارات في أعماق الظلام من الجهة الأخرى.

كان الشارع يتجه شمالاً لكن الرصيف الذي يخطو عليه الآن يقود إلى شارع جانبي وإلى محطة مترو الأنفاق.. فجأة.. أرتطم رأسه وكامل جسده بجدار غير مرئي. أراد أن يمشي لكنه لم يستطع. لم يكن هناك أي شيء أمامه. كان المدى مفتوحا أمامه.. لكن هناك حاجزاً غير مرئي يقف أمامه.!..

مدَّ يده فتلمس ما يشبه الجدار الزجاجي الصلب يقف أمامه ساداً الطريق، لكنه لا يستطيع رؤيته. لم يصدق ما تحسسته كفه.. فعيناه لا تريان أي شيء، لكن هناك جداراً غير مرئي.. وملموس يقف أمامه ويمنعه عن السير والانعطاف جانبا مع حركة الشارع الجانبية.

حاول أن يغيّر من مساره فصار على طرف الرصيف نفسه وحاول السير، لكنه أحس برأسه يصطدم بالجدار غير المرئي مرة أخرى. رفع رأسه إلى الأعلى لعله يرى حدوداً ما أو شيئا يوضح له الأمر، لكن بلا جدوى، فليس هناك أي شيء مادي مرئي يقف حاجزاً.

لم يفهم آدم التائه ما يجري معه.. فكّر مع نفسه بأنه يتجه نحو الجنون بالتأكيد. ولكي يبقي لنفسه شيئاً من المنطق في تعامله مع ما يراه عبر الشارع منتقلاً إلى الجانب الأيسر من الطريق الذي لا ينعطف إلى أي شارع جانبي وإنما يتجه صاعداً إلى المقبرة وإلى خارج المدينة.

كان الطريق على الجانب الأيسر حراً بدون جدران وهمية. مشى فيه كالتائه.. كان حائراً من خلوّ الطريق من السابلة.. سار متجها إلى شمال الطريق...سأل نفسه بحيرة وقلق : " أأقضي الليل كله ماشيا في الطرقات..؟ أين سأنام..؟ ومتى عليّ الرجوع إلى البيت..؟"..

فجأة، وبلا إردة منه، انبثقت صورة جارته حواء الدلو أمام عينيه.. أحس بمشاعر لطيفة نحوها.. وأخذ يلعن نفسه على جبنه وتردده في تعامله معها،.. " آهٍ.. لو كنت غير ما أنا عليه من تردد وبرود في تعاملي معهما لكنت أمضي الليل عندهم حتى وقت متأخر.. إلى أن أطمئن من عدم مجيء هابيل السفاح..!.. لا.. لا.. اليوم هي دخلت الشقة.. يعني أنها ستدخل المرة المقبلة أيضاً.. وعليّ أن

أكـون أكثـر جـرأة وانفتاحـا معها فهـي امرأة مثيرة وطيبة جـداً.. لكن الآن علي أن أجـد حـلاً لوضعـي.. كيف سـأنفذ من تهديد هابيل السـفاح ومن أيـن آتي بالمال لتسديد دينه..؟.. لو يصبح الصباح لذهبت إلى جيراني أو إلى أي مكتب للعقارات لأعرض عليه الشقة للبيع وأسدد ديني وأعيش مما يتبقى!.. لكن حتى الصباح عليّ أن أتدبر نفسي.. ".. هكذا كان آدم المسكين يحاور نفسه ويسألها ويجيب عليها..

التفت جانبا.. فرأى مكاناً غريباً أشـبه بأطلال لبناء قديم مجهول الهوية، فلا هـو بالقصـر ولا بالقلعـة.. أعمدة وواجهة عالية ومدخل ضيق.. وأشـجار خضراء جميلـة تحـف بـه.. لكـن كل ذلك أختفى بلمح البصـر.. ورأى أمامه لافتة ضوئية كبيـره تمتـد علـى واجهـة فنـدق من طراز كلاسـيكي في البناء اسـمه: " **اسـتراحة مفيستو**".. استغرب من نفسه.. فقد رأى أطلالاً قبل لحظة، فكيف لم ير الفندق.. بل واستغرب لاسم الفندق الذي يحمل أحد أسماء إبليس..!..

مدّ يده إلى جيب بنطاله فأخرج ورقة نقدية هي ما تبقى لديه لآخر الشـهر.. نظر إلى الفندق وطرازه وفكر مع نفسه بأن كل ما لديه ربما لا يكفي لليلة واحدة في هذا الفندق.. وقبل أن يهم بالدخول ليسـأل عن سـعر الغرفة أو السـرير لليلة الواحدة، خرج رجل وسيم الشكل، يبدو وكأنه في الأربعين من العمر، يلبس بدلة سـوداء.. وحذاءً جلدياً أبيض بحيث يشـكل تنافرا وتناغما مع ملابسـه في الوقت نفسه.

نظـر الرجـل الوسـيم إليـه نظـرات مـن يعرفـه أو يتوقـع مجيئـه.. ارتبك آدم المسكين من نظراته.. وقبل أن يصل آدم إليه قال الرجل له: لا أماكن لدينا يا آدم!..

ذهل آدم المسكين حين سمع ما قاله الرجل وسماه باسمه، فقال له:

- من أين تعرف اسمي..؟ هل التقينا سابقاً..؟

ابتسم الرجل وحدّق في وجه آدم المسكين وقال وكأنه ينطق حكمة أو مثلاً سائر:

- كلنـا أوادم.. أنـا أيضـا آدم.. وحتـى لـو كنـت تحمل اسـما آخر فأن اسـمك الحقيقي يبقى آدم.. عموماً.. أنت تبحث عن ملجأ يقيك شـر البشـر.. أليس

كذلك..؟.. لكن لا مكان لك في هذا الفندق.. لقد امتلأ منذ وقت طويل.. ليس أمامك سوى المقبرة.. فهي المكان الآمن الوحيد في الحياة.. هناك النوم أكثر أمنا وهدوءاً من هنا..

ثم استدار الرجل ودخل الفندق من بوابتة الزجاجية العريضة التي فتحت حين اقترب وأغلقت بعدما دخل. بقيّ آدم المسكين واقفا لا يعرف ماذا يقول.. وحين قرر الاستفسار عمّا قاله الرجل عن البشر أكثر.. اتجه إلى بوابة الفندق الألكترونية إلّا أنها لم تفتح له.. اقترب أكثر من البوابة الزجاجية وضع وجهه على الزجاج وأحاط جانبي وجهه بكفيه كي يرى ما في الداخل بشكل أوضح..، لكنه فوجئ بأن الفندق فارغ.. لا أحد من موظفي الاستعلامات.. ولا أثر للرجل.. وكأن الفندق هو مكان مهجور لا أكثر..

تراجع للوراء مرتبكاً.. صار الرصيف خلفه.. نظر إلى واجهة الفندق فرأى الرجل الذي تحدث معه يقف عند نافذة إحدى الغرف في الطابق الثالث وينظر إليه مبتسما.. فجأة انطفأت الواجهة الإعلانية المضيئة.. نظر مرة أخرى نحو نافذة الرجل فلم يجده.. كانت الستائر مسدلة على النافذة.. شعر آدم المسكين بالخوف.. ما الذي يجري في هذا الواقع المحيط به.!..

فجأة.. وكأنه نداء سماوي.. تذكر كلمات الرجل.. وسمع صوت الرجل: " ليس أمامك سوى المقبرة.. فهي المكان الآمن الوحيد في الحياة.. هناك النوم أكثر أمنا وهدوءاً من هنا.. ".. تتردد في أعماقه.. وهمس هو مع نفسه : نعم.. المقبرة.. هي المكان الآمن الوحيد في الحياة.!..

واتّجه بهمة نحو أعلى الطريق حيث تقع المقبرة على درب جانبي يقود إليها.

****

حين وصل آدم المسكين إلى المقبرة أحس بالخوف. لكن ما أن دخلها حتى انقشع خوفه شيئا فشيئا وبسرعة، وكأنه ودع العالم ومخاوفه خلفه. سار بخطى لا إرادية نحو قبريّ والديه. لكنه شعر وكأن سكنة القبور كلهم أحياء، وهم ينظرون

إليه وهو يجتاز الطريق نحو أهله.

في اللحظة التي وصل إلى قبر والديه فزّ آدم على صوت نعيب بومة كانت تجلس كالحارس على شاهدة قبر قريب منه جداً.. نعبت البومة ثم طارت.. ارتبك آدم. أحس بالفزع لأول مرة منذ دخوله المقبرة. حين كان يتجه إلى قبر والديه فكر بأنه سيقضي الليلة ساهراً أو ينام في المسافة بين القبرين.. لكنه الآن ارتبك. انقبض قلبه من نعيب البومة.

التفتَ نحو الجهة التي جاء منها النعيب.. أحس بالصدمة.. رأى من وراء القبر برغم العتمة تمتد قدمان لرجل يلبس حذاء أبيض.. استغرب.. فكر لحظة أين رأى مثل هذا الحذاء.. لكنه لم يتوقف كثيراً عند الحذاء وإنما أخذ يفكر بهذا الرجل النائم على الأرض العارية برغم أن ما ظهر من بنطاله يشير إلى انه ليس شحاذاً ولا بائساً.. لكن ربما لم يجد مكاناً يأويه أو أنه هارب مثله، فجاء إلى المقبرة هربا من الحياة.. لكن الوقت ما زال مبكرا للنوم..؟...ولم يكمل آدم أسئلته مع نفسه.. فقد خطرت في ذهنه فكرة مخيفة شحب لها لونه وهو في تلك العتمة المخيفة..!..

تلفت حوله ليتأكد أنه ليس هناك أحد يراقبه.. لم يعرف لماذا تلفت فهو على يقين بأنه ليس هناك أحد يراقبه هنا، ولكي يزيل الشك عن نفسه ويلغي الفكرة التي خطرت بذهنه فقد تقدم خطوات نحو القبر الذي لا يبعد عن قبر والديه إلا بحدود المترين.

حين صار في موضع يمكن أن يرى الشخص المتمدد بكامله.. ارتّد للوراء وكاد يسقط على قبر مجاور له، فسارع بالإتّكاء عليه ليتفادى السقوط.

لم يرَ آدم شخصاً ينام، وإنما رأى جثة مقطوعة الرأس ممددة على ظهرها، جثة ببدلة رجالية سوداء.. جثة تكاد تعود للرجل الغامض نفسه الذي التقاه عند مدخل الفندق، لكنه الآن بلا رأس.. الملابس نفسها.. الحذاء نفسه.. وبجانب الجثة ثمة حقيبة جلدية كبيرة.

شلّت الدهشة الممزوجة بالرعب آدم المسكين.. ظل لدقائق متخشباً من هول

ما يرى.. وشيئاً فشيئاً استوعب الموقف. اقترب من الجثة المقطوعة الرأس..؛ وبيد مرتجفة، وكأنه يخاف من الجثة أن تمسك به، مدّ يده إلى الحقيبة.. سحبها نحوه بسرعة.. وقفز إلى القرب من قبر والديه.. قرفص على الأرض.. وبيد مرتجفة فتح الحقيبة.. فسقط قاعداً على الأرض من هول المفاجأة!..

كانت الحقيبة مليئة برزم من الدولارات لم يتبين مقدارها.. تحسس الحقيبة.. فتلمس جيباً جانبياً للحقيبة.. مد يده فأخرج رزمة من أوراق لم يتبين ما هي في العتمة، ومعها مجموعة من البطاقات الشخصية الرسمية الصادرة من الجهات الرسمية المعتمدة.. وفي العتمة حاول أن يقرأ الأسم أو يتعرف على صاحبها.. لكنه انتبه إلى أن الصورة في جميع البطاقات الشخصية تبدو وكأنها الصورة نفسها.!..

ظل آدم المسكين جامداً في جلسته. لا يعرف ماذا عليه أن يفعل.. هل عليه أخذ الحقيبة والهرب من المقبرة..؟ هل عليه إبلاغ الشرطة..؟ وهل إذا ما أبلغ عن الجثة سيمرّ الأمر معه بسلام دون تحقيق معه أو شبهة في اتهامه بالجريمة..؟ ومن هو هذا الشخص..؟ كيف كان عند الفندق وكيف قتل هنا..؟ ومن قطع رأسه..؟ ولماذا..؟ ومتى..؟ ولماذا يحمل عدة هويات واستمارات عديدة..! والسؤال الأكبر هو: لماذا لم يأخذ القاتل حقيبة النقود..؟ أليس هناك سر في هذا الأمر..؟

****

قضى آدم المسكين وقتاً طويلا وهو جالس بين قبريّ والديه وأمامه الحقيبة الجلدية المليئة برزم الدولارات والعملات الأخرى. كانت الأسئلة تطارده مثل قطيع من الذئاب.. هل هو في حلم أم أن ما جرى قد جرى في الواقع..؟ ربما هو الآن في فراشه يحلم وأن ما يجري هنا هو ضمن أحداث الحلم..؟ وإلاّ كيف كانت المدينة مهجورة حينما عبرشوارعها ماشياً..!!.. ثم من أين ظهر له هذا الرجل عند باب الفندق لينصحه بالمجيء إلى المقبرة..؟ من هو..؟ وكيف أن الجثة تكاد تكون جثته من الناحية الجسمانية..؟ وبعد كل هذا.. أعليه أن يأخذ

الحقيبة..؟ وأين سيذهب الليلة..؟ ايبقى في المقبرة..؟ وماذا لو جاء القتلة ليأخذوا الحقيبة..؟ وهل عليه أن يرجع إلى شقته..؟ أليس بإمكانه الآن أن يدفع لهابيل السفاح ديونه كاملة..؟ لكن هل عليه أن يبلغ الشرطة عن الجثة..؟ وهل عليه إذا ما بلغّهم عن الجثة أن يسلّم الحقيبة أيضاً..؟ وهل إذا لم يسلمها وبلّغ عن الجثة ألا ينتبهون في ما بعد لتغير حالته المادية فيتهمونه عندها بإقتراف الجريمة..؟ ثم وقبل كل شيء.. من هو هذا الشخص القتيل؟ ولماذا قطعوا رأسه..؟ هل يعقل أن يكون هو الشخص الذي التقاه عند باب الفندق..؟ من قتله.. ومتى..؟ ألم يره في غرفته واقفا عند النافذة..؟ كيف إذاً تم قتلته وحمل جثته إلى هنا..؟

ظل آدم المسكين يعيد ويصقل في هذه الأسئلة حتى تعب منها وأتعبها. فجلس لفترة طويلة ساكناً لا يشعر بشيء قط، وكأنه مفرغ من الحزن والفرح، والخوف والدهشة.. مليئا باللامبالاة بما حدث وسيحدث.. كان يحس بالخواء.

فجأة.. وعلى غير توقع منه وبشكل لا إرادي وكأنه مسير نهض من مكانه..، حمل الحقيبة معه وتوجه ليغادر المقبرة.

****

حين صار في الشارع العام انتبه إلى أن الحياة عادت من جديد للطريق وللواقع الذي يعرفه.. فالسيارات صارت تمر بسرعة من أمامه.. والأضواء أخذت تغمر المدينة.. فتوجه نازلاً الطريق من حيث أتى.

شعر آدم المسكين بأنه يشارك في تمثيلية غامضة.. لكن بما أنه صار بإمكانه التحرر من تهديدات هابيل السفاح فلا مانع لديه من أن يواصل دوره الغامض في هذه التمثيلية الغامضة.

وكلما كان آدم المسكين يتوغل في الشارع العريض صارت الحياة أكثر ضجيجا، حيث امتلأت الحانات والمطاعم بالرواد وتعالى ضجيج الباعة المتجولين على عرباتهم..

ومن مسافة غير بعيدة انتبه لأضواء إعلان فندق " استراحة مفيستو" وهي تغمر

الشارع بأشعتها. وحين صار أمام الفندق برقت في ذهنه فكرة أن ينام الليلة في هذا الفندق.. ويتأكد بالكامل من محتويات الحقيبة ويتعرف على هوية صاحبها.. وفي الصباح يذهب لتسديد الدين.. ولم يفكر بأكثر من ذلك.

****

حين دخل آدم المسكين إلى الفندق فوجئ بأنه حديث وعلى آخر طراز من التقنية والتنظيم.. توجه إلى مكتب الاستعلامات الذي بدا له خالياً من أي موظف.. ضغط على جرس صغير موضوع للتنبيه.. وفجأة.. برز أمامه موظف يشبه الموظف الذي استقبله عند باب الفندق قبل ذهابه إلى المقبرة، لكنه أصغر سنا منه، ويرتدي ملابس مشابهة.. أين كان الموظف..؟ ومن أين جاء..؟ وكيف ظهر أمامه فجأة ولم يره حينما توجه لمكتب الاستعلامات..؟.. لكن الموظف نظر إليه وكأنه يعرف ما يدور في ذهنه، ابتسم له ولم يعلق شيئاً، فقال له آدم المسكين مرتبكاً:

- هل يمكنني إيجاد غرفة لديكم..؟

ابتسم موظف الاستعلامات له، وأشار إلى صورة في عمق المكتب بدت لآدم المسكين وكأنها ظهرت من الغيب؛ فلم تكن موجودة حينما جاء إلى مكتب الاستعلامات؛ أشار الموظف إليها قائلاً:

- هذا هو مديرنا السيد آدم آدم.. وهو يعرفك.. وقد قابلك كما قال لنا.. وهو الذي أخبرنا بأنك ستأتي في وقت لاحق إلى فندقنا.. وقد أكّد علينا بأنك ستأتي للمبيت في فندقنا..

سرت رجفة في جسد آدم المسكين فقد كان الرجل الذي قابله هو مدير الفندق إذن..؟ لكنه تخيله قد قتل، فهو لم يشك بأن الجثة كانت جثته.

وبارتباك شديد سأل:

- هل هو نفسه قال لكم بأني سأطلب المبيت في الفندق..؟

- نعم..

- لكنه قال لي حين التقيته بأنه لا مكان لي في الفندق..؟
- نعم.. هو أخبرنا بذلك أيضاً.. لكنه كان ينتظرك بعد عودتك من المقبرة..
- ماذا..؟

****

في غرفته بفندق " استراحة مفيستو" كان آدم المسكين جالساً كالمأخوذ أمام الحقيبة الجلدية التي وضعها على طاولة المكتب التي تتوسط الغرفة والتي ترتبط بها مرآة كبيرة. وبعد دقائق فتحها.. وأخذ يخرج منها رزم الدولارات.. أخذ رزمة وعد أوراقها ذات المئة دولار فعرف أن كل رزمة هي إثنا عشر ألف دولار.. وأمامه أكثر من خمسين رزمة منها....

اندهش أمام هذه المبلغ االذي حسبه في ذهنه مباشرة بأنه ستمائة ألف دولار.. فهو أولا لم ير طوال حياته هذه الكمية من المال بعينيه وإنما يشاهدها في نشرات الأخبار، وبالتحديد في النشرات الاقتصادية، أو في أفلام العصابات والمغامرات والسطو على البنوك..! ثم أنه من أجل شدة واحدة كاد يفقد حياته.. فكل دينه أقل من رزمة واحدة من هذه الرزم.!.لكن لِمَ هذا المبلغ بالتحديد..؟

ظل آدم المسكين يحدق في الرزم التي صفها أمامه.. شعر بخوف غامض وكأن هناك عيوناً مجهولة لكائنات غير مرئية تنظر إليه، فأخذ يعيد الرزم إلى الحقيبة بسرع.. لكن ولا إراديا نظر إلى المرآة الكبيرة، فانتبه إلى أن رزم النقود غير موجودة فيها ولا يمكن رؤيتها، على الرغم من وجود الكثير منها على الطاولة بعد.!..

توقف عن إدخال الرزم.. نظر أمامه فوجد الرزم المالية موجودة. نظر إلى المرآة فلم يرَ الرزم..، ولم يشأ أن يتعب نفسه بالتأويل والتفسير، فقد قبل أن يشارك في هذه التمثيلية الغامضة دونماً تأويلات.!..

حين انتهى من إدخال رزم المال إلى الحقيبة، مدّ يده إلى الأوراق الرسمية والبطاقات الشخصية.. كانت خمس بطاقات شخصية..!.

وعلى ضوء الغرفة الباهر تفحص البطاقات الشخصية.. وهاله أن جميع الصور الشخصية لحاملي الهويات هي صورة واحدة للشخص نفسه.. الذي هو الرجل الذي قابله عند باب الفندق قبل أن يتجه إلى المقبرة..! أما الأشخاص فكلهم يحملون اسم " آدم" ويختلفون في الألقاب، أما الأوصاف والطول والعلامات الفارقة فهي نفسها.. الاختلاف في الحالة الاجتماعية وفي المهنة فقط...!

واحد منهم محام، والآخر موظف في الأرشيف بإحدى الدوائر.. وثالث يعمل موظفا كبيراً في أحد البنوك.. ورابع سياسي معروف يعمل موظفاً في مالية إحدى الدوائر.. وخامس خريج جامعة لكنه عاطل عن العمل، لا مهنة محددة له.

أحس آدم المسكين وكأنه في كابوس. فهذه التمثيلية غامضة جداً.. وهو يحس بالضياع وسط هكذا أسرار وألغاز..!!.. ما هذه المتاهة التي وجد نفسه فيها..؟

وحين أخذ رزمة الاستمارات الموجودة انتبه إلى أن هناك خمس استمارات قد امتلأت بمعلومات لا تختلف كثيراً عما جاء في البطاقات الشخصية لأصحابها.. مع إضافة عنوان كل منهم.!..

ظل آدم المسكين جالساً على كرسية حول الطاولة أمام المرآة. نظر إلى نفسه في المرآة.. فربما هو غير موجود أيضاً.. لا.. هو يرى نفسه..!.. فكر مع نفسه بأن ما يجري هو شيء حقيقي.. لكنه غامض بحيث يكاد يشبه الكابوس.!..

أحس آدم المسكين بالإرهاق.. فكّر بأن عليه أن ينام. نهض عن كرسيه وألقى بنفسه على السرير.. خطّط مع نفسه، وهو في طريقه إلى النوم، بأن عليه أن يستيقظ مبكراً ليذهب إلى مكتب "الفردوس" في وسط المدينة ويدفع دينه بالدولار لهابيل السفاح.. ومن ثم يذهب إلى شقته.. وفي تلك اللحظة تذكر حواء الدلو، فتمنى لو أنها الآن معه في الغرفة وعلى هذا السرير. مدّ يده إلى جانب السرير وأطفأ النور.

الفصل الثالث

مرايا آدم المقعرة

فتح آدم المسكين عينيه في الغرفة شبه المعتمة. أخذ يتلمس جسده وجوانب السرير. نظر إلى سقف الغرفة العالي، والذي بدا له كقطعة جبسية فنية لما فيه من نقوش وتداخل في المستطيلات الملونة بالبرتقالي الفسفوري وبتدرجات اللون البني. إذن، هو يعيش حقيقة وليس حلما.!..

نور النهار قد تسرب من وراء ستائر النافذة الشفافة. تناهى إلى سمعه طرقات خفيفة على الباب، ظن أنها المنظفة تطرق الباب من أجل ترتيب الفراش وتنظيف الحمام. نظر إلى الساعة دائرية الشكل على الجدار فعرف أن الوقت قد تجاوز الثامنة بعشرين دقيقة. ضغط على زر الإضاءة قرب رأسه فأضيئت الغرفة بنور باهر.

فجأة، التفتَ نحو الحقيبة الجلدية فوجد أنها على الطاولة كما تركها ليلة البارحة. انتبه إلى أن الطرقات على الباب توقفتْ. ظن أن المنظفة طرقت الباب للتنبيه بأنها تريد تنظيف الغرفة وعليه الاستيقاظ.

ظلَّ لدقائق في الفراش يستعيد ما جرى من أحداث. إذن كل ما جرى هو حقيقي وواقعي. فهو الآن في سريره بغرفة في فندق " استراحة مفيستو".. وها هي الحقيبة الجلدية الممتلئة برزم العملات الأجنبية أمامه..! لا.. ربما هو واهم فليس هناك أية أموال في الحقيبة.. ارتعب من فكرة أن لا وجود للمال في الحقيبة، فكلّ شيء جائز وغامض في ما جرى من أحداث، لذا قفز خارج السرير وصار عند الطاولة بلحظة.. وبلهفة فتح الحقيبة، فشعر بالخدر يسري في جسده..، فالحقيبة مليئة برزم الدولارات..!. إذن هو ليس في حلم. لكن كيف جرى كل ذلك..؟.

"الآن ليس مهمتي أن أفكر وإنما أن أخرج بسرعة لأسدد ما عليّ من ديون، والتي لا تتجاوز رزمة واحدة من الدولارات..!. ويمكنني الذهاب إلى شقتي.. لا.لا.. يمكنني أن أعيش في هذا الفندق فلدي ما يكفي من المال.. ".. هكذا كان يحدث نفسه.

قرر أن يغادر الغرفة، لكن ودّ قبل ذلك أن يستحم..؛ صحيح أنه لا يملك أية ملابس غير التي يلبسها؛ لكنه برغم ذلك أراد أن يأخذ حماما ساخناً.

دخل غرفة الحمام. لكنه خرج بسرعة وأخذ الحقيبة الجلدية معه إلى داخل الحمام. وأغلق الباب خلفه. في تلك اللحظات فكر مع نفسه: ربما ستدخل المنظفة إلى الغرفة أثناء تواجده في الحمام، فعادة لدى المنظفين مفاتيح الأبواب كلها.

****

حين خرج آدم المسكين من غرفته حاملاً حقيبته وجد عربة الخدمات المليئة بالمناشف وبأوراق التواليت وأشياء التنظيف أمام إحدى الغرف. وقف أمام المصعد وضغط على زر النزول.

في تلك اللحظة خرجت المنظفة من الغرفة التي تقف عربتها أمامها.. كانت امرأة ثلاثينية ذات قوام مثير. ترتدي ثوباً رسمياً أسودَ وتلبس حذاء أبيض. نظر كل منهما إلى الآخر. ابتسمت له. تراءى له أنها تشبه جارته حواء الدلو.. إلّا أنه كان متوجساً، فقد أراد مغادرة الفندق بسرعة.. وحينما قرر أن يبتسم لها انفتح باب المصعد فدخل.. لم تلحظ المنظفة ما ارتسم على وجهه بمثابة ابتسامة.

نظر إلى نفسه في مرآة المصعد فرأى أن ابتسامته ليست بابتسامة وإنما هي تكشيرة متشنجة لا أكثر. أنّب نفسه على ارتباكه وعدم قدرته على التواصل مع الآخرين.. وربما سلوكه هذا سيثير الشكوك.. عليه أن يكون أكثر تلقائية وسلاسة في تواصله مع الآخرين!!. هكذا كان يفكر مع نفسه.

انفتح باب المصعد. وقبل أن يخرج واجهه أحد موظفي الفندق.. شاب فتي

بعمره.. لكن آدم المسكين ذهل للشبه الكبير بينه وبين الرجل الذي قابله مساء الأمس عند باب الفندق، والذي يظنه قد قُتل..! البدلة السوداء نفسها، والحذاء الأبيض، وملامح الوجه نفسها، برغم فارق العمر الواضح. نظر كل منهما للآخر. ابتسم موظف الفندق له وتراجع عن دخول المصعد، متوقفا إلى جانب المصعد وهو يقول بابتسام وتوقير واضح:

- أتمنى أن تكون قد قضيت عندنا ليلة هانئة سيد آدم!..

ذهل آدم المسكين من قول موظف الفندق، فمن أين يعرف هذا الموظف اسمه، فأجاب وهو يخرج من المصعد قال له:

- شكراً جزيلا.. كل شيء تمام.. شكرا.

قال ذلك وتوجه إلى الاستعلامات. كان اللوبي أو صالون الاستقبال خاليا.. لا أحد سوى موظف الاستعلامات الذي كان منشغلاً بترتيب أوراق ما عند جهاز الطابعة.

وقف آدم المسكين عند المكتب الصندلي العريق. انتبه الموظف لوجود آدم المسكين فالتفت. ذهل آدم المسكين حينما رآه، فهو أيضاً نسخة طبقة الأصل مستنسخة من الرجل الذي قابله عند باب الفندق ومن موظف الاستعلامات الذي قابله مساء أمس، لكنه أكثر نحولاً منه وأقل عمراً بسنين قليلة، إلّا أن البدلة السوداء والحذاء الأبيض، وتسريحة الشعر هي نفسها.

توجه الموظف نحوه وعلى وجهه ابتسامة لطيفة وهو يقول:

- بماذا أستطيع أن أخدمك سيد آدم..؟

ارتبك آدم. كان مصدوماً ومندهشاً. انتبه الموظف له وكأنه أدرك سر دهشته. ولكي يخرجه من صدمته قال له مبتسما وبنبرة دافئة:

- أرجو أن تكون قد قضيت عندنا ليلة هانئة سيد آدم!..

استغرب آدم المسكين أكثر، فقد كرر هذا الموظف الجملة التي قالها له الموظف الذي التقاه عن المصعد نفسها بالضبط. أحس بارتجافة في عضلات فخذه وتخشبٍ بسيط في ساقه بشكل عام. فقال وكأنه يريد أن يتخلص من

الموقف الذي هو فيه، فقال:

- شكراً جزيلا.. كل شيء تمام.. شكراً.

انتبه إلى أنه أيضاً قد كرر الجملة التي قالها لذلك الموظف عند المصعد بالضبط، لكنه أضاف قائلاً:

- أريد أن أدفع الحساب..

ابتسم موظف الاستعلامات وقال له:

- لا داعي لدفع الحساب.. كل شيء واصل مقدما.. تمت تسوية كل شيء!.... وأعتقد أن زميلي قد أوضح لك ذلك مساء أمس..!؟

ذهل آدم المسكين. أحس بتشنج في جسده، لم يستطع أن يقول شيئاً، لكنه برغم ذلك حاول أن يقول شيئاً، وبالكاد تمتم قائلاً بصوت بالكاد يُسمع وكأنه يتحدث مع نفسه:

- كيف!..

انتبه موظف الاستعلامات إلى الحيرة والدهشة اللتين هيمنتا على آدم المسكين فقال له موضحاً:

- لقد طلب السيد آدم آدم مديرنا الأعلى وصاحب فندق " استراحة مفيستو" أن تكون ضيفه، وستكون الغرفة محجوزة لك لا ينزل فيها غيرك.. وتستطيع أني تأتي في أي وقت تشاء.. سيسعدنا أن نكون في خدمتك..

- مدير الفندق السيد آدم آدم..!!؟..

نظر الموظف إليه بتساؤل وقال بنبرة غامضة:

- ألم تكن في المقبرة مساء أمس..؟ هو قال لنا بأنه دعاك للذهاب إلى المقبرة..، لكنه قال بأن نحضّر لك الغرفة لأنك ستعود إلى المبيت في الفندق بعد عودتك من المقبرة!..

سرت رجفة أشبه بالتيار الكهربائي في جسد آدم المسكين، وأحس بها تسري وتصل إلى جمجمته وتتلاشى في قشرة الدماغ مثل تيار كهربائي.

لم يشأ أن يسمع أكثر ولا أن يتناقش مع موظف الاستعلامات.. فقد خاف بأن الموظف يعرف بأمر الحقيبة المليئة بالمال وأنه سيحدثه عنها.. وهو لا يريد أن يتطرق الموظف إليها.. بل هو على استعداد أن يأخذوها منه على أن يعطوه المبلغ الذي يسدد به ديونه لهابيل السفاح فقط.

فجأة، استدار وأخذ يمشي سريعا بما يشبه الهرولة مغادراً الفندق، بينما كان الموظف يبتسم وهو خلف المكتب.

****

حين صار آدم المسكين في الشارع أحس وكأنه خرج من عالم آخر لا علاقة له بالحياة النابضة في الشارع. الشمس الدافئة كانت تضيء السماء والشارع وشعاعها يمنح النفس بهجة وشغفاً بالحياة.

وقف آدم المسكين للحظات في مكانه على الرصيف أمام الفندق. كان يتأمل ما حوله مبتهجاً بضوء الشمس. راودته في تلك اللحظات فكرة أن يذهب إلى شقته أولاً، يضع الحقيبة هناك، ويأخذ رزمة واحدة من الدولارت يذهب بها إلى هابيل السفاح في ساحة " الفردوس"، لكنه سرعان ما صد هذه الفكرة، إذ خطرت في ذهنه بأنه ربما أرسل هابيل السفاح من ينتظره هناك.

قرر الذهاب مباشرة إلى مكتب هابيل السفاح، وتسديد دينه هناك ثم العودة إلى الشقة بهدوء. وهذا ما قام به فعلاً.. لكنه قبل أن يوقف سيارة أجرة تأخذه إلى وسط المدينة، فتح الحقيبة متلفتاً بحذر، ومد يدّه فأخرج رزمة من الدولارات التي يعرف أنها تكون إثني عشر ألف دولار، وهي أكثر من الدين الذي عليه تسديده ببعض المئات من الدولارات. وضع المبلغ في جيبه وأغلق الحقيبة، ثم أشار بيده فوقفت سيارة أجرة دخل في قسمها الخلفي، وطلب من السائق الذهاب إلى ساحة " الفردوس".

****

حين دخل آدم المسكين مكتب هابيل السفاح واجهه مكتب أحد الموظفين، الذي بدا له وكأنه المسؤول في المكتب. نظر الآخر إليه مستغرباً وقال له بتهديد مبطن وسخرية:

- أنت جئت إلى الموت برجليك يا آدم..؟ من حسن حظك أن الحاج هابيل ليس موجوداً، وإلّا لسحقك الآن سحقاً، وبعث بك إلى العالم الآخر.. كان يبحث عنك الليل كله.. وها أنت جئت إليه بنفسك!..

استمع آدم المسكين إلى ما قاله الموظف المسؤول، فشعر بقشعريرة تسري في جسده، لكنه تماسك وقال بهدوء ونبرة فيها رجفة خفيفة:

- أنا جئت إليه لأسدد ما عليّ من دين..

نظر الموظف المسؤول إليه مستغربا وقال بدهشة:

- ماذا..؟ جئت لتسدد دينك..؟ هل وفّرت المبلغ كله..؟

- نعم.. وأريد أن أعرف كم يكون ديني بالدولارات.. فقد وجدت من منحني قرضا مؤقتا، لكنه أعطاني إياه بالدولار..

نظر الموظف المسؤول إليه مندهشاً وكأنه لا يصدق ما سمعه، لكنْ كان عليه أن يضرب ويقسم المبلغ ويحوله إلى دولارات حسب طلب آدم المسكين.. لذا ضرب على لوحة المفاتيح الكمبيوترية التي أمامه، وفتش كما يبدو عن اسمه وصفحتة والمبلغ بالعملة المحلية، وضربها وقسّمها على الدولار.. ثم رفع رأسه وقال بنبرة من لم يستوعب الأمر بعد:

- المبلغ الذي عليك سداده.. القرض الأصلي مع فوائده لمدة سنة تكون أحد عشر ألفاً وثلثمائة دولاراً..

وبدون كلام أو أية مناقشة حول دقة المبلغ، وضع آدم المسكين الحقيبة على الأرض إلى جانب قدمه، وأخرج رزمة الدولار من جيب بنطاله.. ثم سحب منها سبعمائه دولار وضعها في جيبة، وسلّم الموظف المسؤول الرزمة قائلا له بنبرة واثقة لحد ما:

- أرجو من حضرتك أن تعدّ المبلغ أمامي.. وبعد التأكد منه أكتب لي وصلاً بالاستلام.

لم يشك الموظف المسؤول برواية القرض الذي حصل عليه آدم المسكين أبداً، لكنه ظل مندهشاً بأنه حصل على القرض وبالدولار..! وبدون تردد وبحماس أخذ الموظف الرزمة.. سحب عنها المشد البلاستيكي.. وضع المبلغ في آلة جانبية لعد وفحص الدولارات إن كانت مزيفة.. وخلال لحظات أشار عداد الآلة إلى مئة وثلاث عشرة ورقة من فئة المئة دولار. وبلا تردد كتب له وصلاً باستلام المبلغ.

طوى آدم المسكين ورقة الاستلام ووضعها في جيبة، وانحنى حاملاً حقيبته الجلدية، وخرج تتبعه نظرات الموظف المسؤول الذي لم يفق من دهشته.. والذي سرعان ما أخذ سماعة الهاتف ليخبر شخصاً ما بما جرى.!!

****

حين صار آدم المسكين في الشارع أحس بفرح وبهجة تغمرانه. أحس بأنه حر.. وبأنه يريد الآن أن يستمتع بالحياة.. أن يشتري ما يشاء من الكتب وأسطوانات الموسيقى.. آه ما أثقل الدين..!.. ثم وعلى غير توقع تذكّر بأن جهاز الموسيقى الذي لديه ليس سوى مسجل قديم لا يعمل إلّا مع أشرطة الكاسيت المسجلة، وأن عليه شراء جهاز حديث للأسطوانات المدمجة الديجتال..

وتداعت الأمنيات.. إذ راودته فكرة أن يغيّر الشقة ويستأجر شقة أكبر، لكنه لم يجد نفسه متشجعا على اتّخاذ هذه الخطوة، فهو لا يريد الابتعاد عن جارته المثيرة حواء الدلو، التي أحس في تلك اللحظات برغبة عارمة في رؤيتها. وبشكل عفوي مد يده مشيراً لسيارة تاكسي فوقفت قربه. دخلها مع حقيبته وطلب من السائق أن يتجه به إلى الحي الذي تقع فيه شقته.. كان وهو في التاكسي يضع الحقيبة الجلدية في حضنه، وكأنه يخاف أن يفقدها.

****

حين دخل البناية وبدأ يصعد السلّم كان يمنّي نفسه بأن يرى جارته حواء الدلو. فكّر بأن عليه أن يثير ضجة عند وصوله، سواء في المساحة الصغير بين

الشـقتين أو عندما يفتح الباب أو عندما يدخل حيث يصفقها بقوة، المهم عليه أن ينبهها لوجوده، إلّا أن توقعاته خابت كلها، فما أن صار في الطابق الذي فيه شقته حتى واجه حارس المبنى وبوابها الغريب الأطوار...

حين تقابلا بادره آدم المسكين بالتحية:

- السلام عليكم يا عم.... صباح الخير..
- عليكم السلام يا ابني.. صباح النور

تقاطعا.. إلاّ أن الحارس البواب استدار وكأنه استذكر شيئاً وقال:

- يا ابني آدم انتبه.. فمسـاء أمس بعد خروجك جاء عدة أشـخاص.. أشـكالهم مريبـة.. وكادوا يحطمـون البـاب برفسـاتهم وتعالـى صراخهم وشـتائمهم.. وكان واضحـاً أنهـم ينـوون بـك شـراً.. انتبـه.. ويفضل أن لا تفتـح لأحد.. فربما يعودون.. صار الإنسـان لا يأتمن على نفسـه من نفسـه، فكيف يأتمن لأشخاص هم الشر يمشي على قدمين..

أحـس آدم المسـكين بالرهبـة والخوف من سـماع ما رواه جـاره، وتأكد بأن هابيل السـفاح قد نفذَّ تهديده.. وأنه فعلا جاء إلى شـقته.. وحسـنا فعل بهروبه من الشـقة.. لكن الآن انتهى كل شـيء.. فقد سـدد ما عليه من ديون.. لذا قال لجاره وهو يطمئنه:

- شكراً لك يا عم.. هؤلاء مبعوثون من قبل شخص استدنت منه مالا.. والحمد لله قبل قليل سددت له ما بذمتي.. ولن يعودوا مرة أخرى.
- الحمد لله..

في تلك اللحظات فُتحت باب الشـقة المقابلة، وأطلّت حواء الدلو برأسـها. ويبـدو وكأنهـا سـمعت صوت آدم المسـكين يتحـاور مع حارس البنايـة فانتهزت الفرصـة لتـراه أو ربمـا لتتأكد من وجوده، أو لتريه نفسـها وكأنهـا تفعل ذلك دون قصد، إذ كانت في قميص نوم أحمر خفيف، تتضح معالم جسدها تحته، بل حتى سروالها الداخلي الأسود الشفيف يمكن رؤيته تحت هذا الثوب.

لـم ينتبـه حـارس المبنى لهـا، فقد كان قد بـدأ بالنزول. تبادل آدم المسـكين

وحواء الدلو النظرات المليئة بالشغف والرغبة الصريحة، لكن ما استغرب له آدم المسكين هو أنها تراجعت وكأنها لا تريد أن ينتبه حارس المبنى إلى أنها أطلّت من باب الشقة، فأطبقت الباب بطريقة هادئة جداً، حتى دون أن تلقي عليه السلام..

لم يكن أمام آدم المسكين سوى أن يفتح باب شقته ويطبقه بهدوء وهو مثار برغبة جنسية أفاقت لتوها.

****

ما أن دخل آدم المسكين شقته حتى نسي كل شيء، وانهمك بالحقيبة الغامضة التي حملها معه. ذهب إلى غرفة النوم ووضع الحقيبة على فراشه. عاد إلى باب الشقة الخارجي فأغلقه بالمفتاح من الداخل، ثم عاد إلى غرفة النوم فمد يده إلى زر التيار الكهربائي فاضاء الغرفة بمصباح ذي إنارة قوية يتوسط الغرفة.

جلس على سريره حيث الحقيبة. وأخذ يُخرج رزم المال من الحقيبة. تلّفت حوله في الغرفة باحثاً عن مكان يمكنه حفظ المال فيه.

نظر إلى زاوية الغرفة حيث تتكدس الكتب لتغطي جانبا من جدار الغرفة. وهناك رأى صناديق كارتون مليئة بالكتب إلى جانب صفوف الكتب التي تكدست على جرائد وصحف قديمة. حمل الحقيبة إلى قرب صناديق الكتب الكارتونية.. وأخذ يفرغ أحدها من الكتب، وحينما صار فارغاً كليا أخذ يصف فيه رزم الدولارات، حتى سدّت نصف الصندوق. أخذ يغطي الرزم بالكتب حتى صارالصندوق يبدو وكأنه مليء بالكتب فقط...ولم يُبق لنفسه سوى رزمة واحدة من الدولارات وضعها تحت وسادته.

جلس على فراشه ليواصل مهمته الأخرى، إذ أخذ يخرج البطاقات الشخصية والاستمارات التي تتطابق مع البطاقات الشخصية وأصحابها حسب المهن والاختلاف في الألقاب.

الآن.. وفي ضوء المصباح استطاع أن يقرأ الأسماء الغريبة الغامضة في هذه البطاقات الشخصية ويتعرف على تأريخ ومهن وعناوين أصحابها: **آدم الطيار**

المحامي – خمسون عاما – متزوج – مكتبه في عمارة "الميزان".. بالقرب من ساحة " الفردوس"..، **آدم ذو النون** موظف في البنك – متزوج – عنوان البنك قرب مطعم شهير هو " العالم الجديد..، **آدم عين الحياة** – متزوج – موظف وحقوقي- لا عنوان لديه، **آدم المدفون** – متقاعد – عنوانه يشير إلى منطقة " الحياة الجديدة" الراقية نوعا ما.. تتفرع من ساحة "الفردوس، **آدم المسافر** – خريج جامعي– بلا مهنة ـ يعيش في بناية "الأجنحة المتكسرة"، وأخيرا كانت بطاقة واستمارة شخص يسمى **آدم الآدمي** – لا معلومات عنه بتاتاً.

ظل آدم المسكين حائراً بين هذه الشخصيات.. فالصورة في جميع البطاقات الشخصية هي لشخص واحد، وهي نفسها صورة مدير فندق " استراحة مفيستو"..!؟.. لكن كيف يمكن قبول هذا الأمر..؟ هو رأى جثته.. ولم يشك في ذلك، لكن موظف الاستعلامات اليوم صدمه ودمر يقينه.. ودفعه إلى موضع اللايقين.. فإذا كانت الجثة لا تعود لمدير الفندق فلمن من بين هؤلاء تعود..؟؟ ولمن من بين هؤلاء تعود حقيبة النقود..؟ أتعود لآدم ذوالنون باعتباره يعمل موظفاً في البنك..؟ أم تعود لآدم الطيار المحامي..؟ أم تعود لآدم الآدمي، الغامض الشخصية والمعلومات..؟.. هو يفكر بهؤلاء لأنهم بالتأكيد من ذوي المال والدخل الجيد.. أما بقية الأوادم فيستبعد أن تكون لديهم هذه الكمية من الأموال..!!؟؟.

ظل آدم المسكين يقلّب البطاقات والاستمارات بين يديه ويتأملها متفكرا بحيوات أصحابها وعوائلهم.. وخطرت في ذهنه فكرة أن يستكشف هذه العوائل عن بعد ما دامت العناوين لديه.. وفجأة، استذكر أمراً خطيرا كان قد نسيه تماماً: الجثة المقطوعة الرأس..! فهو لم يفكر بها.. هل عليه تبليغ الشرطة والأجهزة الأمنية الرسمية بالأمر..! هل سيذهب بنفسه، أو يتصل بطريقة مبهمة على رقم الشرطة الذي يتوافر في كابينة تليفون عامة..!. نعم.. عليه أن يتصل بالشرطة.. يدلهم على المكان التي فيه الجثة بالضبط كي تأخذها الشرطة.. وعليه أن يتابع تفاصيل الجريمة في صفحة الحوادث والجريمة.!..

أحس بمشاعر متناقضة ألقت به في الحيرة : هل إذا ما اتصل بالشرطة؛ سيصمت بالكامل عن الحقيبة الجلدية المليئة بالنقود أو يخبرهم بها ويأخذ حصته كهدية، وهي نسبة معروفة تمنح لمن يعيد مبلغا ضائعاً..؟.

في تلك اللحظة فزّ آدم المسكين على رنة قصيرة جاءت من جرس الباب. وبسرعة وارتباك وضع البطاقات والاستمارات داخل الحقيبة، ثم ألقى بها في زاوية قريبة قرب السرير. نظر إلى صندوق الكتب إن كان يثير الريبة.. فاطمئن إلى أنه لا يثير الانتباه قط..!

توجه نحو الباب، لكنه قبل أن يغادر الغرفة نظر إلى نفسه في المرآة المربعة المعلقة على الحائط.. فكّر وهو في طريقه خلال تلك المسافة القصيرة: أيمكن أن يكون هابيل السفاح لم يعرف بعد بتسديد الدين..؟ لا يهم فلديه وصل التسديد.

اقترب من العين السحرية في الباب بحذر.. وضع عينه عليها، ففوجئ حين رأى جارته حواء الدلو تحمل صينية فيها فطوراً، لكنه رأى أنها في روب بيتي، وتتلفت وكأنها خائفة من أن يراها أحد من الجيران النازلين أو الصاعدين. ففتح لها الباب بخفة، فمرقت بسرعة إلى الشقة، فأغلق الباب مباشرة بعد دخولها بالمفتاح.

****

ما أن دخلت حواء الدلو إلى الشقة حتى توجهت مباشرة إلى الطاولة الصغيرة أمام الصوفا في غرفة. كان آدم المسكين قد أغلق الباب بالمفتاح، ثم توجه نحوها ليأخذ الصينية منها ويضعها بنفسه على الطاولة.

ظلا واقفين ينظران لبعضهما البعض. كانت نظراتهما تشي برغباتهما المكتومة، لكنهما في الوقت نفسه كانا مرتبكين.. كل منهما ينتظر أن يبدأ الآخر بالخطوة الأولى ويتجرأ ليأخذ المبادرة..!..

كانت تنتظر أن يبادر هو بذلك باعتباره الرجل، بينما كان هو ينتظر منها أن تبدأ المبادرة باعتبارها المرأة المجربة أكثر منه ويمكنها أن تقوده في الجنس.. وهكذا مرت لحظات دون أي يتم أي تلامس بينهما، بالرغم من أن المسافة

القصيرة بين جسديهما كانت مشحونة ومتوترة وكلاهما كان مستعداً للإشتعال والتوهج من أية لمسة عفوية بسيطة.

وبلحظة خاطفة، صدرت عن كل منهما حركة عفوية لا إرادية نحو الآخر.. فتصور كل منهما بأن الآخر قد بادر.. فألقى كل منهما بنفسه في آتون الرغبة المتقدة في موقد الدم والأعصاب النافرة.

في لحظة واحدة احتضن كل منهما الآخر.. وبدون تردد التقم شفتيها الشهيتين بشراهة، وأخذ يمص شفتيها، و يقبّل وجهها من كل جوانبه.. ويقبل عنقها ويصعد بأنفاسه الساخنة نحو أذنيها.. لم تقاومه وإنما كانت مرتبكة، وفي الوقت نفسه مستجيبة له وهو ينزع عنها روبها.

وعلى غير توقع منها رفع هو الطاولة وما عليها، وبحث عن مكان يضعها فيه جانبا.. بينما كانت هي مرتبكة ومحتارة ما بين أن تنزع قميص نومها الشفيف أو تبقى به، عاد هو إليها ووقف أمامها والرغبة تتقد من كل جسده.

لم يكن يعرف من أين انبثقت في كيانه هذه الجرأة.. فبحركة خاطفة أزاح جانب من القميص عن أحد كتفيها فبرز نهدها.. أمسك به وأحنى رأسه مقبّلاً حلمة نهدها، محتضناً جسدها بقوة بين ذراعيه.

وبدون وعي منها احتضنته هي أيضا بقوة وشبق، وبدأت أنفاسها تتلاحق.. وصدرت عنها لا إراديا تأوّهات مثيرة زادت من شبقه ومن عنفه وجرأته، فمد يده ليمسك ما بين فخذيها، فانهارت شبقا.. وحاولت أن لا تمنح نفسها بسهولة.. فانسحبت محاولة أن تفك نفسها من بين ذراعيه خائفة من الانجذاب والنزول إلى وادي اللذة الغامض.. وتمتمت شبه متوسلة:

- أرجوك يا آدم.. كن عاقلاً.... لا تستغل حبي لك.. وتعلقي بك.. أرجوك..

قالت ذلك وهي تجلس على الصوفا. كان آدم المسكين هائجا ومتهوراً في رغبته، فمدها على الصوفا وبلحظة خاطفة مدّ يده رافعا ثوبها إلى الأعلى فبدا سروالها الأسود الشفيف الذي يكشف عما تحته.. وبسرعة مجنونة فك حزام بنطاله وجره إلى الأسفل.. ونزع سرواله من الأمام.. سحبها قليلا ودفعها

لتستلقي.. وألقى بنفسه عليها.... أراد أن ينزع عنها سروالها لكنها مسكت به بقوة.. وهي تتأوه قائلة:

- لا.. لا يا آدم.. أرجوك..

حاول هو أيضا أن يسحب السروال بعنف فلم تمكنه من ذلك.. وبما أنه سحب يده عن سروالها فقد أرخت هي يدها أيضا.. لكن فجأة، أحست به يلجها بقوة.. وغمرها خدر منعش، وتدفقت فيها تيارات كهربائية لذيذة.. تأوهت بشهقة شبقية واضحة..

وبعنف أخذ يولجه فيها.. أخذ ينظر إلى نفسه وهو يندفع فيها بعنف، إلى أن شعر بهزة أشبه بصاعقة كهربائية لذيذة تأخذه إلى ذرى خاطفة.. وتدفق فيها ماؤه.. وفجأة، وعلى غير توقع منه، صرخت فيه عالياً، ودفعته عنها.. وكأنها انتبهت لشيء فاحش جلل:

- لا.. لا.. ماذا فعلت..؟ لعنة الله عليك..

ارتبك آدم المسكين.. بل صعق من صرختها ورد فعلها.. انسحب قافزا عن الصوفا.. مرتدياً بنطاله.. شاداً حزامه.. وحين لاحظت هي ارتباكه المفاجئ، شعرت بأنها قد تسرعت بقول ذلك.. فقد كان رد فعلها عفوياً.. لكنها مبتهجة ومستمتعة بكل تفاصيل ما حدث.. ارتبكت هي قليلاً أيضا حينما شعرت بانكماشه المعروف الذي تعرفه كطبع فيه، وأحست أنها قد تسرعّت، فربما سيتجنبها بالكامل..!.

شعر آدم المسكين وكأنه ألقي في حوض ماء مثلج.. هزته رعشة باردة.. ارتبك.. ولم يكن أمامه سوى أن يقول لها بندم صادق:

- أنا آسف.. لم أستطع السيطرة على نفسي.. أنا آسف.. أنت سيدة محترمة.. أنا آسف عن تصرفي.

وفي حركة خاطفة توجه نحو الباب. سحب المفتاح عن القفل.. وخرج مغادرا الشقة، بينما أحست هي وكأنها ألقيت إلى هاوية بلا قرار.. لعنت نفسها على القناع الأخلاقي الذي ارتدته في تلك اللحظة العارية والحقيقية التي كانت فيها، والتي غيرت من مسارات كانت تحلم بها في علاقتها به.. صُدمت لرد

فعله.. لمّلمت نفسها بخجل.. وأخذت الروب عن الأرض، وهي مخنوقة بعبراتها المكتومة وندمها وكبريائها الجريحة أرادت أن تأخذ صينية الفطور لكنها تراجعت فربما ستكون هذه حجة للتواصل معه..

وقفت قرب الباب.. وبلحظة لاشعورية رجعت، حملت الصينية وغادرت الشقة.. كانت كئيبة.. فقد تهورت في كلامها وتأنيبها له بينما كان عليها أن تحتضن شغفه بها.. هل سيرجع لها..؟.. سألت نفسها.. لكنها أحست أنه شخصية انطوائية وليس من السهل أن يرجع لها.

الفصل الرابع

الاختطاف..!

غادر آدم المسكين شقته منكسر النفس،مرتبكا، وخجلاً من تهوره في مضاجعة جارته بما يشبه الاغتصاب، لكنه لم يغادر المبنى، وإنما جلس على درجات السلّم المؤدية إلى الأسفل معطياً ظهره للشقتين.

خلال لحظات تداعت في ذهنه مشاهد علاقته بحواء الدلو منذ يوم انتقالهم إلى هذه البناية.. انهمرت الذكريات مثل نثيث من المطر الناعم.. تذكر أول لقاء له معها حين خرج من المبنى وكانت هي وحدها مع سيارة نقل الأثاث عند الباب.. ثم صار يلتقيها مصادفة حينما يدخل البيت راجعا من الجامعة فيجدها مع أمه تعدان القهوة وتقرآن الفنجان. وأحيانا، في أيام العطل يستيقظ على صوتها وهي تروي لأمه عن ابنتها التي تعيش في طرف ناء من المدينة مع زوجها. وكان حين يخرج من غرفته التي هي مكتبته أيضا يجدها تبتسم له وتنظر إليه نظرات فيها الكثير من الإعجاب والخصوصية، مما كان يبعث في نفسه شعوراً بالتميز الرجولي. ويتذكر الآن مع نفسه جيداً بأن الفرح كان يغمره حين يحس بحضورها في شقتهم، بل كان يحس بالدفء حينما يفكر بها.

تذكر أنها سألته ذات مرة عن برجه. لم يكن يعرف بالضبط متى ولد، فلم تتوان لحظتها أن سألت أمه بالتفصيل عن عام ولادته، وحينما أخبرتها الأم، قالت لهما بأنها ستبحث في ذلك وتخبره بالأمر. حينها كان هو يسخر من عالم الأبراج، بينما هو عرف من أمه بأن جارتهما تبرمج حياتها وعلاقاتها مع الآخرين على أساس ذلك.. يتذكر الآن كيف أنه ذات مساء دخل البيت، فقالت له أمه بأن جارتهم حواء الدلو عرفت ما يقوله البرج عن شخصيته.. وستأتي بعد قليل

لتخبرك به.. وفعلا، لم يمر سوى دقائق من وصوله البيت حتى طُرق الباب، فقام هـو ليفتحـه.. ولحظتهـا دخلـت هي بمرح وأخبرت أمه بأنهـا انتبهت لوصوله إلى البيت لذلك جاءت، ثم قالت له وهي تنظر في أعماق عينيه:

- برجك ذكوري، وهو برج نهاري وناري..

قاطعها بنبرة فيها سخرية مبطنة قائلا:

- أنا لست نهاريا.. أقضي معظم وقتي ساهراً في الليل..

لم تأبه لكلامه، وإنما واصلت:

- أنـت تحـب عمـل المعروف مع كل الناس، وتتميز بالمرح الشـديد وسـرعة البديهة..

قاطعها ثانية قائلاً:

- لا أعتقـد أننـي إنسـان مرح.. ربما سـريع البديهة.. لكن فـي كل الأحوال لا يمكن تسميتي بالمرح!..

نظرت إليه وانتبهت إلى سعيه للمشاكسة، فابتسمت قائلة:

- أنـت قلـب فـي عقـل، وعقل في قلب.. قـد تكون أنانيا، لكنك لسـت بخيلاً أبـداً.. بـل تكره التفكير فـي الأمور المادية.. تتميز بـروح المغامرة، طبيعتك إبداعية وخلاقة.. تميل للروحانيات.. مخلص في علاقاتك.. جريء.. بحيث جرأتـك تدعو الى الحيرة والاسـتغراب.. لكنـك غريب الأطوار، فمن ناحية أنت جريء لحد التهور، بينما ترتعش وتنكمش أمام الأوجاع الجسـدية مثل طفل صغير في الخامسـة. تجهل الكذب والتحايل.. وتكرههما بشـدة.. بل إنك إذا اكتشف أن المقابل يكذب ويتحايل عليك فأنك تسقطه من حسابك دون أن تجعله ينتبه لذلك.. تستمر بشكل سطحي معه ولا تشعره بأنك تعرف أنـه يكـذب ويحتـال عليك.. صريح في كلامك وتصرفاتك للحد الذي يترك انطباعا لدى من لا يعرفك أو لم يتعود عليك بأنك غير مهذب.. وأنك تفتقر إلى الرقة واللباقة.. كما تتميز بقلة الصبر.. طبيعتك سـاخنة.. برجك ناري.. وكوكبك المريخ.

يذكر أنه أحس بأن أغلب هذه الأوصاف تنطبق عليه حقاً وبشكل دقيق.. نظر إليها.. وذكر لحظتها أنه انتبه لجمالها.. ورقة ملامحها.. وأنوثتها الطاغية.. وأحس أنها انتبهت لذلك.. فابتسمت له برضى وتقبل.. لكنه ارتبك لحظتها لابتسامتها وشعوره بتقبلها ذلك.. بيد أنها واصلت:

- انت حنون.. عاطفي.. وجريء.. تقبل التحدي بسهولة وسذاجة مهما كانت النتائج.. معك لن تشعر المرأة بالملل، على المرأة أن تحترم حاجتك الكبرى إلى الاستقلالية، وإلّا ستتحول إلى شخص عدواني وانتقاداتك ستكون لاذعة، بل وربما توجه في لحظة غضبك كلاما جارحا ومؤذيا قد يدمر علاقتك بمن تحب.

يذكر أنه ابتسم لها، وقال لها:

- إن مثل هذا الكلام يمكن أن يُقال لأي إنسان.. مهما اختلفت الأبراج.. كما أنه لا يستطيع أن يؤكد إلّا على بعض ما قالت، أما الأشياء الأخرى فيمكن أن يقولها الآخرون عنه.. فهو لا يعرف إن كان مملاً أم لا.. أو أنه جريء أم لا!..

كانت أمه تستمع لها بحيرة، ثم سألتها:

- من أين عرفتِ كل هذه الأشياء عن ابني.. فأنت توصفينه وكأنك تعرفينه أكثر مني.!..

ابتسمت الجارة حواء الدلو حينها، وقالت بأنها اشترت كتابا خاصاً بالأبراج. وأنها مولعة بالروحانيات.. وتجيد حساب الأرقام ودلالتها. ثم فجأة سألته عن رقمه، فاحتار كيف يجيبها، لكنها أكدت له بأن رقمه هو 3.. بينما رقمها 8 ولم يفهم معنى ذلك.

****

انتبه آدم المسكين إلى أن ما جرى قبل قليل معها ربما يؤكد ما قالته عن صفات برجه آنذاك.. لاسيما الجرأة لحد التهور.. فقد تصرف معها برعونة

ووقاحة.. لم يحترم ما قدمته له من عناية واهتمام منذ رحيل والديه عن هذا العالم.. لكنه سرعان ما ردّ على نفسه : " ماذا أفعل أمام جمالها وأمام جسدها المثير..؟.. ثم أنها قالت إنها تحبني.. ألم تقل لا تستغل حبي لك!!؟.. كما أنها أحبت اغتصابي لها.. وطلبت مني وهي تتأوه أن أدخله بقوة.. ولم أفهم لماذا صرخت في ما بعد ولعنتني..؟!!.. هل تذكرت أنها تفعل منكراً بعد أن أحست به داخلها..!؟.. على أية حال.. لقد أسأتُ إليها.. وتهورتُ.. ونسيت نفسي.. وعليّ إصلاح ذلك بالابتعاد عنها نهائيا.. ومغادرة هذه الشقة..!!".. وصمت للحظات متفكراً.. ثم سأل نفسه مرة أخرى: لماذا غادرتُ أنا الشقة..؟.. أما كان بإمكاني أن أعتذر لها وأوضح لها الأمر وأنا هناك..؟.. أليس معيبا أنني تركت الشقة وهي في تلك الحالة من الصدمة..؟.. لا.لا.علي أن أعود للشقة واوضح لها موقفي.. واعتذر لها بأن ذلك لن يتكرر..!.. وفعلاً، نهض آدم المسكين متجها إلى شقته.

في تلك اللحظة بالذات انفتح باب الشقة وخرجت حاملة صينية الفطور.. حين رأته شعرت بدفق من فرح يغمرها.. إذن، هو لم يذهب وإنما كان هنا.. نظرت إليه وكأنها تستقرئ ما يدور في ذهنه.. وحينما انتبهت لتأثره وارتباكه، ابتسمت له.. وأحسّت برغبة عميقة في أن تضمه إلى صدرها وأن لا تفقده..

أحست أنه طفل كبير مشاكس.. ونزق كالأطفال بالضبط.. وفجأة انتبهت لنفسها.. إنها تحبه بطريقة خاصة جداً.. فهي في الخمسين من العمر.. ومتزوجة.. صحيح أن علاقتها لم تعد علاقة زوجية حقيقية.. لكنها وفق الأعراف الاجتماعية متزوجة.. لكنها تشعر أن آدم المسكين دخل حياتها بقوة.. وقررت مع نفسها أن تعتني به، وستحميه من نفسه، ومن طيبة قلبه التي تصل إلى حد السذاجة. لم تقل له شيئا.. وانما رجعت للشقة وهي تحمل صينية الفطور. ارتبك هو.. لكنه دخل خلفها مثل طفل معاقب.

كلاهما كان مرتبكا من وجودهما معا وحدهما مجدداً بعد الذي حصل بينهما.. لكن كل منهما كان ينظر إلى الآخر نظرات فيها الكثير من القول المكتوم.. اعتذار مبطن.. ورجاء رقيق.. ومودة.. وحنان عميق وهادئ.. ولكي لا تعكر صفو

هـذه اللحظـات وضعـت حواء الدلو الصينية على الطاولـة الصغيرة، وحملتها إلى أمام الصوفا. نظرت إليه وعلى وجهها ابتسامة رقيقة وقالت:

- عليّ أن أمشي الآن.. فربما يعود زوجي فجأة.. سأراك لاحقا.

وغادرت الشقة بسرعة خاطفة وهي تشعر أنها مراهقة في الخمسين.. وانتبهت لسيل مائه وهو ينساب على فخذيها.. فقررت التوجه للحمام مباشرة.

****

جلس آدم المسكين على الصوفا، وقرّب صينية الفطور التي كان فيها صحن فيه بعض القشـطة، وصحن أصغر فيه بعض العسـل الأسـود، ورغيفان من الخبز الأسمر، ودورق صغير فيه شاي وقدح زجاجي.. أحس بحنان نحوها.. فمن ترى يهتم به هكذا في هذا العالم. إنه وحيد وأعزل.

لم ينته بعد من فطوره وشـربه للشـاي حتى رنّ الهاتف. فزّ خائفا وكأنه أفاق لواقعه الغامض.. " من تراه يكون..؟ بالتأكيد هو ليس هابيل السفاح، فقد سدّد له دينه.. " هكذا سأل نفسه.

مال بجسـده متمدداً قليلاً ليرفع سـماعة الهاتف الموجودة على طاولة صغيرة عن طرف الصوفا. أخذها وقربها من وجهه وقال بصوت مرتبك متحفز:

- ألو

فجأ الصوت المقابل سـائلاً إن كان هو آدم المسـكين. فأجابه آدم المسـكين بصوت مرتبك وبنبرة متوجسة ومرتعشة:

- نعم أنا آدم المسـكين.. من..؟ من حضرتك..؟ ماذا.. مسـؤول أعمال السـيد هابيل..؟ أهلا وسهلا..

ما أن أدرك آدم المسكين بأن المتصل هو مسؤول مكتب هابيل السفاح، وهو الرجل الذي اسـتلم منه المبلغ نفسـه، حتى شـعر بالارتباك، وبإنقباض في بطنه.. وبرجفة سرت في يده.. لاسيما أن الشخص الآخر بدأ كلامه مهدداً وبنبرة صوت غاضبة ومستفزة ومهينة..

راودتـه رغبـة بالذهـاب إلـى المرحـاض، إلّا أن الشـخص الآخر لـم يمنحه الفرصة لذلك، ويبدو أنه كان يتحدث غاضباً، لأن العرق البارد أخذ يتجمع على جبين آدم المسكين الذي كان يحاول أن يستوضح الموقف ويدافع عن نفسه، فقال بصوت مرتجف حاول جاهداً أن يكون متماسكاً يقول:

- مـاذا تقـول أسـتاذ..؟ كيف اختفت النقـود..؟ ماذا.. من أنـا.. وماذا فعلتُ؟ ساحر أمارس الخدع البصرية..؟ ماذا تقول.. ما لي والخدع البصرية..؟ لقد سـلمتك المبلغ بالكامل.. وأنت بنفسـك قد وضعته في الجهاز الألكتروني لتتأكد منه إن كانت الأوراق النقدية فئة المئة دولار مزيفة أم أصلية، كما أن الجهاز عدّها.. وكان المبلغ مضبوطاً.. أليس كذلك..؟؟ (لحظات صمت).. كما أن حضرتك لم تكتب لي وصل استلام المبلغ إلّا بعد أن تأكدت منه..؟ (لحظـات صمـت..).. إذن كيـف اختفى المبلغ مـن الخزنة، وكأنه لم يكن موجوداً..؟ وحتى لو حصل الذي حصل فما علاقتي أنا بالأمر..؟ ربما هناك من سرق المبلغ.. فلماذا تعتقد أنني أوهمتكم باستلام النقود.. وأنه لم تكن هناك نقود أصلاً..!! ما هذا الكلام.. لماذا تشتمني..؟ ماذا..؟ لماذا يا ناس.. كنـت مديونـاً لكم وسـددتُ ديني، ولدي وصل من قبلكم بالاسـتلام.. ربما هناك من سـرق المبلغ من الخزنة.. لماذا تتهمونني.. ثم أن لديكم كاميرات فـي المكتـب.. راجعوهـا.. سـتجدون أنني سـلمتكم المبلغ نقداً أحد عشـر ألفـاً وثلثمائـة دولار.. أسـتاذ أنك تشـتمني وتهينـني وتهددني ليس عن وجه حق..! ماذا.. أسـتاذ هابيل نفسـه سـيحقق في الأمر.. لماذا تهددني بالأسـتاذ هابيـل..؟.. لديّ وصل اسـتلام المبلغ من قبلكـم.. ماذا.. ماذا تقول؟ أعليّ تسـديد المبلغ مرة أخرى!!.. أسـتاذ الله يخليك، افحصوا كاميرات المكتب وستجدون أنني فعلا سلمتكم المبلغ ولم تكن هناك أية خدعة بصرية.. فإذا كانت هناك خدعة بصرية فالنقود لن تظهر في الكاميرا..!.. ماذا..؟

أغلـق الشـخص الآخـر الخـط بوجه آدم الذي كان وجهه شـاحبا. شـعر آدم المسكين بتشنج في كفه اليمنى.. فجأة..؛ ارتعب آدم المسكين من خاطرة مرقت

فـي ذهنـه، فقـد تذكـر أنه لـم يرَ النقود التـي كان يعدّها في المرآة التـي أمامه بينما رزم النقود كانت موجودة..!.. سأل نفسه مرعوباً: ماذا لو أنهم فحصوا الكاميرات واتّضح أن النقود غير موجودة ولا تُرى كما كانت في غرفة الفندق..؟.

أحس بنفسـه كمّن ألقي به من حافة جبل في اللاشـيء.. اللاشـيء المظلم.. في الخواء الذي بلا قرار.. وبسرعة ركض إلى غرفة المرحاض.

****

فـي غرفـة المرحـاض الضيقة اتخذ آدم المسـكين قرارات حاسـمة لمواجهة الموقـف الـذي هـو فيـه. فمـا أن خرج مـن هناك حتـى توجه إلى غرفة المغاسـل المجاورة للمرحاض وغسل وجهه ماسحا عنه ملوحة التعرق.. إذن عليه أن يغادر الشقة إلى الفندق، فهو مكان آمن بالنسبة له، وهناك سيكتشف السر، لكن عليه أن يعرف أكثر عن هؤلاء الأوادم الذين لهم علاقة بالحقيبة الجلدية..!

فجـأة..؛ انبثقـت فـي ذهنه خاطرة أخـرى، فركض إلى غرفتـه، وتوجه حيث صندوق الكتب الذي أخفى فيه رزم النقود وأفرغه من الكتب إلى أن واجهته رزم الدولارات مصفوفة.. شعر بالارتياح.. إذن لو كانت الرزم غير مرئية لما كانت هي موجودة هنا أمامه..؟. أرجع الكتب إلى الصندوق الكارتوني.

قام آدم المسكين من تلك الزاوية.. رفع الوسادة وأخرج رزمة الدولارت التي احتفـظ بهـا هنـاك. وضعها في جيبه.. ثم ألقى نظرة على الحقيبة الجلدية التي فيها البطاقات الشخصية والاستمارات الخاصة بالأوادم الغامضين.. حملها معه وغادر الغرفة.. لكن هاجساً خفيا طرأ في ذهنه، فعاد إلى الغرفة واتجه إلى صندوق الكتب الكارتوني الذي فيه روزم الدولارات.. أفرغ الصندوق من الكتب بسـرعة ثم أفرغ الصندوق من المال.. وبطريقة عشوائية ألقى بالكتب في الصندوق، وغادر الغرفة.

كان منفعـلاً قليـلاً.. ظـل في تلك المسـاحة الضيقة بين باب الشـقة وغرفتي النوم وكأنه فيل في حلبة ضيقة.. وحين أراد أن يغادر الشقة، وجد نفسه لا إراديا يفكر في حواء الدلو..! سـأل نفسـه محتاراً: أعليه أن يخبرها بأنه سـيغادر الشـقة،

ويشرح لها كل ما جرى معه أو يُبقي الأمر سرّاً..؟ هو يحتاجها.. يشعر أنها تمنح حياته دفئا وحنانا أنثويا، لكنه الآن في وضع ملتبس كما أن علاقتهما لم تصل إلى درجة المكاشفة الحقيقية والعميقة..!!..

فكر مع نفسه أن يبلّغها بأنه سيمضي بعض الوقت خارج الشقة لظروف خاصة به، وسيخبرها بأنه سيكون في فندق " استراحة مفيستو".. وهو فندق ليس بالبعيد من الحي الذي يعيشون فيه، فهو على الشارع العام القريب منهم.. ويمكنه أن يأخذ رقم هاتفهم المنزلي ليتصل بها من هناك..!.. لكن كيف سيراها..؟ أيذهب إليها طارقاً باب شقتها.. متحججاً بإرجاع الصينية..؟ وماذا لو أن زوجها في البيت.. لا.. لا.. هو يعرف منذ أن استأجروا هذه الشقة منذ عام أن زوجها المتقاعد يخرج كل يوم ليستكشف المدينة.. ولا يعود إلا عصرا أو مساء.. هذا ما كانت أمه تقوله لأبيه عن جارهم الغامض الذي لم يره قط.. كما أنه سمعها تروي لأمه عن هذه الرحلة اليومية.. ولم تمض سوى ساعة أو أكثر بقليل على مقابلته له عند السلّم صباحاً.. وهكذا حسم آدم المسكين قراره بمقابلتها ثم الذهاب إلى الفندق.

****

حين خرج آدم المسكين من شقته حاملا الحقيبة الخفيفة بيد والصينية باليد الأخرى كان مع نفسه يريد التوجه إلى الشقة المقابلة. لكن ما أن هم بالخطوة الأولى نحو شقة حواء الدلو.. حتى سمع ضجيجا عند باب الشقة المقابلة وحواراً مقتضبا لصوت جارهم وهو يقول: ربما سأتأخر اليوم.. وشكر المصادفة لسماعه صوت جارهم.

أحس آدم المسكين بالراحة لأنه تخلص من موقف محرج لا يمكنه تفسيره، لأنه موقف ربما سيثير الشك في ذهن الزوج.. وبهدوء فتح باب شقته مرة أخرى، وضع الصينية على الطاولة الصغيرة أمام الصوفا وخرج مسرعاً، هابطا السلّم بسرعة وكأنه يهرب من أشباح تلاحقه.

****

حين صار آدم المسكين في الشارع أحس بأنه في أمان..، فالشمس لها تأثير قوي على حالته النفسية. كما أحس بالراحة لأنه تخلص من موقف سخيف كان سيعرّضه لإحراج مع جاره.. فجأة، سأل نفسه: من هو هذا الجار الذي لم يره منذ عام ولا صادفه داخلاً أو خارجاً..!

مشى باتجاه الشارع العام، لكن فجأة، وكأنه صعق. وقف أمام كشك بائع الصحف الذي وضع أكثر من صحيفة على مسند كبير من الجانبين يواجها القادم من أية جهة بالعناوين الكبرى للصحف اليومية.. وواجهته ثلاث صحف تتصدر صفحتها الأولى صورة لأحد الشخصيات ممن تعود لهم إحدى البطاقات الشخصية:

اختطاف موظف كبير في أحد البنوك عند خروجه من العمل.

العنوان لم يحدد اسم الموظف.. لكنه كان يحمل صورة الرجل الذي تؤكد بطاقاته الشخصية واستمارته بأنه موظف كبير في أحد البنوك.. اشترى آدم المسكين كل الصحف التي تحمل خبر الاختطاف ووضعها في الحقيبة..! ومضى بسرعة، وكأنه (وكأن) عيون الناس تتهمه أو أنهم يعرفون علاقته باختطافه أو ربما بمقتله.

حين صار في الشارع العام أخذ يسرع خطاه نحو الفندق.. لكنه مصادفة كان يمشي إلى جانب محل كبير لبيع الأجهزة التلفزيونية، حيث كانت الكثير من شاشات التلفزيون تبث من قنوات محتلفة.. ومرة أخرى يحس بالصدمة.. فقد كانت المذيعة تنقل خبراً لم يكن يستطيع سماعة لأن الجهاز داخل المحل، لكنه قرأ الأسم والعنوان إلى جانب الصورة التي يعرفها جيداً:

اختطاف المحامي الشهير آدم الطيار المحامي من مكتبه بظروف غامضة.

أسرع الخطى إلى الفندق الي صار فجأة أقرب مما هو عليه في الواقع.. لم يصدق ما يراه.. فقد كان يفترض أن يقطع مسافة تقارب الكيلومتر ماشياً كي يصل الفندق. لم يتعب نفسه كثيرا بالإجابة على هذا سؤال اختصار المسافة، إذ أنه صار على يقين بأنه داخل لعبة سحرية غامضة.

****

لم يعد يستغرب آدم المسكين بأن كل الموجودين داخل الفندق هم نسخ متشابهة من المدير العام آدم آدم، لكنهم يختلفون عنه في العمر والطول والقصر وبعض العلامات الفارقة غير المنظورة لغرض تميزهم عن بعضهم. بل ولم يستغرب أن شخصاً آخر كان في الاستعلامات، وهو يشبه مدير الفندق أيضاً.. وقبل أن يتحدث مع الموظف، استقبله الآخر بابتسامة رقيقة محببة وبنظرات من يعرف كل شيء، قائلاً له بأنهم جهزوا له غرفته، وأن المدير سأل عنه، ففوجئ آدم المسكين وسأل:

- المدير سأل عني..؟

ابتسم الموظف ثم التفت إلى عمق المكتب فظهرت صورة المدير كبيرة وهي تبتسم، وقال له مؤكداً:

- نعم.. مديرنا الأستاذ آدم آدم سأل عنك..

أحس آدم المسكين بالارتباك، فقد كان متأكداً من أن صورة المدير لم تكن موجود على جدار مكتب الاستعلامات، لأنه ركّز على هذا الأمر وهو يتجه إلى المكتب. لم يقل شيئاً.. إذ خمّن أن هناك قدرة هائلة تهيمن على كل الواقع الذي يحيط به، بل إن اللاواقع صار يتداخل مع الواقع. أخذ من موظف الاستعلامات مفتاح غرفته التي استغرب أنها في الثالث، وهي الغرفة نفسها التي تحمل الرقم 777..

****

دخل آدم المسكين غرفته وأطبق الباب غالقاً إياها من الداخل. وضع الحقيبة الجلدية على الطاولة التي تتوسط الغرفة قرب السرير، وأخرج منها الصحف.. ألقى بها على السرير الذي كان قد رُتب أثناء غيابه.أحس برغبة في التبول.. دخل الحمام. لم يبق طويلا. خرج مسرعا وكأنه تذكر شيئاً. أخذ الريموت كونترول.. تمدد على السرير باسترخاء.. ضغط على الريموت كونترول، وبدأ يتابع قنوات التلفزيون مفتشاً عن قناة تتحدث عن اختطاف آدم الطيار المحامي.. لكن بلا

جدوى. فهناك تسع قنوات فقط، غير أنها بدت له وكأنها قناة واحدة.. ولم ينتبه لأسمائها.. أغلق التلفزيون.. ألقى بالريموت كونترول جانباً. أخذ الصحف الثلاث التي نشرت خبر اختطاف موظف البنك آدم ذوالنون.. وبدأ يقرأ الخبر.

****

" **قامت مجموعة مجهولة باختطاف الموظف الكبير آدم ذوالنون، مسؤول قسم العقود في بنك الحياة عند خروجه من البنك، واقتادوه إلى جهة مجهولة.. وقال شهود عيان بأن ثلاث سيارات مجنزرة سود اللون ومعتمة الزجاج كانت قد أحاطت بسيارته، ونزل منها رجال ببدلات سود وأحذية بيض، ويضعون على وجوههم أقنعة متشابهة لوجه رجل واحد. أقتادوه دون إيذاء أو تهديد وساقوه كما تساق الذبيحة إلى المسلخ.. ولحد الآن ليس لدى الجهات الرسمية أية معلومات تفيد الرأي العام..** ".

قرأ آدم المسكين هذا النص ثلاث مرات. ألقى الصحيفة الأولى، وأخذ الصحيفة الثانية فقرأ نص الخبر نفسه دون أي تغييرات كبيرة.. سوى الإضافة التالية : " **ويفيد المسؤولون في البنك بأن السيد آدم ذوالنون كان يحمل حقيبة جلدية فيها مبلغاً كبيراً يُقدّر بستمائة ألف دولار**"..

فكر آدم المسكين مع نفسه، إذن ربما هو الشخص الذي وجد جثته في المقبرة، وأن الحقيبة تعود إليه. ولكي يتأكد أكثر، أخذ الصحيفة الثالثة وقرأ الخبر فيها مرة أخرى، ومرة أخرى لم يكن هناك من إضافات على النص الذي قرأه في الصحيفتين سوى الأسطر التالية " **وجدير بالذكر أن السيد آدم ذوالنون متزوج من الكاتبة المعروفة حواء الصوفي التي يبدو أنه انفصل عنها في الأيام الأخيرة.. وقد نقلت الصحف قبل أيام أخباراً عن توتر العلاقة بينهما، ويقال إنها هددته علناً بكشف مراسلاته البذيئة حينما كانا في فترة التعارف الأولى بينهما..** ".

أعاد آدم المسكين قراءة الأخبار في الصحف الثلاث. فكّر بأن مفتاح السر ربما يمكن عند الكاتبة حواء الصوفي..!..؛ لكنه انتبه لما جاء في وصف

المختطفين، بأنهم كانوا في بدلات سود وأحذية بيض، ويضعون على وجوههم قناعا لرجل واحد.. أليس كل العاملين في هذا الفندق يلبسون بدلات سود وأحذية بيض..؟.. آهٍ لو يعرف شكل القناع والوجه المرسوم عليه.!!..

وكلما توغل في تفكيره باختطاف موظف البنك آدم ذوالنون إزداد شغفه بمعرفة تفاصيل حياته، فقد تشكل لديه ما يشبه اليقين بأن الجثة مقطوعة الرأس هي جثته، والحقيبة تعود له، فالخبر يشير إلى وجود مبالغ مقاربة في كميتها لما موجود في الحقيبة فعلاً..

فجأة، راودته فكرة أن يتعرف على تفاصيل حياته من خلال زوجته الكاتبة حواء الصوفي، وهي شخصية أدبية وإعلامية معروفة.. وقد قرأ لها روايتها : " **مرايا حواء المحدبة**" التي تناولتها الصحف واللقاءات الأدبية، والتي تتحدث عن امرأة متزوجة عاشت سني عمرها مع زوجها دون أن تشعر مرة باللذة الجنسية، وأنها بعد انفصالها اكتشفت لذتها مع فتى يصغرها بأثنتي عشرة سنة.. بعد ذلك عاشت تمردها الشخصي على القيم التي حاصرتها طوال حياتها.. وقد أشار النقاد إلى أن أحداث الرواية لها علاقة بسيرتها الشخصية.

وجد آدم المسكين نفسه منجذبا لفكرة لقاء هذه الكاتبة.. لكن كيف له ذلك..؟.. ومع مرور الدقائق كانت تلك الرغبة تتأجج في أعماقه.. صار يستذكر شكلها وصورها المنشورة ولقاءتها التلفزيونية.. وخلال استحضاره الذهني لها انتبه، إلى أنها تشبه حواء الدلو شكلا وقامة وتفاصيل جسدية لكنها مختلفة في الأناقة والمكياج والثقافة. فكر مع نفسه من هذه المصادفة العجيبة، كيف أنه لم يتذكر الكاتبة حينما رأى حواء الدلو، بينما هو تذكّر حواء الدلو حينما استحضر صورة وشكل الكاتبة حواء الصوفي..!..

رن هاتف الغرفة. فزّ وكأنه كان في غفوة.. نهض عن السرير واتجه إلى حيث التلفون على طاولة ليست بعيدة. قرب الصوفا المواجهة للتلفزيون العريض المعلق على الجدار. أخذ سماعة الهاتف الحرة وغير المرتبطة بسلك..، ضغط على زر الصوت العالي.. وجلس على الصوفا.. فجاء الصوت عالياً عبر مكبر

الصوت في جهاز الهاتف:

- مرحبا أستاذ آدم.. موظف الاستعلامات آدم استعلامات يتحدث مع حضرتك.. وددت أن أبلغك بأن حضرة السيد المدير العام آدم آدم طلب إبلاغك بأنه سيتشرف بلقائك في مكتبه.. سنتصل بك لتبلغيك بالموعد المحدد..
- شكرا.. يشرفني ذلك..
- وهو كذلك أستاذ آدم.. سأبلغ السيد المدير بأنك ستكون في الموعد حال تحديده..

استغرب آدم المسكين هذا الاتصال من موظف الاستعلامات.. لماذا لقبه آدم استعلامات..؟ وما الذي يريده مدير الفندق منه..؟ ولا إراديا ضغط على الريموت كونترول فبدأت الشاشة تبث اعلانات متهيئة لأخبار الظهيرة. قام من مكانه.. فتح الثلاجة فوجدها مليئة بقناني الويسكي والكونياك الصغيرة وبأكياس البطاطا المقلية والشوكولاته وقناني الماء. فسحب فنينة ماء باردة من الثلاجة.

فجأة انتبه إلى أن القناة لم تكن قناة رسمية وإنما هي قناة خاصة بالفندق. لكنها ليست قناة دعائية تروج للفندق فحسب، وإنما هي مجموعة قنوات متنوعة ومتخصصة تحمل اسم (**استراحة مفيستو**)، فواحدة إخبارية، وثانية وثائقية، وثالثة للأفلام، ورابعة للأغاني، وخامسة للأطفال، وسادسة فيها برامج حوارية لمقدمي برامج يومية وأسبوعية.. وقناة سابعة للبورصة والتقلبات المالية.وثامنة للرياضة، وتاسعة للفندق ومدير الفندق وحفلات الفندق.

توقف عند القناة الأولى الأخبارية التي أعلنت بدء النشرة.. واندهش حينما رأى المذيعة التي تقدم النشرة، فقد كانت تشبه حواء الدلو أيضا لكنها أكثر أناقة وعصرية منها وأقل عمراً.

تعمقت دهشته حينما شاهد الخبر الأول في النشرة، فقد كان عن حادثة اختطاف المحامي آدم الطيار، حيث رافق الخبر تقرير عن مكتبه، ولقاء مع سكرتيرته الخاصة، وبقية الموظفين الذين تحدثوا عن كيفية اقتحام المختطفين

للمكتب الذي يضم تسعة موظفين، وكيف أنهم كانوا ببدلات سود أنيقة، وأحذية بيض ويضعون على وجوههم أقنعة لوجه رجل واحد. وأنهم فتحوا خزنته وأخذوا مبالغ طائلة كانت في الخزنة، ثم أخذوه معهم.. وغادروا المكان إلى جهة مجهولة.

مرت خاطرة غريبة في ذهن آدم المسكين، بأن القناع الذي يرتديه هؤلاء المختطفون والذي يمثل وجه رجل واحد ربما هو ليس سوى قناع آدم آدم مدير الفندق الغامض.. فهنا جميع الموظفين يشبهونه وكأنهم يضعون وجهه كقناع لهم.. لكنه استبعد هذا الخاطر لأن التقرير لم يذكر توصيفا لهاذ القناع الذي يضعه جميع المختطفين على وجوههم.

ارتشف شيئا من الماء الذي كان قد صب منه في قدح زجاجي أزرق. وتابع النشرة التي انتقلت إلى الخبر الثاني، وزادت دهشته حينما انتبه إلى أن الخبر الثاني هو عن حادثة اختطاف موظف البنك آدم ذوالنون الذي قرأ تفاصيل عملية اختطافه من الصحف، إلّا أن التقرير المرافق أوضح بعض التفاصيل الأخرى، فإلى جانب التقرير السردي التقليدي عن البنك والموظفين، وعملية الاختطاف، والحقيبة وما فيها والحديث عن خلافاته الزوجية، إلّا أن التقرير تمّيز بلقاء مع زوجته الكاتبة حواء الصوفي..!.

بدت الكاتبة حواء الصوفي في ثوبها الأسود، سيدة حزينة لكنها جريئة، إذ اتهمت جهات تريد الهيمنة على البلاد من خلال تبديل العملات وغسيل الأموال بتقديم المليارات من العملة المحلية الهزيلة والمزورة، والضغط لتبديلها من خلال شراء العملة الصعبة، سواء كانت دولارات أو يورو أو باون استرليني.. وأنه عارض ذلك بشدة..، وحينما سألها المراسل الصحفي عن إشاعة توتر علاقتهما وتهديده بإفشاء أسراره، فنفت ذلك بشدة وبشكل قطعي، وقالت إن علاقتهما طبيعية جداً.. وعلى أحسن ما يكون..!.

انتبه آدم المسكين إلى أن اللقاء مع الكاتبة حواء الصوفي يجري في مكان يعرفه.. نعم.. نعم.. فخلفها تبدو استعلامات الفندق في الأسفل.. كما أن النقل كان مباشراً.. فهي تجلس في جانب من قاعة الاستقبال.. أمامها يجلس المراسل

الـذي طـرح عليها تلك الأسـئلة حول علاقتهـا بزوجها. إذن فهي الآن هنا.. وهذه فرصة للتعرف عليها ومناقشتها عن روايتها وكذلك معرفة سر آدم ذوالنون.

وبـدون تفكيـر طويـل أو قصيـر نهض من مكانه. أخذ معـه الحقيبة الجلدية، وغادرغرفته، متجها لملاقاة الكاتبة حواء الصوفي.

الفصل الخامس

مرايا حواء الصوفي المحدبة

حين خرج آدم المسكين من غرفته وجد نفسه ليس في الطابق الذي هو فيه.. فهذا طابق مختلف جداً عن الطابق الذي يعرفة منذ البارحة. هنا يبدو الطابق بممرات عريضة ومفروشة بالسجاد الأحمر. والغرف الموجودة تبدو وكأنها أجنحة كبيرة أو شقق واسعة.. وكأنه في فندق كبير كان يراه في الأفلام..

شعر برهبة من السكون الذي يهيمن على المكان. وكأن الأبواب والجدران والمصابيح المضيئة كلها تحدق فيه، أو كأن وراء الأبواب من ينظر إليه من خلال العين السحرية التي تتوسط الأبواب.

وللتأكد من واقعية ما يراه التفت إلى باب شقته فوجده مثل بقية الأبواب وليس الباب التي يعرفه، والذي خرج منه قبل قليل.. لكنه كان قد وطّن نفسه على أنه يشارك في قصة غامضة كل شيء فيها غير معقول.

اتجه نحو المصعد الذي على الجانب الأيسر، والذي يتوسط الممر. وقبل أن يضغط على الزر الذي يشير للنزول فُتح باب المصعد. دخل.. وجد نفسه في كابينة مصعد أنيقة جدا وواسعة، جدرانها مغطاة بمرايا كبيرة من كل الجهات، بما فيها الباب الذي يفتح حيث كانت المرايا تغطيه من الداخل.. وقبل أن يضغط على زر الطابق الأرضي تحرك المصعد نازلاً.

أحس آدم المسكين بغرابة حركة المصعد، فقد كانت سريعة جداً وكأنه نيزك يسقط من السماء إلى الكرة الأرضية. لكن الكابينة كانت برغم ذلك آمنة فلم يشعر بالخطر.

أخذ آدم المسكين يتأمل نفسه. صحيح أنه يرتدي ملابس بسيطة، سروالاً

طويلاً بيجي اللون وقميصاً قصير الأكمام، لكنه برغم ذلك كان مظهره لائقاً. ظل ينظر إلى نفسه في المرآة وهو يفكر بالكاتبة حواء الصوفي، سائلاً نفسه إن كانت ستعجب به، وماذا عليه أن يفعل كي يثير فضولها وأعجابها، بحيث يمكنه محادثتها، خاصة عن زوجها آدم ذوالنون..!.. من المؤكد سيتحدث معها عن روايتها " **مرايا حواء المحدبة**".. لكن كان على يقين بأن مفتاح الحكاية هو أن تنجذب إليه كرجل، بعد ذلك تُفتح الأبواب بسهولة.

تأمل نفسه، ثم تأمل المرايا التي تحيطه.. وفكر بلغز المرايا.. ماذا لو لم يكتشف البشر المرآة..!! فجأة انتبه إلى نفسه في المرأة.. لم تكن الحقيبة بيده. ارتعب.نظر إلى نفسه فرأى كفه تقبض على الحقيبة بقوة. أعاد النظر ثانية في المرآة فرأى أنه يقبض على اللاشيء.. فلا حقيبة في واقع الصورة التي في المرآة..!!.

فكر بأن الحقيقة نسبية.. وهي تحتمل الأثنين.. فإما يحمل الحقيبة فعلاً.. وأن ما يراه ليس إلا هواجس ولعبة تضليل.. وإما أنها غير موجودة وهو شخصية مريضة، وأن ما يدور من أشياء غامضة هي غير موجودة وإنما هو يتوهمها.. وبالتالي فكل ما يراه في المرآة هو وهم في وهم..!!.. هو لا يريد أن تكون الحقيبة وهما.. ولا هذا الفندق وهما.. لكن المرآة صادقة.. لماذا تكذب المرآة..!!؟.. راودته رغبة داخلية في أن يغير من اتجاه تفكيره المعذب هذا.. هو لا يريد أن يواجه حقيقة المرآة.

نظر إلى شاشة أرقام الطوابق التي تتبدل بسرعة فوجد أنها تشير إلى الطابق التاسع.. ذهل.. كيف ذلك؟ غرفته في الطابق الثالث على الرغم من أنها تحمل الرقم 777 والتي يفترض أن تكون في الطابق السابع، لكنه تقبل فكرة غرابة هذا الفندق فربما لديهم أسلوبهم في التنظيم..! لكن أن يخرج من الطابق الثالث ويدخل المصعد، ثم يتحرك المصعد نازلا بسرعة نيزك من السماء، بينما يجد نفسه في الطابق التاسع..!! ولا يزال المصعد يتحرك نازلاً.. فهذا ما لا يمكن تقبله حتى في الفنتازيا.. فكيف جرى ذلك..؟.

كان آدم المسكين يسائل نفسه وكأنه يريد أن يعرف لغز كل ما يجري..

ويتمرد شيئا فشيئا على مخادعة نفسه بالقبول بدوره في هذه التمثيلية الغامضة.

****

فجأة توقف المصعد. نظر آدم المسكين إلى شاشة أرقام الطوابق فوجد أنها تشير إلى الطابق التاسع.. استغرب ذلك..!! إذن إلى أين كان يهبط المصعد نازلاً..؟.. فتح الباب.. ازدادت استغرابه حينما وجد نفسه في الطابق الأرضي.

حين عبر الممر إلى اللوبي وجد الكاتبة حواء الصوفي في مواجهته. كانت تجلس على كرسي في مقابل الصحفي الذي يحاورها، وخلفها مكتب الاستعلامات. الأضواء مسلّطة عليها بشكل قوي. بدت مرتبكة وحزينة حزناً حقيقيا وليس مصطنعا.. الحزن أضفى عليها إثارة خاصة، لاسيما وهي كانت بثوب أسود قصير الأكمام، يصل حد ركبتيها، كاشفا عن ساقيها المستقيمتين الرشيقتين.. لكنها بدت مرتبكة، وكأنها تريد أن تهرب من المكان.

تقدّم قليلاً منهما. لم يكن هناك مصور وفريق عمل وما شابه من متطلبات العمل التلفزيوني، وإنما كانت هناك كاميرا مثبته على قاعدة ثلاثية، موجهة نحو حواء الصوفي، وهي تواجه الكاميرا بارتباك..، وفي الجهة المقابلة لها يجلس الصحفي المكلف بإجراء اللقاء..

حين وصل آدم إليهما سمع المقدّم وهو ينهي اللقاء، ثم سمعه شكرها باسم قناة " إستراحة مفيستو" الإخبارية على الإيضاحات التي قدمتها حول اختطاف زوجها السيد آدم ذوالنون.

في تلك اللحظة رفعت حواء الصوفي رأسها ونظرت نحو آدم المسكين. كان هناك تواصل بينهما لثوان.. ابتسم لها لكنها لم ترد على ابتسامته على الرغم من أنها نظرت إليه بتمعن.. كانت مرتبكة.. انتبهت إلى أن نظراته مليئة بالأسئلة.. لم تشأ أن تتواصل معه بالنظرات أكثر مما يجب.. كانت تخاف من شيء ما مجهول.

حين قامت عن كرسيها بعد انتهاء المقابلة انتبهت إلى أن محاورها الصحفي الذي كان آدم المسكين لا يرى سوى ظهره، يحاول أن يستبقيها بأية وسيلة، ويتودد

لها، وكأنه يريد أن يواصل حديثه معها، لكنها كما يبدو كانت غير متحمسة، بل إن شيئاً من العصبية الخفية قد ارتسمت على وجهها.

تقدّم آدم المسكين خطوة نحوهما، فوجدت فيه إنقاذاً لها من هذا الصحفي اللحوح، فوجهت نظراتها نحوه بانتباه وكأنها تسأله مستفهمة، فحدس آدم المسكين بأنها تريده أن ينقذها من هذا الوضع الذي هي فيه.

وفي تلك اللحظة أيضا انتبه الصحفي لنظراتها فالتفت إلى الجهة التي شدّت انتباهها، فالتفت نحو آدم المسكين.. دهش كلاهما في آن واحد، لكن لأسباب مختلفة، فقد كانت دهشة آدم المسكين اعتيادية، لأنها مرتبطة باكتشاف التشابه بينه وبين وجه المدير صاحب الفندق، بينما كانت دهشة الصحفي أنه لم يكن يتوقع أن يكون آدم المسكين هنا في تلك اللحظة، التي وجدها مبررة له للانسحاب، إذ بادره وكأنه يعرفه:

- أهلا أستاذ آدم.. أنا آدم الضائع.. أكيد أنك جئت تقابل السيدة حواء الصوفي لتسألها عن حقيبة الأستاذ آدم ذوالنون.!!

صُدم آدم المسكين من كلام الصحفي، ومن لقبه الغريب.. ارتبك، لكنه كان ذلك أيضا وسيلة لبدء الحوار مع الكاتبة حواء الصوفي.. فقال بارتباك واضح وخجل:

- تشرفت بك أستاذ آدم الضائع.. تخمينك صحيح.. أود أن أسأل السيدة عن الحقيبة.. هذا لو تفضلت السيدة حواء الصوفي بمنحي القليل من وقتها...!.

نظر الصحفي آدم الضائع إلى الكاتبة حواء الصوفي دون أن يقول شيئاً ثم نظر إلى آدم المسكين، ابتسم، ثم قال وهو ينسحب:

- الأمر متروك لكما.. أنا انسحب.. ولا أعتقد أن الأستاذة حواء الصوفي تمانع أن تتحدث عن هذه المعلومة التي سبق وأن تم تسجيلها في حوارنا..

قال ذلك وغادر المكان متجهة إلى الطرف الآخر من الممر المقابل، بينما ظل آدم المسكين والكاتبة حواء الصوفي ينظران إلى بعضهما نظرات مرتبكة لكنها تشي بموافقة ضمنية على التواصل..

تقـدم خطـوة نحوها.. تأمل وجهها للحظات.. أحس أنه أمام امرأة مسـكينة، مرتبكة، وهشة، برغم أنها اسم أدبي معروف، فقال لها:

- أستاذة حواء.. أنا أحببت أن أسأل عن حقيبة الأستاذ آدم ذوالنون.. ومعرفتك بهـا، وهـل كان هنـاك مبلـغ معروف مسـبقا فيهـا..؟ ولمـن كان يحمل هذه النقود..؟

- ولماذا تسأل.. عن الحقيبة بالذات..؟

ارتبك آدم المسكين وقال لها:

- هـل يمكننـا أن نجلـس في مـكان هادئ ونتحدث..؟ ثم في الحقيقة بالنسـبة لي وددت أن أسـألك أنت شـخصياً عن روايتك " **مرايا حواء المحدبة** " فقد قرأتها وأحب أن أناقشك حولها..؟

فجأة، أشـرق وجهها، وانبعثت أشـعة دافئة من نظراتها، وابتسـمت مع نفسها لثوان، وسألته وعلى وجهها ابتسامة رقيقة:

- هل قرأت روايتي " **مرايا حواء المحدبة** "..؟ جميل..؟ وهل أعجبتك..؟ ما رأيك فيها..؟

ابتسم آدم المسكين لها وقال بحيوية:

- نعم أعجبتني لكن كانت لدي بعض الملاحظات.. وددت أن أستفسـر منك عنها.. لكن بعد حدثينا عن حقيبة الأستاذ آدم ذوالنون!..

- لم تكن هناك أية حقيبة...!.

صُدم آدم المسـكين من كلامها. انتبهت لصدمته من جوابها.. فتلفتت في ما حولها وقالت بما يشبه الهمس:

- دعنا نجد مكانا هادئا للحديث.. فأنا تحدثت أمام الكاميرا عن الحقيبة.. لكن لم تكن هناك حقيبة.. هل تعرف مكانا هادئا هنا في هذا الفندق الغريب..؟

- أنا أسكن فيه.. ولا أعرف سوى غرفتي..

- وانا أيضاً أسـكن فيه.. وآدم ذوالنون كان يسـكن فيه أيضاً.. نحن نسـكن في

الطابق السابع.. في الجناح 333.. وأنت..؟

حين سمع آدم المسكين برقم الطابق ورقم الغرفة، بل وسكن آدم ذوالنون في الفندق، أحس بالتشويش، فقال لها:

- أنا أعيش في الطابق الثالث ورقم غرفتي 777، وأنتما تعيشان في الطابق السابع، ورقم جناحكما 333، أي العكس تماماً....؟

تلفتت وكأنها تخاف أن يسمعها أحد.. نظرت إلى أعماق عينيه.. وقالت:

- عليك أن تفهم معنى وجودك في فندق " **استراحة مفيستو!**.."
- ماذا أفهم..؟
- إفهم معنى وجودك في " **استراحة مفيستو!**.."
- طيب سأحاول ذلك.. لكن كيف يجب أن أفهم عدم وجود حقيبة مع الأستاذ آدم ذوالنون..؟

نظرت إليه بانتباه وقالت له بإلفة وكأنما تعرفه منذ زمن:

- اسمع.. أما أجيء أنا معك لغرفتك أو تجيء معي لجناحي، فهنا المكان غير آمن.. ولا توجد في هذا الفندق أية زاوية لا يمكن سماع ما يدور فيها ولا يتم تسجيله.. وأفضّل أن تأتي معي.. فقد عرف الصحفي بأنك تريد أن تسألني عن الحقيبة.. ومن غير اللائق أن أجيء إلى غرفتك.. بينما الدخول إلى جناحي هو أمر اعتيادي فأنا استقبل الضيوف والكتاب والصحفيين من كل المشارب.. وإدارة الفندق.. بل والسيد آدم آدم نفسه يعرف ذلك.. فمجيئك معي يبدو اعتياديا أكثر مما أن أجيء أنا معك!..

وبدون أن تترك له مجالاً للمناقشة استدارت متجهة نحو المصعد.. كما أنه كان في أعماقه فرِحاً من قرارها، فلم يناقشها، فقد كان منشغلا بجوابها الذي قلب كل ما توصل إليه وظنه يقينا.. فإذا لم تكن هناك حقيبة فهذا يعني أن الجثة لا تعود لآدم ذوالنون، لذلك عليه فقط أن يتأكد من قولها، ثم يحدثها عن روايتها. وجد نفسه يتبعها، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن ينظر إلى مؤخرتها المثيرة واللحيمة بتناسق.

حين دخلا إلى كابينة المصعد دهش آدم المسكين من أن الكابينة التي نزل فيها وكانت مغطاة بالمرايا من جميع جوانبها، هي الآن مغطاة بقماش القطيفة الحمراء المائلة للأرجواني.. ضغطت هي على زر الطابق السابع، فتحرك المصعد صاعداً بهدوء اعتيادي.

****

حين خرجا من كابينة المصعد انتبه آدم المسكين بأن هناك في الممرين المتقابلين يقف بعض موظفي الفندق على الجانبين بطريقة سكونية، في بدلاتهم السود وأحذيتهم البيض، وكأنهم تماثيل من الشمع تتنفس. أحس بالحرج، لكنها لم تكن كذلك، إذ مضت وكأنهم غير موجودين بالنسبة لها ولا تراهم. فتحت باب جناحها ودخلت فأسرع داخلا خلفها.

حين صار في جناحها أحسّ بأنه في عالمه الذي يحلم به. صفوف من الكتب تزين الصالة. وبدا له أن هذا المكان ليس جناحا للسكنى، وإنما هو قاعة مكتبة.

انتبه هو إلى توترها حينما صارا وحدهما. لكنها سيطرت على نفسها حين قامت بطقوس الضيافة، فأسرعت إلى الدورق الكهربائي لغلي الماء.. فتحت الثلاجة وأخذت قنينة ماء كبيرة، فدلقتها في الدورق الكهربائي. وربطت الدورق بقابس الكهرباء. الفتتْ إليه فوجدته منجذباً لعالم الكتب. ابتسمت.. دعته إلى الجلوس على الصوفا.. أحسّت أنه يبث في نفسها شيئاً من الهدوء، ويزيل عنها الريبة التي هي من سمات نزلاء هذا الفندق.

- شكراً جزيلاً..

قال ذلك وهو يجلس قبالتها على الصوفا واضعا الحقيبة الجلدية إلى جواره. كانت هي لا تزال واقفة أمامه قرب الدورق الكهربائي. نظرا لبعضهما.. فكرت به للحظة في سر بحثه عن الحقيبة، لكنها لم تسيء الظن به، فهيئته البريئة التي تجعله يشبه الطفل الكبير، ونظراته القلقة، وصوته الآسر الذي يترك في أذنها وجسدها نوعاً من الخدر اللذيذ، أبعدا عنها أية تخمينات وظنون تدعو للحذر منه، فسألته:

- لماذا أردّتَ أن تسألني عن الحقيبة..؟

ارتبك آدم المسكين، ثم قال بهدوء، وكأنه شعر نحوها أيضا بطمأنينة، تشبه تلك التي يشعر بها حينما يكون مع جارته حواء الدلو.. وقال:

- الحقيقة تم العثورعلى حقيبة مليئة بالمال.. وتبادر إلى الذهن بأنها يمكن أن تعود للأستاذ آدم ذوالنون.. فالأخبار التي تناقلتها وسائل الإعلام والصحف أكدّت أنه كان يحمل حقيبة مليئة بالمال..

حدّقت إليه وكأنها تستمع إلى قصة غريبة، وقالت:

- لكنه كان بلا حقيبة حينما غادر البنك.. وأن قصة الحقيبة هي من اختلاق إدارة البنك، كي يحصلوا على تعويضات من شركات التأمين على البنوك.. ليس أكثر، أي أنها خدعة قذرة انطلت على الرأي العام وحتى على الجهات الرسمية، وأنا اليوم قلت إنه خرج وبيده حقيبة.. لأنني تلقيت تهديداً قبل إجراء اللقاء من جهة مجهولة طلبوا مني أن أتحدث عن وجود حقيبة مليئة برزم المال.. وعليّ أن أؤكد على ذلك مراراً بحيث يبدو الأمر سطواً واختطافاً من أجل المال.. ولم أستطع أن أقول غير ذلك!..

كانت تتحدث معه بأمان وبصدق واضح.. فجأة استدارت وفتحت خزانة حائطية، وأخرجت علبة من الكابتشينو، أخذت منها كيسين فتحتهما، وصبّت مسحوق الكابتشينو في كوبين أمامها وسكبت الماء المغلي، ثم أدارت المسحوق في الماء بالملعقة.. كانت تقوم بذلك وكأنها تمارس طقساً مهما.. كان هو يتأملها.. وخلال ذلك كان يتأمل جسدها.

التفت إليه حاملة الكوبين. وضعت أحدهما أمامه، وجلست هي على مقعد قريب منه، طوت ساقيها أمامها. واستندت على مخدّة في الزاوية.. أخذا يرتشفان الرشفات الأولى الساخنة. نظر هو إليها فأحسها قريبة منه، لكن ما روته لم يقنعه بالكامل، فسألها:

- لكن من أين عرفت أنت بأنه كان بلا حقيبة..؟ فقد تم الاختطاف عند باب البنك الخارجي.. وأنت بالتأكيد لم تكوني معه، فكيف تنفين ذلك..؟

نظرت إليه للحظة، وكأنها لم تتوقع مثل هذا السؤال، ابتسمت له بطيبة، وقالت:

- لأنه اتصل بي قبل خروجه.. وكنا متفقين أن نمرّ على طبيبنا الخاص ليجري لنا بعض الفحوص. فنحن نريد أن نجري عملية إخصاب خارجي.. وحينها قال لي بأنه أخذ إجازة لبقية اليوم.. وأن عليّ أن أكون في عيادة الطبيب قبله.. لكني فضّلت أن أمرّ عليه لآخذه معي.. وبعد ذلك نذهب إلى مطعم " العالم الجديد" لنتغدى، وقد حجزت بنفسي لنا طاولة هناك.. فكيف كانت معه حقيبة مليئة بالمال..!!؟.

- وكيف تفسرين اختطافه إذن..؟

- أنا أظن أنه تم اختطافه لترويعه والضغط عليه من أجل أن يوافق على منح مجموعة معينة قرضاً مالياً ضخماً.. وكان هو منذ أسبوع يشكو من أنه يتعرض لضغوط من أجل التوقيع على ذلك العقد.. الذي لا يضمن للبنك حقوقه ولا إمكانية استرجاع مبلغ القرض، على الرغم من أن بعض العاملين في الإدارة معه موافقون.. أي أن الأمر مجرد ترويع.. فربما سيأخذون ملف القرض وكل الأوراق الخاصة به إليه في المخبأ الذي يقبع فيه الآن.. وسيضغطون عليه من أجل التوقيع.. وأنا على يقين بأنه سيوقع..

- ومن أين لك هذا اليقين..؟

- لأنه...لأنه.. لأنه.. منهم.. ولأنه...

ولم تكمل جملتها، وإنما ارتشفت بعض الكابيتشينو.. فكّر آدم المسكين لحظتها أن يخبرها عن الحقيبة التي معه، لكنه أحجم عن ذلك.. طال الصمت بينهما للحظات.. كانت هي سادرة في عالمها، فجأة التفتت إليه وسألته:

- ما رأيك بروايتي " **مرايا حواء المحدبة** "..؟

فوجئ آدم المسكين من انتقالتها في الحديث، وعدم إجابتها عن سؤاله بالكامل، لكنه صار على يقين من أن الحقيبة لا تعود إلى آدم ذوالنون.. أما الجثة فهو ليس على يقين لمن تعود.!..

كانت هي تنتظر إجابته على سؤالها، فقال لها وكأنه ناقد محترف، إذ أنه فعلاً كان قد قرأ تلك الرواية وتفكّر فيها ملياً، فقال بهدوء:

- أعتقد أنها تنتمي لروايات السيرة الذاتية.. برغم أنك لا تتحدثين بلغة الأنا.. لكنك وكما أشار الكثير ممن يعرفك بأنها أقرب لسيرتك.. وأن حديثك عن تلك الفتاة الجميلة التي كانت محط أنظار الطلبة في الجامعة، والتي بحكم الصداقة، والاعتياد اليومي تعلقت بصديقها، وبدأت معه قبلتها الأولى، وملامساتها الأولى، إلى أن وصل الأمر إلى أن يرتبطا، لكن حين تقدم إليها واجه استعلاء أهلها ونظرتهم الدونية له ولأهله مما دفعه إلى الهرب منها والتخلي عنها والارتباط بواحدة أخرى.. مما سبب لها صدمة، فقبلت بجارهما الذي دخل عليها في مرحلة أزمتها تلك.. واعترف لها بأنه يحبها منذ سنوات، وأنه الآن يعمل بأحد البنوك في هارج البلد.. ويريد أن يتزوجها قبل سفره لأنه الآن في إجازة.. فوافقت نكاية بأهلها.. وانتقاما من حبيبها الذي تخلى عنها بسهولة.. وتم كل شيء على السريع.. وتم كتب الكتاب.. وسافر دون أي احتفال بالزواج.. لكنّه وعد بتقديم استقالته والعودة إليها.. وهذا ما حدث فعلا..

كانت هي تنظر إليه وفي عينيها حنين ومشاعر لهذا الإنسان الذي حفظ كل تعاستها في أعماقه، فابتسمت بحزن، وقالت:

- أكمل...إنني استمتع بأن اسمعك تتحدث عني.. استمر ولا تتردد عند أي موقف..

نظر إليها بجرأة، وكأنه عرف أنه دخل عالمها، فواصل بهدوء لكن بنبرة مشحونة بالمشاعر:

- لم تكن بطلتك تحب زوجها.. وإنما تزوجته كخلاص لوضعها وخيبتها في الحب ونكاية بأهلها وحبيبها.. لكنها من جهة أخرى كانت على استعداد لأن تحب زوجها.. فهي في النهاية ليست فتاة لعوباً.. بيد أنها كانت من دون أيما خبرة جنسية، لذا كات محملة بكل أوهام الفتيات عن ألم إزالة

غشاء البكارة.. عن النزيف.. والدماء.. لذلك حين اقترب زوجها منها لم تشاركه جسديا، وإنما كانت تنتظر اللحظة التي يلجها.. لكن مرّ كل شيء دونما نزيف ولا مشاكل كبرى، بل ألم قليل وبسيط.. وانتهى كل شيء.. لكن الغريب أنها وجدت زوجها بعد الانتهاء منها دخل الحمام.استحم.. ثم استلقى إلى جانبها دون أن ينتبه إليها وغط في نوم عميق.. استغربت هي.. لكنها لم تعلق على ذلك قط..

صمت آدم المسكين للحظات.. كان ينتظر منها أن تعلّق على كلامه، لكنها ظلت صامتة وكأنها تنتظر منه أن يستمر.. نظر إليها وكأنه يطلب منها الموافقة على المواصلة.. ثم واصل:

- في روايتك تتحدثين عن الجدار اللامرئي الذي ظهر بين بطلتك وبين زوجها، والذي منعها من أن تتواصل معه.. وأن تحبه.. علماً أنها قررت مع نفسها أن تمنحه السعادة حتى بدون راحتها الجنسية.. بل كانت لا تعرف اللذة الجنسية، وأن العلاقة الجنسية بالنسبة لها هي تلك التي بينها وبين زوجها.. ولم تعرف ذلك إلا بعد سنوات.. المهم.. أنها وبعد أقل من شهر وجدت نفسها وحيدة في علاقة ملتبسة.. حدث ذلك حينما طرقت جارتها عليها الباب وسألتها إن كانت تحب أن تشتري ثياباً داخلية وقمصان نوم.. لحظتها فقط عرفت أن جارتها تاجرة حقائب.. أو كما يسمى بالعامية تاجرة (جنطة)...تشتري بالجملة وتبيع على الجارات بالمفرد.. المهم.. اشترت بطلتك قميص نوم وسروالاً مغرياً.. وفاجئت زوجها ليلاً بتلك الثياب.. استغرب الزوج.. أثارته جداً ثيابها تلك.. فسألها عنها.. فقالت له إنها اشترتها من جارتها.. فسألها عن المبلغ.. فذكرت له مبلغا معينا، في كل الأحوال لم يكن المبلغ كبيراً.. فجأة غضب الزوج.. وقال لها إنها مبذرة ولا تفكر وإنها بلا عقل.. كيف لها أن تبذّر المال من أجل هذه التفاهات.. وأنه لا يحتاج لهذا الإغراء المدفوع الثمن.. وأنه لا مانع لديه أن ينام معها حتى لو كانت خادمة أو بملابس الخادمة لأنه يشتهي جسدها أصلاً.. ويحبها عارية.. وأنها يجب أن تفكر

كيف تنفق المال.. كانت تلك الليلة هي آخر ليلة في حياتها الزوجية الطبيعية، برغم أنها واصلت لسنوات أخرى حياتها زوجة مخلصة له.. كان علاقتها أشبه بشرك بائس وقعت فيه.. هو يلتهم جسدها ويروي شهوته، بينما هي كانت تنتظر متى ينتهى من وجبته الجنسية!..

كانت حواء الصوفي تنصت لآدم المسكين وكأنها تستمع لهذه الحكاية لأول مرة وليست هي مؤلفة رواية تحكي هذه الأحداث، فسألته بشغف:

- وماذا جرى بعد ذلك..؟

نظر آدم المسكين إليها مستغرباً، وسأل :

- كيف تسألين : وماذا جرى بعد ذلك..؟ وكأنك لست كاتبتها.. ولا تعرفين كيف جرت الأمور في ما بعد..؟

ارتبكت حواء الصوفي، وانخطفت ملامح وجهها لثوان.. استعدلت في جلستها ومدت قدميها إلى الأرض.. أحنت رأسها، وقالت:

- يبدو أنها ليلة الاعترافات الكبرى..

نظر إليها مستغربا وسأل:

- ماذا تقصدين..؟

رفعت رأسها إليه وقالت مرتبكة لكن بتصميم على القول:

- لست أنا من كتب رواية " **مرايا حواء المحدبة** ".. وإنما حبيبي الأول.. والوحيد.

- ماذا..؟ قال آدم المسكين وكأنه يغص بكلمته.

- نعم.. حبيبي الأول الذي جاء ذكره في الرواية.. قابلته بعد سنوات في أحد أسواق المدينة.. وكنت وحدي.. وكان هو مع طفل صغير في الرابعة.. التقينا في مقهى ذلك السوق الكبير.. تحدثنا عن حياتنا الزوجية التعيسة.. وشكونا بعضنا لبعض.. حينها حدثته عن بعض التفاصيل التي جاءت في الرواية وذكرتها أنت.. لاسيما عن طبيعة علاقتي بزوجي.. وتكررت اللقاءات

بيننا.. سراً.. وأخذت تفاصيل أخرى لم تذكرها أنت.. عندها كتب هو هذه الرواية.. حيث اكتشفت اللذة مع صديق له وليس معه.. حين قابلته ذات مرة وكان معه رجل آخر.. صديق له.. متزوج.. لكن ذلك الرجل أثارني بشكل غريب.. بعد ذلك اللقاء اتصل بي صديق حبيبي دون علمه.. وألّح على اللقاء به لأنه يريد أن يحدثني عن مشكلة تخص حبيبي.. ووافقت.. ولكنه رفض لقائي في مكان عام من أجل أن لا يساء فهم لقائنا.. فالتقينا في شقته.. ووافقت لأني أعرف أنه متزوج.. وحين دخلت الشقة عرفت أنه أرسل زوجته إلى أهلها.. وهكذا وجدت نفسي وحدي.. كان هو يثيريني كرجل.. رائحة بشرته أثارتني.. ووجدت نفسي لا إراديا أتشممه.. وأتنفسه.. ولاإراديا منحته نفسي.. وهكذا.. معه عرفت الرعشة.. ومعه تعرفت على أفراح الجسد.. لكن هذا الصديق الكذاب أساء لي وأخبر حبيبي بكل ما كان يدور بيننا... حبيبي لم يسيء لي.. لأنني لم أكن معه على علاقة جنسية أساساً.. حبيبي الذي كان قد دخل عالم الأدب والصحافة كتب قصتي.. وذات يوم جاءني بالمخطوطة كي اقرأها.. لكن للحياة منطقاً غريباً وغامضاً.. فخلال تلك الفترة تعرض هو لحادث مع عائلته.. ومات هو وكل أفراد عائلته...أنا لست بكاتبة.. ولو طلبوا مني كتابة رسالة عادية لوجدت فيها بعض الأخطاء الإملائية.. لكني وكما ترى أعيش في مكتبة.. لكن موت حبيبي حطمني.. حزنت جدا.. وكنت أسهر الليل أبكي على نفسي وحياتي.. وكان زوجي حينما يستيقظ ولا يراني، يبحث عني فيجدني في المكتبة.. يسألني فأقول له أنا أكتب رواية.. وصار يتركني لحالي.. بل صار يسألني عن الرواية ومتى انتهي منها.. لأنها ستجعلني ثرية.. وسنجني مالاً من وراء الرواية.. وحينما كنت أقول له إنني مبتدئة..، كان يقولي لي اتركي الأمر عليّ.. فهو سيجعلني نجمة في عالم الأدب.. كان يتشمم رائحة المال فيعرف من أية جهة يأتي.. لذلك حين سلمته مخطوطة حبيبي بعد أن وضعت اسمي عليها.. وجد لها ناشراً.. ووقّع معه عقداً.. طبعاً بعد أن وكلته أنا كل الأمور التي تخص العقد.. المهم صدرت الرواية.. وعمل هو لها حملة إعلانية كبيرة.. وبيعت

منها عشرات الآلاف من النسخ.. لكني لست الكاتبة!..

لـم يكـن آدم المسـكين يدري مـاذا يفعل، وماذا يقول لهـا، فقد أحس وكأنه متشنج الفكين.. مخدر اللسان.. بالكاد تمتم بكلمات غير مترابطة:

- لكن.. اعلانات.. مقابلات.. تلفزيون.. ندوات أدبية حول الرواية..

نظـرت إليـه وكأنها تريد أن تعرف ماذا يدور في رأسـه. فجأة.. تعالت ضجة وصوت صراخ لامرأة في الممر. نهض آدم المسكين والحقيبة في يده وكأنها جزء منه، وخرج مسـرعاً.. لم يغادر الجناح.. وإنما فتح الباب وأطل برأسـه ناظراً في الممر. كان الممر خاليا.. حتى الأشخاص الذين كانوا موجودين حينما دخلا إلى الجناح قد اختفوا.. بقي قرب الباب لدقائق محدّقاً من جهتي الممر لكن لا إشارة لأي كائن ولا صوت غير صوت الصمت.

أغلق الباب. وحين التفت راجعا لم يرَ أحداً في الجناح.. بل اختفت المكتبة كلهـا.. ولـم يجد أمامه سـوى غرفة عادية لا تختلف عـن غرفته في الطابق الثالث حيث لا أثر لتلك الأبهة والأناقة في الأثاث.. وسمع صوت انهمار ماء وكان هناك من يستحم تحت الدش.. اقترب بحذر من باب الحمام الذي بدا له مفتوحا قليلاً ونظـر مـن خلالـه، فرأى امرأة عاريـة تحت الدش، ظهرها إليه.. جسـدها المثير.. فجأة..؛ حانت منها التفاتة نحو الباب فرأته، تقابلت عيونهما.. اندهش حينما بدت له حواء الدلو وفي الوقت نفسه حواء الصوفي.. صاحت هي بصوت متوجس:

- من هناك..؟

فزّ حواء المسكين على صوتها الخائف المتوجس، أحس بالخجل والخوف معاً.. غادر الغرفة بسرعة.. غالقا الباب خلفه بقوة.

الفصل السادس

حواء النمرود.. ورائحة النقود

حين صار آدم المسكين في ممر الطابق الثالث أخذ يفكر بما حدث في الطابق السابع.. شعر بأن ما يراه ويمر به ليس سوى كابوسٍ غامض..، لا يجد له تفسيراً..، فهذا الخروج عن منطق الفيزياء والمنطق الواقعي لا يحدث إلّا في الأحلام والكوابيس، وفي السينما وألعاب الفيديو.. فالمسافات تُلغى وتتغير الأمكنة خلال ثانية، وتتحرك الأشياء خارج المنطق والتتابع.. كل هذا يدفعه إلى قناعة أقرب لليقين والمنطق هو أنه يعيش في المنام.. وأنه نائم بلا شك.. وهو يحلم، بل هو يعيش كابوساً..!.. ومع نفسه فكر أن يستمر في هذه الحكاية بكل غرائبيتها، دون أن يوجع رأسه بالأسئلة عمّا يجري.. وما دام هو الآن وجد نفسه في دور محدد فعليه الاستمرار فيه.. لكنه يعرف أنه كائن مسكون بالأسئلة ولا يمكنه أن لايطرح الأسئلة مهما وعد نفسه بأن يكفّ عن ذلك!..

فجأة، وجد نفسه ينتقل بالتفكير إلى ما جرى له قبل قليل..، فما عرفه من حواء الصوفي أفقده الثقة بكل العالم الثقافي في البلاد.. عالم المثل والقيم والفكر الذي ينتمي هو إليه..!.. أية خديعة كان يعيش..!! وأية تصورات ساذجة كانت لديه عن هؤلاء الأدباء والمثقفين..!!.. ووجد الخواطر تنهمر على ذهنه: أترى كلما ازدادت ثقافة المرء وتميزت مكانته وإمكانياته، ازداد خبثا وحيلة ووحشية!!؟؟ أليست الثقافة في جوهرها هو من الفعل (ثقف)..، أي برى وصقل الشيء، وبمعنى أوسع فهي تربية وتهذيب للنفس!!؟؟ فما بال هؤلاء صاروا كالذئاب الضارية..!!.. بل وكأنهم في مهرجان للأقنعة سيء التنظيم..؟؟ ثم.. ما قصة إدارة البنك التي اختلقت قصة "الحقيبة" المليئة بالمبالغ..؟ كيف سيكون مصير الناس إذا كان

القائمون على حفظ أموالهم.. الذين يحرسون خزائنهم هم اللصوص والمحتالون على القوانين التي شرّعت لتنظيم السرقة..!!.. لكنه من جانب آخر كان هادئا في ما يخص آدم ذوالنون، فهو الآن على يقين من أنه ليس صاحب الحقيبة.!..

فكّر مع نفسه بأن عليه أن يغادر هذا الفندق الغامض، على الرغم من الأمان الذي يحسه فيه، لكن كيف يغادره وهو لم يحل مشكلته مع هابيل السفاح.!.

****

حين دخل غرفته أخذ ينظر إليها بتمعن.. وكأنه يفتش عن شيء غير عادي غاب عنها، أو شيء غامض نُصب فيها. وضع الحقيبة الجلدية على طاولة المكتب. فتح الثلاجة وأخذ علبة صغيرة من عصير التفاح.

انبثق في ذهنه مشهد مرآة المصعد وعدم ظهور الحقيبة في يده عندما نظر فيها.. انزعج من حضور هذا المشهد في ذهنه. نظر الى الحقيبة.. ارتشف قليلا من العصير. وضع العلبة على الطاولة التي أمامه، ونهض متجها إلى حيث الحقيبة.

جلس على الكرسي حول الطاولة. فتح الحقيبة، مدّ يده وأخذ يُخرج منها رزم الدولارات. كلما كان يخرج رزمة كان الهدوء يمتد داخله مثلما تتمدد وتتداخل غيوم الربيع البيض. كانت رزم النقود واقعية وحقيقية وليست وهماً كما تريد المرآة أن تقول له!..

نظر إلى المرآة التي أمامه والملتصقة بالطاولة من جهة الحائط.. لم تكن الرزم المالية ظاهرة فيها..! لم يستفزه هذا الأمر ما دامت الرزم المالية أمامه موجودة ويراها بل ويلمسها بيده، وللتأكد رفع رزمة من الدولارات، أخذ يتشممها، فشعر برائحة الحبر الخاص الذي تم استخدامه عند الطباعة، كانت الرائحة طيبة.. مخدرة!. فكّر مع نفسه بأن للنقود رائحة طيبة..! ابتسم مع نفسه لهذا الاكتشاف.!..

رن الهاتف في الغرفة. فزّ من تداعياته.. نهض إلى حيث الهاتف.. أخذ السماعة، فجاء صوت موظف الاستعلامات يطلب منه فتح التلفزيون على قناة " **استراحة مفيستو**" الإخبارية.

لم يفهم طبيعة الاتصال..، إذا أن المتصل لم يعرف بنفسه ولم يحييه كالعادة، بل ولم يقل له شيئاً خاصاً، وإنما تحدث وكأنما يبلغ إعلاناً للجميع.. وربما هو فعلا اتصل بجميع نزلاء الفندق، ليبلغهم بمشاهدة قناة الفندق الخاصة بالأخبار..!.

سأل نفسه وهو يضغط على الريمونت كونترول.. " ربما لم يكن هذا هو موظف الاستعلامات..؟ فهؤلاء يتمتعون بلسان حلو ودبلوماسي وناعم.. وهذا كان صوته آلياً، بارداً، آمراً."!..

توقف عن الفكير بشخص المتصل.. إذ شدّ انتباهه ما كان يسمع ويرى على الشاشة، ضغط على زر الصوت ليعلي منه، فضجّت الغرفة بصوت المذيع الذي كان شكله نسخة من مدير الفندق.. جلس على الصوفا ليستمع إليه وهو يبث خبره المهم:

- **سيداتي الحواءات، سادتي الأوادم.. مشاهدي قناة " استراحة مفيستو" الإخبارية.. ننقل إليكم تفاصيل جديدة عن عملية اختطاف الأستاذ آدم الطيار المحامي من مكتبه، وذلك من خلال اللقاء المباشر مع زوجته السيدة حواء النمرود وابنه قابيل آدم الطيار.. اللذين شرفانا باللقاء معهما.. والآن ننتقل معكم إلى حيث يجري اللقاء.**

فجأة انتقل البث إلى قاعة مختلفة لا تشبه اللوبي في الفندق حيث جرى اللقاء الأول.. كانت الصورة أولا للصحفي آدم الضائع الذي يجري اللقاء، وهو الصحفي نفسه الذي أجرى اللقاء مع حواء الصوفي..، تحدث الصحفي عن عملية الاختطاف وقدّم السيدة حواء النمرود، فانتقلت الكاميرا في لقطة عامة لهما، حيث ذهل آدم المسكين لرؤية السيدة حواء النمرود، لأناقتها وشكلها المثير، وشبهها الكبير بحواء الصوفي وبحواء الدلو.. وابنها الذي كان يشبهه هو.. بل كان الابن في عمر قريب منه.. وربما يصغره بعامين أو ثلاثة..

فكّر آدم المسكين مع نفسه :" لماذا كل النساء اللاتي يراهن متشابهات، وكذلك الرجال..؟؟".. ولم يسترسل في تفكيره، فالكاميرا ركزت في لقطة كبيرة على وجه السيدة حواء النمرود، التي أخذت تروي التفاصيل الجديدة حول

اختطاف زوجها قائلة بحزنٍ شفيف، لكن لا يعرف لماذا شعر بأن حزنها ليس حقيقياً:

- كلكم تعرفون زوجي الأستاذ آدم الطيار المحامي.. فهو من أشهر المحامين في البلاد، كما معروف عنه أنه يتصدى للفاسدين ويكشف عن الملفات المزيفة والمليئة بالوثائق المزورة التي تستخدم لتمرير أكثر الصفقات شبهة في السرقة وفي التشويه السياسي بين الأحزاب والشخصيات المتصارعة.. ولا غرابة أن يكون لديه عدد من الأعداء من ذوي النفوذ.. وكما تناقلت وسائل الاعلام.. من صحافة وتلفزيون عن تفاصيل عملية الاختطاف.. ولا أخفي سراً إذا ما قلت بأن الشكوك تحوم حول أشخاص في مكتبه كانوا ينسقون مع الجهات التي قامت بالاختطاف.. وهذا ما كشف عنه المحقق المكلف بمتابعة القضية لوسائل الإعلام أيضاً.. والغريب أنني تلقيت اتصالاً من الخاطفين يطلبون فيه مبلغا قدره ستمائة ألف دولار، على أن يكون برزم تحوي كل منها إثني عشر ألفاً من الدولارات ومن فئة المئة دولار.. وأن توضع في حقيبة جلدية..

هنا جاء صوت الصحفي الذي يجري اللقاء فقط دون أن يظهر صوته مقاطعاً، إذ بقيت الكاميرا متركزة على وجه حواء النمرود:

- وهل حددوا لك كيفية التسليم ومكانه..!؟
- نعم.. قالوا بأن عليّ أن أجيء وحدي.. وأن لا أبلّغ الجهات الرسمية بأي شيء، وألاّ ستكون العاقبة وخيمة.. لأنهم سيقتلونه!..
- إلى أين كان عليك أن تذهبي لتسليم المبلغ..!؟
- إلى المقبرة.. المقبرة التي هي ليست ببعيدة عن " استراحة مفيستو.."
- وماذا أيضاً..
- عليّ أن أضع الحقيبة هناك.. لكنهم لم يحددوا لي المكان بالضبط.. وقالوا بأنهم سيتصلون..
- وهل قمت بذلك..؟

- لا طبعاً..
- ألا تعتقدين أنك بتصريحاتك هذه تكونين قد عجلت بموت زوجك..؟ الخاطفون طلبوا منك أن لا تبلغي الجهات المختصة.. وهددوا بقتله إذا ما فعلت ذلك، وحتى لو افترضنا جدلا أنك أخبرت الجهات المختصة، أليس من المنطقي أن تبقي هذا سراً ولا تكشفيه للإعلام كما تفعلين الآن.. ألا يعني ذلك أنك تقومين بمخاطرة..
- الجهات المسؤولة هم الذين نصحوني بإعلان ذلك..
- لماذا..؟
- أولاً إن المبلغ كبير.. وليس من السهولة الحصول عليه إلّا بالذهاب إلى البنك.. لذلك فربما سيكون ذلك وسيلة ضغط عليهم.. وربما حينها سيطلب الخاطفون مبلغاً أقل.. إلى جانب أنني لا أثق بهم.. وأيضاً لأنني وابني..

لم يستطع آدم المسكين أن يتحمل متابعة هذه المعلومات أكثر.. فأطفأ التلفزيون.

شعر آدم المسكين بقطرات عرق بارد تجمعت على صدغه.. هي تتحدث عن تفاصيل لم تحدث بعد.. لكنها حدثت قبل يوم يومين.. حينما ذهب مساء إلى المقبرة.. وعثر على الجثة بالقرب من قبر والديه، وبجانبها الحقيبة الجلدية المليئة بالمبلغ الذي حددته ووصفته بالضبط..!!؟؟..

لقد جرى كل ما قالت إنهم طلبوه منها ولم تنفذه.... فالحقيبة لديه، فكيف هي تتحدث الآن.. الآن وفي هذه اللحظة.. وبعد يومين من عثوره على الحقيبة.. بأن ذلك لم يحدث.. وأنها لم تحصل على المبلغ بعد..!!.. لا بد وهناك شيء ما غير دقيق.. علي أن التقي بها وأحدثها عن الأمر.. هناك سر في هذه الحكاية.!..

نهض عن الصوفا وهو متحمس للقاء هذه السيدة الباهرة الفتنة. لكنه فكر للحظة مع نفسه بأنه يريد أن يلتقيها وحدها من دون حضور ابنها..! كيف له ذلك.. وأين سيجدها..!؟ فمكان اللقاء ليس اللوبي.. عليه عن يسأل عنها!..

توجه آدم المسكين إلى الطاولة التي عليها الحقيبة الجلدية.. أخذها.. لكنه

قبل أن يخرج دخل الحمام.. وهناك نظر إلى نفسه في المرآة.. انتبه إلى أنه نسخة من صورة ابن السيدة حواء النمرود.. استغرب.. لقد صغر سنتين أو ثلاث خلال لحظات.. هل هذا هو حقاً..؟ نعم.. فليس هناك من يقف أمام المرآة غيره..!.لكن كيف جرى ذلك..؟..

وضع الحقيبة جانبا.. أدار الحنفية على الجهة التي تشير إلى اللون الأزرق، فجرى الماء البارد.. غسل وجهه.. وحينما نظر إلى نفسه وجد أنه عاد آدم المسكين كما يعرف نفسه..!! مرر بكفه على شعره الكثّ.. حمل الحقيبة وغادر المكان.

****

انتظر آدم المسكين المصعد الذي كان يقف عن الطابق السابع.. ظل ينتظر لدقائق والمصعد لا يتحرك.. فوجد نفسه لا يطيق الانتظار أكثر، لذا توجه إلى السلّم، وهبط الطوابق الثلاثة على قدميه.

حين صار في الطابق الأرضي الذي فيه اللوبي ومكتب الاستعلامات لم يجد أحداً.. أراد أن يتوجه إلى مكتب الاستعلامات ليسأل عن مكان اللقاء، لكنه لمح الصحفي آدم الضائع يأتي من جهة الممر المقابل.

ابتسم الآخر حينما لمح آدم المسكين. لوّح له من مسافة بيده، فلوّح له آدم المسكين أيضا، وأشار له بالانتظار.. توقف الصحفي قبل أن يدخل إلى غرفة جانبية.. فقطع آدم المسكين المسافة بينهما بسرعة أشبه بالهرولة!..

حين وصل إليه كان الصحفي آدم الضائع يبتسم وكأنه يخمّن ماذا سيسأله آدم المسكين، وفعلاً ما أن وصل حتى سأله الصحفي:

- أهلا أستاذ آدم.. كيف لي أن أخدمك..؟

ارتبك آدم المسكين من نبرة الصحفي اللطيفة، فسأله:

- لقد تابعت اللقاء بينك وبين السيدة حواء النمرود.. وما صرحّت به عن مطالب المختطفين..

نظر الصحفي آدم الضائع إليه بتساؤل، وقال:

- أي لقاء..؟ أنا لم ألتق بالسيدة حواء النمرود.. وإنما بالكاتبة حواء الصوفي.. وكنتَ أنتَ موجوداً!..

فوجئ آدم المسكين بجواب الصحفي.. صمت لثوان مستغرباً، ثم قال:

- لكني قبل قليل شاهدت اللقاء يبث بشكل مباشر من قناة " استراحة مفيستو" الإخبارية.. وكانت هي مع ابنها قابيل..

ارتبك الصحفي.. وقال وهو يتفرّس في وجه آدم المسكين بتساؤل:

- أنا لم ألتق بها بعد.. اتفقنا على اللقاء.. لكننا لم نبدأ به.. ربما سأجريه في وقت لاحق..، فهي نزيلة فندقنا أيضاً.. وتعيش في الطابق السابع.. وبالمناسبة.. قابيل ليس ابنها.. وإنما ابن زوجها المحامي آدم الطيار..

- لكنني رأيت اللقاء بعيني.. كانت هي وابنها يجلسان وأنت بالمقابل منهما..

فقاطعه الصحفي قائلاً بإصرار:

- وأنا أؤكد لك بأني لم أجر أي لقاء معها.. كما أن قابيل، ابن زوجها، تعرض لإنهيار عصبي حين عرف باختطاف والده.. وهي الآن وحدها في جناحها.. ويمكنك التأكد من ذلك.. أطلب جناحها 33 في الطابق السابع وستجيبك بنفسها عن أي استفسار.. أو حتى يمكنك الذهاب إليها.. نحن نعرف أنك تريد حل لغز الحقيبة.. فهذا ما أخبرنا به سعادة الأستاذ آدم آدم مدير فندق " استراحة مفيستو.."

قال ذلك وهو يقبض على أكرة الباب الذي يقفان قربه.. ابتسم لآدم المسكين قائلاً وهو يدخل فاتحاً الباب بهدوء:

- اتمنى لك حظاً سعيداً...إذهب إليها ولا تتردد.. وحقق ما في نفسك.. ففي فندق " استراحة مفيستو" كل شيء مباح ومنطقي ومعقول..

دخل الصحفي آدم الضائع الغرفة. بقيَ آدم المسكين ضائعاً في تفاصيل هذا الحوار القصير، مستعيداً جملة الصحفي الأخيرة.. :" إذهب إليها ولا تتردد.. حقق ما في نفسك.. ففي فندق " استراحة مفيستو" كل شيء مباح ومنطقي ومعقول.. ".. ماذا يقصد..؟ هل يعرف ما في نفسه..؟ هل يعرف عن رغبته في أن يضاجعها..؟

أم هو يقصد رغبته في معرفة لغز الحقيبة..؟.

تحرك راجعاً نحو الممر الذي في الجهة التي أتى منها.. وقف أمام المصعد الذي ما أن صار أمامه حتى فتح بابه وكأن هناك عينا سحرية لمحت وصوله.

****

كان المصعد ضيقاً قياسا للمصاعد الأخرى. تعجب مما يرى.. فهو يعرف هذا المصعد الواسع بحيث يستوعب في حدود العشرة اشخاص.. لكن أن يصغر ويتحول إلى مصعد لشخصين أمر يثير الحيرة.. لكنه تذكر أنه وعد نفسه ألّا يفكر بغوامض هذا الفندق العجيب.

ضغط على الزر رقم 7. أُغلق باب المصعد. لكن المصعد لم يتحرك. ضغط مرة أخرى إلّا أن المصعد لم يتحرك.. فجأة، فُتح باب المصعد.. فانتبه إلى أن الممر المقابل ليس هو ممر الطابق الأرضي.. فكر مع نفسه بأن المصعد لم يتحرك أبداً فكيف صار في الطابق السابع..! أتراه لم ينتبه لحركته السريعة..؟.

تحرك خارجاً قليلا.. فوجد أنه في جناح أنيق جداً.. وردي اللون.. انتبه إلى لافتة برونزية لامعة مقابل المصعد كُتب عليها " الطابق السابع ".. خرج من المصعد..

انتبه إلى أن الطابق يختلف عن الطابق الذي تعيش فيه حواء الصوفي.. علما أنها تعيش في الطابق السابع أيضاً.. هنا كانت الإضاءة أقوى.. وبجانب كل باب ثمة منضدة صغيرة عليها باقة من الورد.. وهناك موسيقى رومانسية تنطلق من أجهزة موضوعة في السقف.. موسيقى ناعمة تبعث الطمأنينة في النفس.. التفت يساراً فوجد أن الجناح 33 مقابل المصعد، لكن كان من جهة اليسار قليلاً.!..

خرج آدم المسكين من المصعد بتردد. تأكد من أن الجناح 33 على مقربة منه من جهة اليسار. قرأ على لوح نحاسي مستطيل اسم "المحامي آدم الطيار". صار أمام الباب الصندلي العريض.. وبيد مترددة أراد أن يضغط على جرس الباب.. وقبل أن يضغط على الجرس فُتح الباب، ووجد نفسه أمام السيدة حواء النمرود

بكل فتنتها الطاغية. ابتسمت له، قائلة:

- أهلا وسهلا أستاذ آدم.. تفضل.

انسحبت جانبا فدخل مرتبكاً. أغلقت الباب، ثم سارت أمامه. وجد آدم المسكين نفسه في جناح جميل يبعث في النفس شعوراً مريحاً. صالون أنيق مؤثث بطاقم من المقاعد والصوفات العريضة، وفي الزوايا مزهريات صينية كبيرة جداً، تُعد تحفاً فنية.. واحدة زرقاء عالية وكبيرة بحيث تتسع لشخص أن يدخل فيها، فيها كل تدرجات اللون الأزرق،من الأزرق القاتم إلى اللون اللازوردي، ومزهرية أخرى عالية وكبيرة الحجم أرجوانية اللون، فيها تدرجات لونية تصل إلى البنفسجي والوردي الباهت الأقرب للبياض.. ومزهرية ثالثة صفراء يتدرج اللون فيها من الكركمي إلى الأصفر المبيض.!..

السيدة حواء النمرود بدت أيضاً وكأنها لوحة باهرة.. فهي في ثوب أبيض في تدرج ينحو إلى البيجي، مزين بورود حمراء ووردية.. ثوب ضيق نوعا ما، يبرز تقاسيم جسدها الرشيق. وبرغم أنها كانت في الخمسين من عمرها كما قرأ عنها في الصحف، إلّا أنها تبدو أصغر سناً.

كان هو مرتبكاً. تفحصته بنظرات امرأة مجربة. امرأة جريئة تصل جرأتها إلى حدود الوقاحة. ويبدو أنها كانت مستمتعة بارتباكه أمامها.. لكنه رفع وجهه نحوها ونظر إليها، فارتبكت لحظتها.. ابتسمت بخفر لا يتناسب مع نظراتها الجريئة قبل لحظات وقالت له:

- لقد اتصل بي الأستاذ آدم.. الصحفي في قناة " استراحة مفيستو " الإخبارية.. وأخبرني بأنك شاهدت اللقاء الذي أجراه هو معي.. ولديك بعض الأسئلة والاستفسارات التي تريد استيضاحها مني.. وأنك تريد رؤيتي.. وافقت.. وأنا مستعدة للإجابة على أي استفسار.. تفضل.

دهش هو مما سمع، فسألها مستغرباً:

- أجرى معك لقاء تلفزيونيا..!؟

نظرت إليه باستغراب وقالت:

- نعم.. قبل قليل انتهينا منه.. وبُث على القناة بشكل مباشر.

فسأل بدهشة أيضاً:

- وكان معك ابنك قابيل..؟

- لا.. قابيل لم يكن معي.. لقد تعرض إلى إنهيارعصبي بعد سماعه خبر اختطاف والده.. وبالمناسبة.. هو ليس ابني وإنما ابن زوجي..

- لكن الصحفي.،الذي الآن عرفت منك بأن اسمه آدم أيضا..، قال إنه لم يجر أي لقاء معك.!..

نظرت إليه للحظات بصمت، ثم قالت بهدوء وعناد:

- وأنا أقول لك إنه أجرى اللقاء معي، وبُث على شاشة قناة الفندق الإخبارية.. ولك أن تصدق أي منّا أو تكذبه.. أنت حر.!..

صمت آدم المسكين للحظات. أحس بأن شعاعاً من الدفء ينبعث من شخصية حواء النمرود.. واستغرب ارتباط اسمها بالطغيان.. شعر بالأمان وهو يحدثها، فقال بتلقائية:

- أنا شاهدت اللقاء.. لكن كان معك ابنك.. وأنت تقولين إنه غير موجود..

نظرت إليه وقالت بنبرة جادة:

- هو ليس ابني.. إنه ابن زوجي.. وبالماسبة أنكما تتشابهان جداً.. لذلك ارتاحت لك نفسي.. فأنا افتقده الآن.. احتاجه في هذه اللحظات بالذات.. لكنه لم يكن موجوداً في اللقاء..

فتمتم آدم المسكين وكأنه يحدث نفسه:

- عجيب..

ارتسمت على وجه حواء النمرود ابتسامة غامضة. مدّت يدها إلى قنينة زجاجية فيها شراب أخضر كانت مع قناني أخرى على الطاولة التي بينهما، وحولهما أقداح صغيرة من الكريستال.. رفعت الفلينة عن رأس القنينة وصبت في قدحين كريستاليين صغيرين من الشراب الأخضر اللون.. ومدّت له أحدهما

ورفعت الآخر وهي تقول:

- هذا شراب إيطالي من عصير اللوز.. لكيور.. غير مسكر.. نسبة الكحول فيه 12٪ فقط.. طيب جداً.. ذقه.. هو يريّح النفس..

وارتشفا ما في الكأسين الصغيرين رشفة واحدة. أحس هو بطعم لذيذ وبخدر ألذ يسري في أعماقه. كانت هي تنظر إلى وجهه لتعرف ردود فعله وتأثير رشفة الشراب عليه.. وحينما وجدته مسترخياً صبّت في القدحين الفارغين مرة أخرى مباشرة.. ومرة أخرى ارتشفا شراب اللوز المسكر.. وهذه المرة ارتسمت ملامح الابتهاج على وجهه.. ويبدوأن توتره العصبي خلال هذين اليومين أنهكه.. إذ بان تأثير هاتين الرشفتين عليه مباشرة..؛ فقد أحس بالدفء والاسترخاء.. وبرغبة في الكلام.. وبجرأة في أن يعبّر عن نفسه وأفكاره.. وأن يسألها دون تردد.

في تلك اللحظات التفت لا إرادياً إلى طاولة قريبة جذبته بشكل غامض، إذ رأى مجموعة من الكتب المصفوفة فوق بعضها لم يستطع أن يتبين عناوينها، ظل للحظات مركزاً بصره عليها عسى أن يتعرف على عنوان أي منها، لكن دون جدوى.. انتبهت هي إلى انجذابه للكتب المصفوفة على الطاولة، فقالت بهدوء موضحة:

- هذه كتبي التي أقرأ فيها في فترة واحد.. فأنا أقرأ كتباً مختلفة في الوقت نفسه.. أبدأ في رواية مثلا.. وفي كتاب عن الأخلاق والنفس البشرية.. وآخر عن عالم الرواح.. وديوان شعر.. وقضايا في الأنوثة.. وهكذا.. واضح أنت ممن يعشق القراءة.. أليسَ كذلك..؟

أشرق وجهه والتمعت عيناه.. لم يصدق أن تكون هذه المرأة الفاتنة امرأة بهذا العمق، موسوعية في قراءتها.. فقال لها:

- نعم.. نعم.. أنا عالق في هذا العالم مثل ذبابة في شبكة عنكبوت.. عالم الكتب هو عالمي الحقيقي.. عالم المثل والأفكار السامية..

قال ذلك واستذكر حواء الصوفي.. فارتسم ظل من الحزن على وجهه، فتلك الكاتبة المزيفة حظيت بشهرة بارقة عن رواية لم تكتبها. لمحت حواء النمرود ظل

الحزن الذي مرّ على وجهه.. وقالت بخبرة المرأة المجرّبة:

- أحياناً تكون الأشياء السامية ليست سوى أوهام مقدسة.. بل وكثيراً ما تكون أوهاماً مدمرة.. وإيّاك الذهاب بعيداً في عالَم الفكر، فأحياناً ضوء العقل يعمي الناظر إليه من شدّته..! والأفكار كالأعشاب.. ثمة أعشاب ضارة، سامة وقاتلة.. وأعشاب نافعة، يكون فيها الدواء..!.فإما أن تسترشد بحكمة من سبقوك، ليدلوك على الأعشاب النافعة.. وإما عليك أن تجرب بعض الأعشاب الضارة أيضاً، بحيث يصير لديك مناعة على سمها مع مرور الوقت..

كان آدم المسكين منبهراً بطريقتها في الكلام، فقال لها بنبرة إعجاب واضحة:

- حين رأيتك في اللقاء التلفزيوني لم أفكر أنك إنسانة عميقة لهذه الدرجة.. تصورتك امرأة فاتنة.. و

توقف آدم المسكين عن الاسترسال إذ أمسك نفسه عن الكلام، فابتسمت له وكأنها تشجعه على الإفصاح عما في ذهنه، وقالت له بابتسامة مليئة بالغواية:

- و.و. ماذا.. أكمل.. لا تتردد..؟

- فكرت أنك نمرودة.. طاغية.. متعالية.. تحبين الهيمنة على الرجل.. وأنك من نوع تلك النساء حينما تشعر بأنها هيمنت على الرجل، وأنه صار ضعيفاً أمامها، تهمله وتلقي به في الغياب..! وأنك امرأة مغامرة.. تمتزج فيك الجاذبية الجنسية مع الرومانسية في الوقت نفسه.. امرأة شبقة ونهمة لا تشبع.. ومحتشمة في الوقت نفسه..

كانت تنظر إلى وجهه الذي توهج بشعاع رغبة غامضة دفينة، عرفتها بحدسها الأنثوي، فقالت له بتلقائية وحرارة، وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد:

- ربما قلتَ ما لم تود وتتجرأ على قوله والإفصاح عنه مباشرة.. فليس هذا ما أردتَ قوله.. لذا تلاعبتَ باللغة.. أنا يا صديقي امرأة مغامرة.. لكن مغامراتي قليلة.. لكنها برغم ذلك مغامرات جبارة.. ومعظم مغامراتي تدور في رأسي.. لكن المغامرة نفسها، أية مغامرة، حينما تعتاد عليها تتحول إلى

روتين ممل وضجر قاتل.. حتى تلك المغامرات التي تجري في الرأس.. إنني أرى الإعجاب، والذهول، والشبق، والشغف، في عيون الرجال.. وأرى الغيرة ونظرات الاستهانة في عيون النساء.. إلّا أن ذلك لا يؤثر في نفسي أبداً.. فأنا أعرف أنني لست تلك التي ينظرون إليها.. كما أنا لا أغار.. ولا أنغّص على نفسي بما أفتقده.. بل إنني لا أفتقد شيئاً مما يفتقده الآخرون.. وسأتعب لو بقيت أفكر بكيفية تفكير الناس عني رأيهم فيّ.. أو أنفقت وقتي وتفكيري في السعي للحصول على رضاهم..!!.. وبرغم هذا فأنا لستُ سعيدة.. ربما أنا لستُ تعيسة.. لكني بالتأكيد لستُ سعيدة.. إنني كما يُقال عني " سيدة محترمة".. لكن هذا اللقب هو سجن وضعت فيه.. إذ صرتُ لا إرادياً لا أسمح لنفسي، لاسيما حينما أكون مع زوجي، أو مع قابيل ابنه، أن أمنح ابتسامة عابرة لشخص أعجبني!!..

كان آدم المسكين ينصتُ لها وكأنه أمام امرأة ليست واقعية، وإنما من نساء الروايات، فهذه الفتنة الطاغية، والإشعاع الجنسي المثير، يكشفان عن امرأة تعي ذاتها الجريحة، لكن جملتها الأخيرة، أثارته.. فإذا كان زوجها يغار عليها مفهوماً، فلماذا يغار قابيل ابن زوجها عليها بحيث لا تستطيع أن تبتسم بحرية لأحد عابر!..

كانت هي تنظر إليه وكأنها تستقرئ أفكاره، وفجأة، وعلى غير انتظار سألته:

- الآن اخبرني.. ماذا تريد أن تستوضحه مني..؟

ارتبك آدم المسكين.. أحس وكأنها صبّت على رأسه جردلاً مليئا بالماء البارد المثلج.. أين كان وأين صار..!! يا لها من امرأة مزاجية..!!قال لنفسه.. ولم يجد بدّاً من الرجوع إلى مسألة الحقيبة، لكنه كان قد قرر في أعماقه الحديث عنها وعن أعماقها مرة اخرى، فقال:

- لقد تحدثتِ عن الحقيبة.. وعن المبلغ الذي طلبه الخاطفون.. وحددتهِ.. وحددتِ المكان أيضاً..

- نعم..

- لكنك لم تقومي بذلك!..

- لا لم أقم بذلك.. ولم أحقق مطالبهم..
- لكن ربما لا تعلمين بأنه تم العثور على الحقيبة.. وفي المقبرة.. وفيها المبلغ نفسه.. والغريب في الأمر أن ذلك جرى قبل أن يكون هناك اختطاف اصلاً..

نظرت إليه متفحصة، شحب لونها، وارتعشت عضلات قريبة من شفتيها، وقالت:

- هذا غير ممكن.. من قال ذلك..

نظر إليها وشعر بارتباكها الأقرب للإنهيار، فأحس بشيء غامض وراء ذلك، فقال:

- بلى.. قبل يومين تم العثور على تلك الحقيبة..

ألقت هي نظرة على الحقيبة التي يضعها بجانبه.. بدا عليها الارتباك أكثر، ونظرت إليه متسائلة وقالت:

- يعني أنت تعرف ما جرى له.. ومن ساهم في ذلك..؟

نظر إليها نظرة غامضة، وأراد أن يقول لها إنه رأى الجثة مقطوعة الرأس لكنه أجّل قول ذلك، فأجاب بشكل غامض وغير واضح:

- نعم..

فجأة غطت وجهها بكفيها، وبقيت للحظات على ذلك الوضع، ثم رفعت كفيها عن وجهها، وكأنها كانت قد صممت على توضيح كل شيء، وقالت:

- ما دمتَ تعرف كل شيء.. سأوضح الأمر من وجهة نظري وكما جرت الأمور..
- أنا استمع لك..

كان آدم المسكين ينتظر أن توضح له كيف وصلت الحقيبة إلى المقبرة دون أن يأخذها المختطفون، إلّا أنه لم يكن يتوقع بأنها فهمت إجابته بأنه مطّلع على أسرار أخرى لم تطرأ في ذهنه، وأنه سيستمع إلى قصة أخرى بالكامل، فقد أخذت تتحدث وكأنها تقدم اعترافاً:

- كل شيء بدأ بالرغبة.. وانتهى بالرغبة.. والرغبة قادت إلى الانتقام..
- الانتقام..؟ كيف..؟..
- كنا قد تزوجنا منذ عشرين عاماً.. كان هو مطلقاً.. لديه ابن وحيد.. في الثالثة من عمره.. التقينا ذات مساء في ندوة ثقافية.. دعاني.. قبلت دعوته.. وتحدثنا.. أعجبتني ثقافته وأعجبه جسدي قبل عقلي.. لكني قايضت ثقافته بجسدي.. ولم أخسر كثيراً.. فقد عشت معه مرتاحة.. سواء من ناحية وضعه المادي أو من ناحية الجو الثقافي والفكري ودائرة الأصدقاء المحيطين به.. وخلال سنواته الأولى ساعدته كثيراً، ووفرت له ولابنه جواً بيتياً مريحاً.. لم أخنه جنسياً، ولم أفضل عليه أحد من المحيطين به.. على الرغم من أنني تعرضت لغزل ومطاردة أعزّ أصدقائه، المهم.. حافظت على نفسي وجسدي..

خلال سنوات قليلة تطورَ عمله.. وصار شهيراً.. وتوسع مكتبه.. لكنه أخذ يبتعد.. كنت في أول الأمر أعتقد بأن ذلك من ضرورات العمل وبسبب كثرة معاملاته والقضايا التي يتوكل فيها ويدافع عن مصالح أصحابها.. فتحملّت هذا البعد والإهمال.. إذ لم نعد نلتقي إلّا لماماً.. بل أحيانا كان يأتي ليلاً فيراني في غرفة الصغير قابيل.. قابيل الذي كبر أمام عيني.. قابيل الذي كنت أحممه عارياً.. لكن بمرور السنين كان ينمو.. ويكبر.. وحينما بلغ سن المراهقة أخذ يبتعد عن البيت.. بل وصار يبحث عن أمه الحقيقية المطلقة، بل صار يبتعد عني، وكأنه يعتبرني السبب في طلاق والديه، علما هو يعرف أنني تزوجت أباه وهو طفل صغير في الثالثة..!!

بموازاة هذا امتدت المسافة بيني وبين زوجي آدم الطيار المحامي.. حتى صرنا لسنا كزوجين، وإنما كصديقين.. ومرت الأيام والشهور.. وصار قابيل شاباً جميلاً.. يفيض رجولة.. لكنه صار يتجنبني.. إلى أن قرأت ذات مرة، وقبل سنتين في إحدى الصحف الفضائحية عن علاقته بسكرتيرته.. ونشرت الصحيفة لهما مجموعة من الصور في حفلات ومطاعم أو وهما يرقصان أويحضنان بعضهما،

ثم أخذت الصحف تنشر عن فضائح عاطفية وجنسية عن علاقاته مع نساء أوكلنه قضايا لهن.. وهكذا.. فأحسست بالإهانة.. لكنني إنسانة مسالمة.. ولا أحب العنف..

كان آدم المسكين منذهلا بما سمعه، لقد أدرك بأنه كان هو يقصد الحقيبة حينما قال بأنه يعرف كل شيء، بينما هي كانت تقصد أنه يعرف بقصتها الغريبة التي لم يستمع لها حتى النهاية بعد، فقال لها بنبرة غامضة:

- أكملي.. إنني استمع لك..

نظرت إليه، وواصلت وكأنه غير موجود وتدلي باعتراف للأشباح:

- بعد أن واجهته بما قرأت.. أخذ يتحجج لي بأن كل ذلك هي إشاعات من أعدائه لتشويه صورته غيرة من نجاحاته المهنية.. أو أنها محاولات من الجهات التي تخسر قضاياها أمامه.. فيحاولون تشويه صورته وفبركة الصور.. المهم.. صرنا نعيش غرباء في البيت الواحد.. وخلال كل هذا الوقت كان قابيل يكبر.. صار شاباً جميلاً..، يفيض رجولة.. لكنه صار يتجنبني.. وصارت علاقتي به غريبة وغامضة.. فقد انتبهت إلى أنه أخذ ينظر إليّ نظرات مليئة بالرغبة.. لكني لم أفسر الأمر سوى باعتباره من سلوكيات المراهقة..

بعد مشاكلي مع زوجي طلبت منه أن أسافر.. وافق.. لكنه اقترح عليّ أن أسافر إلى منطقة جبلية.. لكن ليس وحدي وإنما مع قابيل.. وافقت.. فقد فكرت بأنها فرصة لإعادة التواصل مع قابيل الذي صار شاباً وسيماً.. وأيضاً كنت أخاف أن أكون وحدي.. وهكذا سافرنا.. وهناك أحسست أن هذا الوضع العائلي الذي عشته وأعيشه منحني شعوراً بإدراك قيمة الحياة والعمر والوجود.. و دفعني لإعادة النظر في وضعي وتصوراتي الأخلاقية وتفاهة معنى التزامي بها..

لا أعرف كيف أشرح ذلك.. فأحيانا تتراكم تفاصيل صغيرة.. صغيرة.. لا نعيرها انتباها؛ لكنها تتراكم لتشكل منعطفاً في حياتنا وسلوكنا.. المهم.. أجرّنا بيتاً على الجبل.. كنا نقضي النهار نتفسح في الجبال والوديان.. ونقضي فترات الغذاء

في المطاعم البسيطة والأنيقة على الطرقات والمنعطفات الجبلية..

وذات يوم نزلنا إلى مدينة مجاورة للمكان الذي تعيش فيه.. تمشيّنا في شوراعها.. جلسنا في مقاهيها.. دخلنا محلاً للملابس الجاهزة.. رأيت ثوباً أعجبني.. لكني لم أشترِه لسبب لا أذكره الآن.. المهم.. جلسنا في مقهى قريب من ذلك المحل.. أجلسني هناك.. وقال إنه سيعود بعد قليل.. وغاب قليلاً، ثم عاد وهو يحمل ذلك الثوب الجميل.. المهم.. في ذلك المساء.. أخذنا معنا عشاء من المشاوي اللذيذة والمقبلات الشهية.. وحين وصلنا كان المساء قد غمر الجبال بعتمته.. تعشينا.. ولم انتبه له حينما أخرج قنينة نبيذ.. لا أعرف متى اشتراها.. المهم.. شربنا بعد تردد من قبلي.. وحين انهينا القنينة الأولى طلب مني أن أجرّب الثوب.. لم أتردد.. كنت مسترخية ومبتهجة.. وكنت سعيدة لأنه اشترى لي الثوب.. لكن الثوب كان يكشف أكثر مما يستر.. وحينما عدتُ إلى الغرفة، رأيته قد فتح قنينة نبيذ ثانية.. لا أدري من أين أتى بها..!!وكأنه كان يخطط لهذه السهرة.. المهم.. شربنا.. كنت سعيدة معه.. كدتّ أريد أن أنسى.. النسيان أكثر أهمية لنا من التذكر.. لذلك أردت أن أنسى من خلال النبيذ، فكنت أعبّ الكأس حتى آخره.. وبعد لحظات وضع موسيقى وسحبني للرقص.. لا أعرف.. فبعد لحظات أحسست بأنفاسه عند أذني..وجسده الساخن الفتي يلتصق بي، وشعرت بالدفء اللذيذ، والهياج يشعل دمي.. وفجأة ضمني إليه.. وحين رفعت رأسي إليه مستفسرة عن حركته تلك، التهم شفتيّ بقبلة حارة.. وأخذتْ يده تجول في أنحائي وبراكيني الفوّارة.. ولم أجد نفسي إلا وهو يأخذني إلى السرير في الغرفة المجاور.. ويخترقني.. كل شيء جرى خلال دقائق معدودة.. لا أعرف ماذا جرى بعد ذلك..

صباحا حينما استيقظت وجدته مستيقظاً قبلي يتأملني وهو مستلق إلى جانبي في السرير.. وحينما انتبه لنظرة الفزع في عينيّ.. احتضنني.. ولم يمنحني فرصة للإعتراض أو قول أي شيء.. إذ أخذني مرة أخرى.. لحظتها أحسست أنني أسقط في هاوية بلا قرار.. لكن شعورا بالراحة غمرني.. فأنا انتقمت من إهمال زوجي لي لسنوات.. انتقام جرى بالمصادفة..

ولـم يمـض ذلك دون شـعور بالذنـب.. لكني أخذت أبحث عـن التبريرات لنفسي بأن قابيل ليس ابني.. لكن شعوراً بالذنب كان أيضا يرافقني ويحاصرني.. فقررت أن أقطع سـفرتي وأعود.. وهذا ما جرى.. لكن الأمر ازداد توترا ومتعة.. إذ صار قابيل أكثر إلحاحا في مضاجعتي.. بل كان وكأنه يتحدى والده.. أو ينتقم مني نيابة عن أمه.. فقد كان يأتي إليّ بينما والده في مكتبه.. يقبلني أو يطلب مني أن أريه شيئاً مخفيا من جسدي.. أو أفعل له شيئاً فاضحاً.. بل صار يغار عليّ من والده.. ويعتبرني ملكه وحده.. إلى أن حدثت الكارثة..

- أية كارثة..؟ سأل آدم المسكين بتردد.

نظـرتْ إليـه دون أن تتوقـف للإجابـة، وإنما واصلت، فقد كانـت الذكريات مهيمنة عليها:

- كنـت ذات يـوم خارجـة مـن الحمـام بعـد خروج زوجـي بقليـل.. كنت في المطبخ.. وإذا بقابيل يأتيني من الخلف.. احتضنني.. وبدا يقبلني نازعا عني برنس الحمام.. ويدفع بي إلى طاولة الطعام.. وفي تلك اللحظات بالذات.. التفتُّ.. فرأيت زوجي منذهلاً، واقفا عند باب المطبخ.. كان قد نسـي شـيئاً فعاد ليأخذه.. وليأخذ هدوء حياتي معه.. لم يقل شـيئاً.. بل كان بارداً برود الثلج.. لكنه طلب منا الجلوس.. وقال بالحرف الواحد.. إنه يستطيع أن يقتلنا ويخرج من فعلته بسهولة.. لكنه يطلب منا تنفيذ خطة له.. لقد قايضنا بخطة محكمـة.. وهـي أن يرسـل هو مجموعة ممن يعرفهـم.. وكأنهم يختطفونه.. وأن عليّ الإدعاء بأن الخاطفين طلبوا مبلغا ما كفدية من أجل تحريره.. هو نفسه حدد المبلغ.. وبما أن لديه ضمانات وبوليصات تأمين على كل شيء.. فسيحصل على المبلغ بسهولة.. وسيختفي هو إلى أن أحصل على المبلغ.. ثم أدّعي أنني سلمته إلى الخاطفين..

فتمتم آدم المسكين بذهول:

- يعني أنه لم يختطف..؟

- لا

- وإنك لم تسلمي الحقيبة..؟
- لا..
- يعني لو أنه كان مخطوفا حقاً، فأنكِ بتصريحك اليوم، وكشفك لمطالب المختطفين ستحكمين عليه بالإعدام.. لأنك قلت بأنهم طلبوا منك عدم إخبار الجهات الرسمية!..
- نعم...لكنه لم يختطف.. وهي لعبة هو لعبها..
- والمبلغ..؟
- تم سحبه من شركات التأمين طبعاً..
- وأين المبلغ..؟
- عند قابيل..؟
- لكن قابيل مصاب بانهيار عصبي..
- هذه خطة أخرى بيننا أنا وقابيل..
- كيف..؟
- بكشفي عن مطالب المختطفين بأن لا أخبر عن الجهات الرسمية.. أكون قد أخلفت بوعدي.. وسيقومون بوعدهم..
- أي قتله..!!؟
- يفترض ..منطقيا هكذا..
- لكنك قلت إن السيد آدم الطيار مختف.. وغير مختطف.. والخاطفون المفترضون هم من معارفه وهو الذي جندهم ..يعني لن يكون هناك قتل..
- نعم..
- إذن.. كيف سيقتلونه..؟
- قابيل سيقوم بما يفترض للمختطفين القيام به..

نظر آدم المسكين بعينين مليئتين بالخوف والدهشة وقال:

- أن يقتل أباه..؟

- نعم..

- ويستولي على زوجته..

- نعم

- إذن هو لم يُختطف!..

- لا..

- وماذا عن كل هذا الذي يُثار من أمور في الإعلام.. والرأي العام والناس.. والعدالة..

- العدالة..؟ هههه...إنها عمياء.. مجنونة.. كالانتقام..

- وأنتِ..

- ماذا أنا..؟ أنا كبش فداء.. أنا بريئة ومذنبة في اللحظة نفسها..

نظر آدم المسكين مذهولاً وكأنه يرى ميدوزا برأسها الذي تخرج منه الأفاعي، وقال بخوف:

- كلنا كذلك..

نظرت إليه وكأنها تقرأ ما يدور في رأسه عنها، فقالت له بنبرة آمرة:

- هل انتهيت من أسئلتك..؟

- لم تعد لدي أسئلة..

- طيب.. مع السلامة!..

ارتبك آدم المسكين من طريقتها في انهاء الحوار. حيرّته مزاجية هذه المرأة التي تبدو في غاية الرقة وفي لحظة تتحول إلى كتلة من التوتر وحب الهيمنة والطغيان والوقاحة.. امرأة تقودها إرادة حاقدة.. إرادة شكّلها الفقدان.. إرادة جذوتها المعاناة والعزلة والشبق الذي لا يرتوي.. إمرأة تعشق من يسيطر عليها بقوة.. وتستلذ بالعنف والتعذيب وحتى الإهانة.. وفي الوقت نفسه تعشق إهانة الرجال والانتقام منهم.. والتذلل للعشيق.

نهض خجلاً من طريقتها في إنهاء الحوار معه ولنبرتها المليئة بالإستهانة

والإستخفاف.. وفي طريقه لمغادرة الجناح راوده حنين إلى جارته حواء الدلو الطيبة والمعطاء.

لم تتحرك هي من مكانها، بل ظلت جالسة تنظر إليه ساخرة من مثالياته وسذاجته، بينما أغلق هو الباب خلفه كأنه تخلص من شبكة عنبكوت.

الفصل السابع

حواء المسافر..

حين خرج آدم المسكين من جناح السيدة حواء النمرود كان منكسر النفس بسبب وقاحة هذه المرأة المتسلطة، القاتلة، المثقفة، والأنيقة، القاسية والجارحة مثل نتوءات ثلجية مسننة. شعر بالذل من طريقة تعاملها الفج معه، لكن عزاءه كان في أن المحامي آدم الطيار ليس صاحب الحقيبة، ولا صاحب الجثة المقطوعة الرأس.

وقف أمام المصعد. سمع لهاثا شبقا يأتي من غرف وأجنحة في الطابق.. وصراخ لنساء يتم ضربهن، وأصوات لهاث لرجل.. وأصوات لسياط تشق الهواء بقوة وسرعة.. وتعالى صهيل لجياد وحمحمة.. كل هذا أخذ يتداخل مع أصوات طبول بدأت خافتة ثم علت حتى على أصوات الصراخ واللهاث.

أخذ يضغط على زر المصعد النازل بتكرار وعجلة وكأنه يريد الفرار من هذا المكان.. لكن المصعد لم يصل.. ظل ضاغطاً على الزر دون أن يرفع إصبعه عنه.. إلى أن وصل المصعد وفتح الباب.

حين دخله انتبه أنه في كابينة مصعد ليس نفسها التي صعد بها إلى الطابق السابع.. وقبل أن يضغط على زر الطابق الثالث حيث غرفته، فُتح باب المصعد..! واجهه الصحفي آدم الضائع وهو متوتر الأعصاب قليلاً.. ظن آدم المسكين انه لا يزال في الطابق نفسه.. لكنه انتبه إلى أن الأصوات الغريبة المتداخلة، أصوات اللهاث الشبق وصهيل الجياد وهزيم السياط وقرع الطبول قد اختفت كلها.. وأن خلفية جدران الطابق التي أمامه ليست هي نفسها في الطابق السابع..

ظل الصحفي آدم الضائع واقفا لا يدخل، بل تنحى جانبا ليخرج هو من

المصعد، استغرب آدم المسكين وسأل:

- في أي طابق نحن..؟ سأل آدم المسكين.

- الطابق الأرضي أستاذ آدم.. ومن حسن حظي أنك وصلت الآن في هذه اللحظة المناسبة.. لتخلصنا من ورطة نحن فيها.. كنت أفكر فيك..

خرج آدم المسكين من المصعد مندهشاً، وهو لا يفهم كيف صار في الطابق الأرضي، وما هي الورطة التي يتحدث عنها هذا الصحفي، وكيف سيخلصهم هو، بينما هو نفسه يجد نفسه في ورطة لا مخرج منها.

- هل يمكنني أن أتحدث معك أستاذ آدم..؟ سأل الصحفي آدم.

- بلا شك.. لكن في ماذا..؟ وعن أي شيء..؟ أجابه آدم المسكين بتردد.

لم يوضح الصحفي آدم الضائع شيئاً، وإنما نظر إلى آدم المسكين بامتنان وقال وهو يتنحى جانبا ليتيح له المرور متجهين إلى اللوبي:

- تفضل لنجلس أولا.. وسأحكي لك كل شيء.. وبالمناسبة.. فإن ما أحدثك به يفيدك في بحثك أيضاً.

شعر آدم المسكين بفضول جامح يجتاحه. تبعه محاولاً أن يسير إلى جانبه.. وحين وصلا إلى اللوبي الذي كان خالياً من نزلاء الفندق كالعادة، أشار الصحفي له بأن يجلس على كرسي حول طاولة مستديرة، وجلس هو على كرسي مقابله.

مرّت لحظات صمت متوتر بينهما. كان آدم المسكين ينتظر أن يبدأ الصحفي آدم الضائع بالكلام، والصحفي كان يريد أن يمنح نفسه بعض الأهمية من خلال تصعيد توتر وفضول آدم المسكين، لكن كان لا بد في النهاية من أن يبدأ الكلام، فقال بنبرة من يضفي على قوله الأهمية والسرية:

- أستاذ آدم.. خلال تواجدك مع السيدة حواء النمرود.. وصلت الفندق امرأتان.. وأرادتا أن أجري معهما لقاءً صحفيا.. أرادتا أن تتحدثا عن اختطاف زوجيهما.. إحداهما شابة في منتصف الثلاثين اسمها حواء المسافر، تبدو وكأنها ابنة المرأة الأولى للشبه الكبير بينهما..، وأوضحت الأولى بأن زوجها آدم المسافرلا مهنة محددة لديه.. وعاطل عن العمل، وربما يوزع

المخـدرات.. هـي تخمن ذلك..!.. أما الأخرى فاسـمها حواء الأعمى.. في الواحدة والخمسين من العمر.. وهي حقوقية لكنها انفقت معظم جهودها في نشـاطات مدنية ومنظمات حقوق الإنسـان، وفي الاجتماعات والتظاهرات.. وهي زوجة رجل كان في منصب إداري جيد اسمه آدم عين الحياة.. غضبت السلطات الغامضة التي في الأعالي عليه، لنشاطه المدني المشبوه مع زوجته، فنقلوه إلى قسـم المحاسـبة.. وأخيرا أُتهم بسرقة مبلغ يوازي مليون دولار.. وتم اختطافه من بيته فجر اليوم.. وقد جاءت زوجته حواء الأعمى، التي هي في الخمسين من العمر.. لتتحدث على الهواء عن هذه الواقعة..

كان آدم المسـكين يسـتمع بانتبـاه شـديد، ومـا أثاره حقـا أن كلا الرجلين قد اختطفا.. لكنه لم يفهم لحد الآن الورطة التي تحدث عنها الصحفي، فسأل:

- طيب...كيف يمكنني أن أساعدكم.. أنا لا أجد أية ورطة في الأمر!..

قرّب الصحفي قسمه الأعلى من آدم المسكين وقال هامساً:

- المدير الأسـتاذ آدم آدم لا يريد أن تظهرا على شاشـة قناة " اسـتراحة مفيسـتو " الإخباريـة.. فالأولـى فقيـرة وزوجها من ذوي السـوابق ومروج مخدرات، والثانية غير مرضي عنها لنشاطاتها المدنية في لجان حقوق الإنسان.. ناهيك عـن عـدم الرضـا والغضب من زوجها.. لذلك لا أحد يضمن ما تقول إذا ما صارت على الهواء.. فربما ستثير الراي العام!..

تذكر آدم المسكين هذا الاسم: حواء الأعمى.. شاهدها في ندوة تلفزيوني.. وبدت محافظة جداً.. ويتذكر الآن أنه اسـتنكر تحفظها المبالغ فيه، برغم مواقفها المحمودة في الدفاع عن حقوق الإنسان.. لكنه يتذكر جيداً أنها امرأة مثيرة حقاً.. نظر آدم المسكين إليه بتساؤل وقال:

- وما المطلوب مني..؟

تراجـع الصحفي إلى كرسـيه واسـترخى قليلا.. ظل صامتـا للحظات، وكأنه يفكر كيف يقنع آدم المسكين بما يريده منه.. نظر إليه بتركيز، وقال:

- أن تلتقي أنت بهما.. وتستفسـر منهما عن كل شـيء تود معرفته.. وفي نفس

الوقت تشعرهما بأن اللقاء بك أجدى من الظهور على شاشة التلفزيون... لاسيما حواء الأعمى..

- وأين هما الآن..؟

- أجلسنا كل واحدة في غرفة منفردة في الجهة الأخرى.. في الممر المقابل.. ويمكنني أن أقودك إليهما.. وسنكون في غاية الامتنان لك لو خلصتنا من هذه الورطة.. لاسيما مع حواء الأعمى.. إفعل كل ما لديك من مواهب لتلجمها.!..

- لم أفهمك.. ماذا تقصد بأن استخدم كل ما أملك من مواهب كي ألجمها..؟

نظر الصحفي آدم المسكين نحوه وابتسم له ابتسامة ذات دلالة، وقال:

- هي امرأة مثيرة جداً.. ومثقفة جداً.. لكنها هشة برغم صلابتها الظاهرة..

- ثم ماذا..؟.. معظم البشر هكذا..

- يريد المدير أن تعيدها إلى صوابها.. أن تقنعها بلا جدوى أن تظهر على الشاشة..

- كيف لي أن أقنعها بعدم الظهور على الشاشة إذا كانت هي مقتنعة بذلك..

- استخدم مواهبك..

- لا مواهب لدي لتغيير قناعات الناس!..

- يا أستاذ آدم.. أنت تريد أن توضح أمر الحقيبة التي وجدتها في المقبرة.. وصاحبها.. وها هي الفرصة أمامك لتعمل بهدوء.. وتستشف بطريقتك المعلومات التي تريد..

صمت آدم المسكين للحظة متفكراً مع نفسه، ثم قال:

- ..لنذهب إليهما.

استرخت أسارير الصحفي آدم الضائع، ونهض مباشرة. توجها إلى الممر الذي يقابل اللوبي.. و حين صار آدم المسكين وسط المساحة المقابلة لمكتب الاستعلامات، لم يجد أحداً.. وإنما ظهرت صورة المدير العام وكأنها مجسمة..

ابتسمت له ابتسامة خاصة. أحس آدم المسكين بنظرات المدير وكأنها تحفزه على اللقاء بالمرأتين..

انتبه إلى أن الصحفي قد وصل إلى باب إحدى الغرف.. مشى إليه مسرعاً وهو يحمل حقيبته الجلدية.

****

انتبه آدم المسكين إلى امرأة مذعورة تجلس بانكسار في الغرفة المهيبة. وانتبه إلى أنها تشبه حواء الصوفي في الشكل وتتقارب معها في العمر.. لكنها تبدو أكثر بساطة منها في الملابس، بل يمكن القول بأن ملابسهما تكشف عن بساطة حياتها وضعف إمكانياتها المادية..

كان الصحفي آدم الضائع يريد مغادرة الغرفة بأي شكل، لذلك أسرع في تقديم آدم المسكين بنبرة احتفالية مبالغ فيها، قائلا:

- هذا هو الأستاذ آدم المسكين المكلف بالبحث عن أسرار الاختطافات التي جرت اليوم.. وهو الذي سيتحدث معك عن اختطاف زوجك.. وسيستمع لكل كلمة منك.. على أن تكوني معه صادقة.. وتنفذي ما يطلبه منك.. أي شيء يطلبه منك مهما كان صعباً عليك.. لأنه في النهاية سيصب في مصلحتك.. وأنا بدوري سأغادركما الآن..

وما أن أنهى آخر جملة حتى نظر إلى آدم المسكين نظرة فيها الكثير من الامتنان مع ابتسامة ذات مغزى يفهمها الرجال حينما يبقون وحدهم مع امرأة في مكان مغلق.

****

جلس آدم المسكين على الصوفا المجاورة للمقعد الذي تجلس عليه المرأة.. كانا كلاهما مرتبكين..، إلّا أن آدم المسكين استمد شجاعته من التقديم الاحتفالي الذي قام به الصحفي آدم الضائع، فتشجّع لأخذ زمام الحديث، لكنه لم يكن

يعرف من أين يبدأ، فقال مرتبكا وهو يحاول أن يبدو متماسكا:

- حدثيني عن قصتك.. من أنت..؟ من هو زوجك..؟ وكيف اختطف..؟ ومتى..؟ ولماذا..؟

كانت المرأة الثلاثينية الجميلة خافضة وجهها إلى الأرض وهي تسمع كلامه، بينما كان هو خلال ذلك يتأمل تقاسيم وجهها الأنيقة والموحية بشبق جنسي جذبه إليها.. فبدأت كلامها وهي خافضة الرأس، وشيئاً فشيئاً أخذت ترفع رأسها وتنظر إليه:

- أنا حواء المسافر، 33 سنة.. أم لطفلين الأول صبي اسمه قابيل في السابعة من العمر والآخر هابيل وعمره 3 سنوات.. وأنا زوجة آدم المسافر.. الذي مضى على اختطافه أكثر من أسبوع..

نظر إليها آدم المسكين باستغراب وقال بنبرة منفعلة:

- منذ أكثر من أسبوع..؟

نظرت في وجهه، منتبهة لنبرة التعاطف المكتومة في سؤاله، وقالت:

- نعم.. منذ أكثر من أسبوع.. وقد راجعت دوائر الشرطة، لكنهم طردوني ولم يسجلوا دعوتي.. بل إن أحد الضبّاط أراد أن يغتصبني في غرفته.. لولا أن دخل عليه أحدهم ليخبره بوصول مسؤول أعلى رتبة منه.. واليوم حينما رأيت الزوجتين الغنيتين اللتين كانتا على شاشة قناة "استراحة مفيستو" الإخبارية قررت المجيء لأعلن عن اختطاف زوجي أيضاً..

صمتتْ حواء المسافر للحظات، وكأنها كانت تتوقع منه أن يسألها..، وفعلاً، بعد لحظات من الصمت سألها آدم المسكين:

- ما هي مهنة زوجك..؟.. ولماذ تم اختطافه.. بل وكيف حدث ذلك..؟

خفضت حواء المسافر رأسها إلى الأرض مرتبكة، وقالت بنبرة خجولة:

- لا مهنة محددة له..

- كيف لا مهنة له..؟.. كيف كنتم تعيشون..؟

صمتت حواء المسافر للحظات، ثم رفعت رأسها والدموع تترقرق في عينيها وقالت:

- وهل تعتقد أننا كنا نعيش..؟

- لم أفهم..؟

نظرت إليه.. حاولت أن تسبر غور الرجل الذي يجلس بالقرب منها..، أحسّت أنها أمام إنسان رقيق القلب.. لا يوحي بالرهبة والخوف، فتشجعت في البوح، وقالت له وهي تنظر إليه:

- هل تعرف معنى أن تحتاج إلى لقمة تطعم بها أطفالك ونفسك.. ليس أقول هذا من باب المبالغة.. وإنما أتحدث بشكل واقعي وحقيقي.. لم يكن لدينا طعام في البيت في الكثير من الأحيان.. فزوجي خريج جامعي.. تزوجنا حينما كان هو في سنته الأخيرة.. وطبعا ليس برضى أهله.. لذلك قاطعنا أهله.. وعشنا أنا وهو في غرفة بسيطة مستأجرة.. وبعد تخرجه كنا نعتقد بأن أزمتنا قد انفكّت.. لكن يبدو أن للحياة مفاجئات غير سارة كالعادة.. فقد بحث زوجي آدم المسافر عن فرصة عمل مهما كانت وفي أي مجال.. لكن مع الأسف كانت جهوده لا تخلف لنا سوى المزيد من التوتر والخيبة والمشاكل النفسية.. أنت يا أستاذ لا تعرف معنى أن تعيش لشهر على الخبز والشاي.. وفي أحسن الأحوال على شوربة العدس.. أو على قطعة صغيرة من الحلاوة الطحينية مع رغيف من الخبز...وبرغم ذلك مطلوب منك أن تبتسم في وجه الجيران والناس كي تبين أنك سعيد، وأنك لست أقل منهم شأناً.

صمت آدم المسكين للحظات، وقال بنبرة فيها تأثر واضح:

- ومن أين كنتم تحصلون على المال أصلاً إذا كان لا يعمل..؟ وكيف كنتم تدفعون الإيجار..؟

صمتت للحظات وكأنها تحاول أن تتذكر أو تفكر في إجابة مقنعة، ثم قالت:

- صدقّني لا أعرف من أين كان زوجي يأتي بالنقود القليلة من أجل تيسير

أمورنا.. لاسيما وأنا صرت حاملاً بابني قابيل.. اتذكر أنه عمل حارساً في مشرحة.. لكن صار لا يستطيع النوم.. حياته تحولت إلى كوابيس، فترك العمل بعد شهر.. ثم صار يقرأ القرآن في مقابر المسلمين.. حيث يزور البعض قبور موتاهم.. لكنه ترك العمل هناك بعد أن فاجأه أحد أصدقائه من فترة الجامعة، إذ أنه كان يزور قبر والده مصادفة، فسأل عن قارئ يتلو القرآن عند قبر والده، فدلوه على القارئ الذي اتضح أنه زوجي.. وكان ذلك الموقف صادماً لزوجي فترك تلك المهنة.. وبعد ولادة ابننا قابيل عمل حارساً في خان يضم مخازن لحفظ الأقمشة وصفائح الزيت والتمور.. ولكن سوء الحظ كان يلاحقه.. فنتيجة صراعات التجار في ما بينهم أرسلوا من يُشعل النار في الخان سراً.. واحترقت الأقمشة والتمور وتفجرت صفائح الزيت.. وسُجن زوجي لمدة شهر على أثر ذلك.. ولكن لم تثبت عليه أية تهمة أو شبهة حول علاقته بالحريق فأطلقوا سراحه، إلّا أنهم طردوه من عمله أيضا.. ثم عمل مع..

وصمتت دون أن تكمل.. خفضت رأسها باستحياء.. نظر آدم المسكين إليها متأملاً حزنها الشفيف الذي منحها شيئاً من السمو، فسألها بنبرة مرتجفة:

- ثم عمل مع من..؟ وماذ عمل..؟

لم ترفع رأسها وإنما واصلت بأسى:

- عمل مع آخرين في نزح المراحيض..

- لم أفهم...!.

رفعت رأسها وقالت موضحة:

- نحن نعيش في منطقة فقيرة في أطراف المدينة.. بيوت تعيش فيها عوائل عديدة تتكدس في الغرف كالجرذان.. حوض الماء الذي تنتصب وسطه حنفية الماء يكون مشتركاً لجميع العوائل.. والمرحاض نقف عند بابه كل صباح في طابور.. مرحاض مفتوح الفم.. تنبعث منه الروائح الكريهة التي تكشف عن تفاهة البشر.. فليس هناك من بين جميع المخلوقات التي تتبرز

من تجد غائطه أكثر جيفة وإثارة للإشمئزاز من غائط وخراء الإنسان.. وفي هذه الجيفة وجد زوجي آدم المسافر نفسه عالقاً.. ومضطراً للعمل في تنظيف المرافق.. لكن هذه المهنة حوّلت حياتنا إلى جيفة.. فقد كان المسكين يتحمم يوميا.. لكن رائحة الغائط ظلت عالقة به.. فلم يستحمل العمل في هذه المهنية أكثر من ستة أشهر.. إلى أن فتح الله عليه بأن وجد وظيفة محاسب عند تاجر بالجملة.. تاجر استيراد وتصدير للسجائر والتبوغ..

بقي في هذه الوظيفة لأكثر من ثلاث سنوات عرفنا فيها شيئاً من الاستقرار المادي والنفسي.. وخلال تلك الفترة حملت بابني الثاني هابيل.. وبرغم أن المسؤوليات ازدادت على عاتق زوجي، إلّا أنه رفض أن يتصالح مع أهله ما لم يعلنوا موافقتهم على زواجنا.. ولا أعرف لِمَ كانت الحياة قاسية معه إلى هذا الحد وكأنها تعاقبه على جرم لم يقترفه..

كان واضحا أن آدم المسكين قد تماهى مع قصة حواء المسافر وتأثر بها، لذا وجد نفسه يسأل لا إرادياً:

- كيف..؟

انتبهت لتأثره، وشعرت بنفسها قريبة من هذا الشخص الغريب الذي يفيض رقة وهو يستمع لمعاناتها، فقالت:

- كما أخبرت حضرتك..، فقد عمل محاسباً عند أحد تجار الجملة.. وكان ذلك التاجر يعاني من مشاكل مع ابنه الوحيد الذي كان مدمناً على المخدرات.. وكانا يتشاجران دائما وأمام الناس.. ويبدو أن الابن كان يمر بأزمة مالية.. لذلك استغفل زوجي أو استغفل والده بطريقة ما.. فسرق مفتاح الخزنة من أحدهما.. وكما أخبرني زوجي بعد أن وقعت المصيبة.. بأنه لا يترك مفتاحه أبداً...وإنما ربما الابن سرق مفتاح والده.. وتسلسل إلى المحل ليلاً.. وسرق من الخزنة إثني عشر ألف دولار.. المهم.. بعد أن كشف زوجي الحساب لصاحب المحل كالعادة اتضح النقص.. وتم اتهام زوجي بذلك.. وقضى زوجي في السجن أكثر من سنة..

كان آدم المسكين برغم تأثره بقصة حواء المسافر، إلا أنه لم يجد بين كل ما روته وبين الحقيبة المليئة بالمال والجثة وزوجها أي رابط، لكنه أراد الاستمرار في تتبع الحكاية، ومعرفة لغز الاختطاف، فسألها:

- وأنت كيف عشت خلال هذه الفترة..؟

صمتت للحظات وكأنها تسعيد ذكرياتها، وقالت:

- حين اعتقلوا زوجي بهذه التهمة الباطلة لم أجد سوى أن أتقبل الذل والهوان والإهانة من أجل زوجي وأطفالي، فذهبت إلى أهله الميسوري الحال، أطلب منهم التدخل.. وعلى الأقل مساعدة حفيديهما.. إلا أن الحقد أحيانا يعمي القلوب ويسمم الفكر.. هل تعرف أيها السيد معنى أن ينقص وزنك عشرة كيلوغرام خلال اسبوعين، فيتحول جسدك إلى هيكل عظمي يكسوه جلد شاحب.. لقد رفض أهله مساعدتنا.. طلبت منهم أخذ الأطفال إليهم لينعموا بطعام جيد على الأقل.. لكنهم رفضوا ذلك أيضاً..

- وأهلك..؟ لماذا لم تتوجهي لأهلك..؟

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها وقالت:

- أنا ولدت لعائلة فقيرة؛ بل معدمة.. ولا أعرف شيئا عن طفولتي.. أقصد لم أعرف معنى الطفولة.. قضيت حياتي في خدمة الآخرين.. في خدمة الجيران..، وفي مساعدة أمي التي كانت تعمل في هرس شدات التبغ وتنقيته لتجار التبوغ في المدينة.. وبعد سنتين..، حين كنت في السادسة من عمري.. انتقلت روح أمي إلى بارئها.. أما أبي فتحول إلى سكير مدمن، وجدوه ذات يوم مختنقاً في بالوعة للمجاري سقط فيها اثناء ترنحه من السكر الشديد.. لذا عشت عند خالتي.. التي كانت أرملة ولديها ابنتان.. عشت سنوات صباي ومراهقتي كالخادمة لهم.. لم أكمل سوى الدراسة المتوسطة.. إلّا أن الحياة كانت كريمة معي حينما هيأت لي لقاءً مع حبيبي آدم المسافر ذات يوم، لتربط بيننا علاقة حب، تنتهي بالتحدي والزواج، لذا يمكن القول إنه لا أحد لديّ كي أتوجه إليه حينما كان زوجي في السجن..

صمت آدم المسكين للحظات، ولم يجد، برغم كل ما سمعه، أية علاقة بين الاختطاف والحقيبة الجلدية في كل حديثها، فسألها:

- وكيف عشت أنت خلال هذه السنة.. كما أنك لم تخبريني لحد الآن لماذا تم اختطاف زوجك..؟ وكيف..؟

ارتبكت حواء المسافر..، وبعد لحظات من الصمت قالت:

- خلال سجن زوجي بقيت وحيدة، لكني وجدت عملا في البيت نفسه الذي كنا نستأجر غرفة فيه.. حيث كان أحد جيراننا أرمل عجوز.. مريض.. طريح الفراش.. طلب مني خدمته.. مقابل مبلغ بالكاد يكفي لإطعام الصغيرين ودفع الإيجار.. عشنا أشهراً من الجوع.. كنت آكل فتات ما يتبقى من طعام الصغيرين.. لكن بعد خروج زوجي.. طلب مني الامتناع عن خدمة الرجل.. وذلك لأن الرجل بعد أن تعافى قليلاً وتوهجت جذوة الحياة فيه، أخذ ينظر إليّ بشهوة انتبه لها زوجي..

بعد خروجه من السجن سعى زوجي لايجاد عمل، لكن لا أحد يقبل به،لاسيما بعد أن صار لديه سجل سوابق وصحيفة أعمال كُتب فيها أنه كان في السجن بتهمة السرقة وخيانة الأمانة.. لكني أقسم لك أنه كان بريئاً من كل ما نُسب إليه....

قبل ثلاثة أشهر أخذ زوجي يأتي بالطعام الوفير إلى البيت.. وحينما كنت أسأله كان يجيبني بأنه يعمل ساعياً لنقل أشياء معينة.. فيحصل على مبلغ ما.. وهكذا أخذت تظهر في جيوبه الأوراق النقدية التي كنا نراها في منامنا فقط.. بل إنه صار قادراً على استئجار غرفتين في الدار نفسها.. واحدة لنا وأخرى للأطفال.. وذات ليلة جاء خائفا.. كان ذلك قبل أسبوع.. وبالتحديد في ليلة اختطافه.. انتبهتُ لذلك فسألته عن سبب ارتباكه وخوفه وقلقه.. فقال لي إنه مقبل على صفقة العمر.. وإنها ضربة عظيمة أما ستعلو به إلى فوق النجوم، أو تهوي به في أعماق الهاوية.. حينها تمنّيت له أن تعلو به الصفقة إلى أعالي النجوم وفوقها.. لكني لم أعرف ما هي الصفقة..!!؟.. لم أنم الليل كله.. كنت أحلم بالحياة فوق النجوم.. كان هو قلقاً..

لم ينم.. وحينما ألححت عليه أكثر في الكشف عن الصفقة.. أخبرني بأنها صفقة مواد يتعاطاها البعض ليريحوا أنفسهم من هموم الدنيا.. وأن عليه نقل حقيبة فيها ستمائة ألف دولار من جهة إلى جهة، أي أنه وسيط في الصفقة.. لا أكثر.. لكن فجراً.. اقتحم المنزل الكبير عدد من الرجال الذين كانوا يغطون وجوههم بقناع متشابه.. دخلوا الى غرفتنا مباشرة.. وأخذوا زوجي معهم.. دون أن نعرف السبب أو التهمة.. فهم لم يقولوا شيئاً.. بل سحبوه من الفراش وأخذوه من الفراش عارياً إلّا من سرواله.. وحينما ذهبت للجهات الرسمية لم يستمع لي أحد..

نظر آدم المسكين إليها مستغرباً وسأل بانفعال:

- يعني أنه لم يحمل معه حقيبة فيها المبلغ الذي عليه نقله..؟
- لا طبعاً.. كان ينوي أن يقوم بذلك.. لكنه لم يلحق إلى فعل ذلك.. فقد تم اختطافه فجراً..
- هل أنت متأكدة بأنه لم يحمل إلى البيت حقيبة جلدية..

ثم فجأة أشار إلى الحقيبة الجلدية التي معه وقال:

- مثل هذه الحقيبة مثلاً.. ألم تشاهدي هذه الحقيبة يوما مع زوجك..؟
- لا طبعا.. قلت لك إن الرجال المقنعين أخذوه من الفراش عارياً إلّا من سرواله!..

صمت آدم المسكين للحظات. نظرت هي إليه، لكنه كان يفكر بأن آدم المسافر أيضا لا علاقة له بالحقيبة الجلدية.. وفجأة نظر إليها وسألها:

- وأنت كيف تعيشين الآن..؟
- لا أعرف.. البارحة هددتنا صاحبة البيت الذي نستأجر غرفتين منه بأن آخر موعد هو اليوم لتسليمها الإيجار المتأخر!..

صمت آدم المسكين. نظرت هي إليه منتظرة أن يقول شيئاً. كان هو ينظر إليها بوجه متوتر لكن يشع بالانفعال، ثم قال لها:

- اسمعي.. أنا لدي شقة.. سأكتب لك عنوانها.. تذهبين لتعيشي فيها مع طفليك..

مدّ يده إلى جيب بنطاله فأخرج أربعمائة من مبلغ السبعمائة دولار التي بقيت من رزمة النقود التي سدّد بها دين هابيل السفاح.. وقال:

- خذي هذا المبلغ.. يمكنك أن تسددي ما عليك من ديون.. وتطعمي نفسك وأولادك لحين ما انتهي أنا من مهمة عليّ انجازها هنا.. وسأجد لك حلا!..

وأخرج من جيبه مفتاحاً مدّه لها فأخذته بذهول دون أن تفهم شيئاً.. فقد تذكرت كلام الصحفي بالإستماع له وتنفيذ كل ما يطلبه.. بينما قام هو إلى الطاولة التي تتوسط الغرفة، فأخذ ورقة من دفتر الملاحظات، وكتب لها عنوان شقته.. وقف قربها.. مدّ لها العنوان قائلاً:

- هذا هو عنوان الشقة.. خذي أطفالك وما لديك من حاجات واذهبي على العنوان المكتوب.. فاذا قابلتك جارتي التي تسكن الشقة المقابلة وهي امرأة تشبهك جداً وكأنها أمك.. فقولي لها إنك ابنة خالتي.. ولا تتحدثي عن اختطاف زوجك.. ولا عن لقائنا هذا..

أرادت أن تمسك يده لتقبّلها، لكنه سحب يده دون أن يسمح لها القيام بتلك الحركة التي تعني له إذلالاً للإنسان إلّا إذا كانت من باب الإحترام. ثم قال لها:

- أنا سأذهب إلى الغرفة المجاورة.. فهناك امرأة أخرى تنتظر أيضاً.. سأراك قريباً.. لكن كوني مطمئنة.. وخذي راحتك في الشقة...اذهبي الآن وغادري هذا الفندق.

نهضتْ حواء المسافر مرتبكة.. وقد أحمر وجهها وأضاء، لكنها وقفت قرب الباب قبل أن تغادر.. التفتت نحوه.. وقالت:

ليحفظك البارئ..

وغادرت هي الغرفة. جلس آدم المسكين على الصوفا.. كان محتاجاً أن يعيد تنظيم كل ما سمعه.

****

مرت أكثر من خمس دقائق وآدم المسكين جالس في تلك الغرفة بعد مغادرة

حواء المسـافر. كان على يقين من أن زوجها آدم المسـافر ليس له علاقة بالحقيبة الجلديـة المليئـة بالنقـود.. وفكر في هذه المرأة المثيرة التـي عليها مواجهة الحياة مع طفلين.. وحدها.. وسـأل نفسـه إن كان تصرفه باعطائها مفتاح شـقته سليماً..؟ فهـو لا يعرفهـا إلّا منـذ لحظـات فكيف أتمنها على شـقته، لاسـيما وأنه لا يملك إلّا المفتاح الذي سـلّمه لها.. ومفتاحاً آخر موجوداً في الشـقة..؟.. وانتقد تسـرعه وعاطفيتـه التـي تضعـه فـي مواقف تقلقه فـي ما بعد..! لكنه أقنع نفسـه بأنها امرأة تستحق المساعدة مع طفليها.

فجأة، فُتح الباب ودخل الصحفي آدم الضائع، وعلى وجهه ابتسامة غامضة، وهو يقول:

- رأيتهـا خارجـة..؟ كيـف جـرتْ الأمور؟ أنـت تبلي بلاءً حسـناً.. لكن حواء المسـافر امـرأة بسـيطة.. مهمتـك الآن أصعب مع حـواء الأعمى.. عليك أن تبذل كل مواهبك.. فهي امرأة ماكرة!..

نظـر آدم المسـكين إليـه دون أن يجيبـه وكأنما يريد التحـدي بأن يذهبا إليها. نظر الصحفي إليه وقال مبتسماً:

- هل أنت مستعد..؟
- نعم.. لنمض إليها!..

قال آدم المسكين ذلك وغادرا الغرفة.

الفصل الثامن

حواء الأعمى

انتبه آدم المسكين إلى أن هذه الغرفة تبدو وكأنها جناح السيدة حواء النمرود بالضبط، لكنها في الطابق الأرضي وليس في الطابق السابع..، كما انتبه إلى أن السيدة حواء الأعمى كانت، وهي جالسة على صوفا وثيرة وأنيقة، مستغرقة في قراءة مجلة باللغة الإنكليزية، وبدت هادئة جداً لا يشغلها عما حولها شيء، لكنهما ما أن رأتهما حتى لبست قناع المرأة الشرسة، فاتقدت نظرتها بالغضب، وقالت بنبرة فيها تقريع وهجوم:

- ما هذه التصرفات الصبيانية والمتعالية التي تقومان بها!!.. أليس لديكما احترام للآخرين..؟ أليس لديكما شعور وإحساس بالوقت..؟ أنا هنا منذ أكثر من ساعة انتظر.. ووقتي ليس ملكي.. فكما تعرفان أنا لدي التزامات اجتماعية.. لقد أجّلت موعداً لي مع إحدى الصحف، وكذلك لدي بعد ساعة ونصف اجتماع آخر.. بينما أنتما تركتماني هنا في هذا المكان وحيدة انتظر..! عليكما قبل كل شيء تقديم اعتذار عن هذا التصرف غير اللائق!..

ارتبك آدم المسكين جداً، فقد أحس في اللحظات الأولى حينما دخل ورآها منهمكة بالقراءة، والهدوء يرتسم على وجهها، بأنه أمام سيدة رقيقة جداً، لكنه شعر بالارتباك حينما بدأت هجومها عليهما، ولم يكن يعرف أي وجه هو وجهها الحقيقي، حينما كانت تقرأ أم الآن وهي تتهجم عليهما.!..

إلّا أن الصحفي آدم ابتسم لها بدبلوماسية وتقرب منها وهو يُسمعها كلمات يعرف هو أنها تود أن تسمعها لترضي بها غرورها الأنثوي والشخصي، فقال:

- نحن في غاية الأسف إذ انشغلنا عنك كل هذا الوقت أستاذتنا الكبيرة حواء

الأعمى.. إنه لشرف كبير لنا أن تطأ قدماك أرض فندق " استراحة مفيستو" الذي يسعى إلى أن يليق بمقامك.... كما نحن نقدر كل دقيقة من وقتك الذهبي الذي تنذرينه من أجل حقوق الإنسان.. مواقفك النبيلة.. والشجاعة، والجريئة هي بالنسبة لنا، نبراس نهتدي به، بل ونتعلم منه معنى أن يكون الإنسان إنسانا.. لذلك أعذرينا وتقبلي منا بساتين الأسف وباقات الإحترام..

كان آدم المسكين ممتعظاً في أعماقة من هذا النفاق والتملق البغيض في كلمات هذا الصحفي، وسخر مع نفسه من هذه التعابير الإنشائية الساذجة (**بساتين الأسف وباقات الإحترام**).. ما هذا السخف..؟ ردد آدم المسكين مع نفسه، لكنه انتبه إلى ملامح السيدة حواء الأعمى كيف أخذت بالاسترخاء، ورقّت نظرتها، بل شعّت فرحا وتوهجا انفعالياً مكتوماً، وارتسمت علامات رضى غير معلن على وجهها المثير.. ثم قالت وهي تكتم ابتهاجا لهذا الكلام الذي سمعته:

- على أية حال.. سأتقبّل منكم اعتذاركم.. فأنا أيضاً أقدركم وأتابع جهودكم.. لذا فكّرت بالظهور على شاشة قناتكم الواسعة الإنتشار.. لكني لا أجد أي استعدادات من قبلكم لاجراء اللقاء معي، وأنتم تعرفون أنني ما جئت إلّا لهذه الغاية.. أريد أن أفضح هؤلاء الذين يخطفون الناس من أسرّتهم عند الفجر!!..

صمت الصحفي آدم لثوان، ثم قال بحيوية وهو ينظر إليها وإلى آدم المسكين:

- شكراً لسعة صدرك.. بقبولك أسفنا وأعتذارنا.. نحن لم نصدق أنك موجودة في فندقنا، وتودين الظهور على شاشة قناة " استراحة مفيستو".. لذلك فكرنا بأن لا يكون اللقاء مجرد تصريح منك حول الاختطاف، وإنما ليكون لقاء نحضّر له بشكل أفضل، فمع التصريح يفترض أن نعدّ تقريراً تلفزيونياً موجزاً كبورتريه، سيرة موجزة، عن شخصك الكريم...وسيتفضل الأستاذ آدم المسكين بالجلوس معك.. ليستفسر منك عن كل شيء يخص الاختطاف وعن شخصك وسيرتك.. من أجل أن يعدّ سيناريو موجز نستطيع على أساسه أن نقدّم صورة تلفزيونية عنك تليق بمقامك.. فأنت شخصية معروفة

بالنسبة للرأي العام.. ومن الوجوه الاجتماعية الناشطة في مجال المطالبة بحقوق الإنسان..

انتبه آدم المسكين إلى أن حواء الأعمى كانت تستمع بانتباه لكل كلمة تصدر من الصحفي آدم الضائع وتنفعل معها، وتستمتع بها، لكنه انتبه أيضا إلى أنها ما أن ذكر الصحفي آدم الضائع اسمه باعتباره هو الذي سيعدّ سيناريو التقرير الذي سيقدم حولها، وأنه هو الذي سيستفسر منها عن عملية الاختطاف حتى ركزّت نظرها عليه..

كانت حواء الأعمى تنظر فعلاً إلى آدم المسكين، لكنها كانت قد انتبهت إلى جاذبيته الغامضة.. فشعره الطويل الكث.. وطوله، وتناسق جسده، وبساطة ملابسه، شكل لديها انطباعا لطيفا، وتقبلاً أنثوياً مكتوماً.

مرّت لحظات صمت وسكون بين الثلاثة، وكأنما توقف انسياب وجريان شريط سينمائي للحظات، ثم تحرك كل شيء.. فقالت، بنبرة فيها كبرياء وشموخ ونقد صريح لآدم المسكين، على الرغم من أنها وجّهت الكلام إلى الصحفي آدم الضائع:

- كيف يريد أن يعدّ سيناريو عني لتقريره دون أن يعرفني.. أو لم يسمع باسمي..؟ كان يفترض أن يبحث عني قبل أن يتوجه إليّ أو تتكفلون أنتم كقناة إخبارية بإعداد التقرير!..

شعر آدم المسكين بالامتعاض من شراستها، ومن هذه اللعبة التافهة التي وجد نفسه في وسطها، فأراد أن يصدّ هجومها الذي بدا له غير مبرر، وليس سوى استعراض فارغ للقوة الوهمية، وفكر بأن يهاجمها بدوره لكن بطريقته، فقال لها:

- عفواً سيدتي..! من قال لك إنني لا أعرفك..! أنا أتابع نشاطاتك المدنية.. وأتابع ندواتك النسوية.. لكني بصراحة لا انتظر من كل هذه النشاطات ما يمكن أن يغيّر في هذا التحجر الاجتماعي الموجود.. لذا أنظر لنشاطات الحركة النسوية أو حتى الحقوقية وكأنها ندب النائحات في مسرحية إسخيلوس.. " النائحات أو المتضرعات"..!.. وأعتقد أنك تعرفين " بنات

داناوس" وهن يبتهلن أمام هياكل ومصاطب الآلهة في مدينة "ارجوس" كي يدفع عنهن كيد أعدائهن.. وهكذا هي معظم النشاطات والحركات الحقوقية والمدنية.. ليس سوى نوح وندب وتضرع لآلهة غامضة..! الآلهة التي تستمع لكل هذا الغضب والنوح والزحام والتعرق فتبتسم.. ثم تتكرم برش قطرات من الماء المعطر عليهم.. فينتشون ويعتبرون ذلك تحقيقا لقرابينهم المسكينة!..

لم يكن آدم المسكين يعرف كيف واتته تلك الجرأة في مواجهتها.. ولا من أين جاء اسخيلوس ومسرحية "النائحات أو المتضرعات" إلى ذهنه.. ربما لأنه كان يقرأ مسرحياته قبل أيام..!! بينما ارتسمت الدهشة على وجه الصحفي آدم الضائع مع علامات توجس من تطور الأمور بين حواء الأعمى وآدم المسكين بطريقة لم يحسب لها، مستغربا هذا الهجوم المفحم والبليغ والمكثف من قبل آدم المسكين على كل إدعاءات هذه المرأة الشرسة..

ارتسمت علامات الذهول على وجه حواء الأعمى.. ثم شيئا فشيئا حلت علامات غضب مكتوم، لكنها كانت تبدو وكأنها تفكر بكل ما قاله هذا المسكين آدم، وبعد لحظات من الصمت المشحون بالتوتر، ارتخت ملامحها، وابتسمت باستفزاز قائلة:

- يبدو لي أنني اخطأت التعبير بحقك.. وأنني لم انتبه إلى أني أمام رجل مثقف لديه وجهة نظر ممتعة في الحراك المدني والنشاطات الحقوقية التي نقوم بها.. سيسرني أن أتناقش معك أيها السيد..
- آدم المسكين.. قال الصحفي آدم الضائع معرّفاً به للمرة الثانية
- المسكين..؟

قالت حواء الأعمى ذلك وكأنها تسخر من اللقب، وترد على هجومه بالإشارة إلى اللقب والتقليل من شخصه..، فشعر الصحفي آدم الضائع بعدم الارتياح من رد فعلها الساخر والمهين، وتوقع بأن الأمور ستتطور بشكل سيء، لكنه في أعماقه كان راضيا من هذا الأمر إذا ما حصل لأنه سيلغي أي ظهور لحواء الأعمى على

شاشة القناة وهذا ما يسعى هو إليه..!.. إلّا أن جواب آدم المسكين جاء على مسامعه كضربة قاضية، إذ سمع آدم المسكين يجيبها بهدوء:

- أن أكونَ مسكيناً خير لي من أن أكون أعمى..! أليس كذلك.. أم أن لديك رأياً آخر..!؟.

صعقت حواء الأعمى من جوابه.. ولأول مرة تشعر أنها تنكسر أمام رجل، وأنها تشعر بهشاشة في أعماقها، لكنها وبحكم خبرتها في الظهور الاجتماعي تماسكت، وأدركت أن صراعاً بدأ بينها وبين هذا الرجل، المثقف، والذي يستطيع أن يحطم شراستها بردوده الغريبة والمتميزة.. لذا عليها أن تستخدم أسلحة المرأة التاريخية.. الأنوثة.. والضعف.. والتذلل الأنثوي الساحر.. فنظرت إلى الصحفي آدم الضائع وقالت له بنبرة آمرة:

- هل لك أن تتركنا أستاذ.. يبدو أن حديثي سيكون حامياً مع السيد آدم!..

نظر الصحفي آدم الضائع إليهما.. ظل يقرأ ما في وجهيهما من استعداد للمواجهة للحظات، وبدون اعتراض، قال لهما:

- أتمنى لكما وقتا طيباً..

وغادر الغرفة. نظر آدم المسكين وحواء الأعمى لبعضهما نظرات متفحصة.. ثم أشارت هي له بأن يجلس على طرف الصوفا التي تجلس عليها.

****

كان الجو مشحوناً بين حواء الأعمى وآدم المسكين، لكنه لم يكن عدائياً.. شيء غامض كان يجذبهما لبعضهما، لكن كبرياء كل منهما لم يسهل عليهما التواصل برغم رغبة كل منهما في ذلك..

طالت لحظات الصمت بينهما، انتبهت هي بحكم خبرتها بأنها لو لم تبدأ بالحديث فربما هذا الجالس إلى جانبها لن يفتح فمه.. وهي تحس برغبة تجتاحها في الحديث معه، لكنها تضغط على رغبتها وفقاً للقواعد التي وضعتها لسلوكها الاجتماعي.. فهي لا تعترف برغباتها لأحد.. بل ولا تواجه نفسها إلّا نادراً وبدون

إرادتهـا.. هـي تعطّل تفاعلاتها الكيماوية التي تهز كيانها بسـبب تعقيدات تجربتها مع الرجال.. فهي لا تريد أن تضعف أمام أي رجل، علماً هي تحس أحيانا بالمتعة المكتومـة حيـن تنتبه لمشـاعر ضعفها أمام رجل مـا، مثلما هي الآن، لكنها ترفض مبدئياً أن تبدي ذلك علناً أو حتى تعترف بذلك..، هي تعاني من مبادئها وموقفها ونظرتها للرجل..، وتتمنى لو لم تكن متصلبة كذلك..!..

ثمة حدس لديها بأن لقاءها مع هذا الرجل ربما سيحرك الساكن فيها ويزحزح جدرانها الهشة..!.. لكنها لا تريد ذلك.. نعم لا تريد ذلك.. بل إنها تخاف ذلك.. ودون وعي منها وجدت نفسها تسأله:

- من أنت.. أيها المسكين آدم..؟

فوجـئ بسـؤالها.. لـم يغضب منها برغم نبرة الاسـتخفاف فـي صوتها.. نظر إليهـا وهـو يتفـرّس ملامحهـا الفاتنة، وقال بهدوء وبنبرة طيبة لا تشـي بأي غضب أو شعور بالإهانة:

- مَن أنا..؟ أنا ظل يمشي.. أنا لستُ أنا.. فهل أنتِ أنتِ..؟

ارتبكـت حـواء الأعمى مـن جوابه الاسـتعراضي الغامض.. أحسـت برجفة سرت في جسدها.. هي لم تعتد مثل هذا النقاش أو الأجوبة الغامضة.. المخاتلة.. عادة ما تكون أسـئلتها واضحة والأجوبة عادة ما تكون مباشـرة، عملية، وتقريرية، وباردة.. لكن هذا دفعها للنظر إلى الأرض التي تحت قدميها، فهالها أن تكتشـف أنهـا تقـف علـى أرض جليدية متجمدة، ويبدو تحتها بحيرة أو نهر متجمد.. عليها أن تكون حذرة.. فهذا الرجل خطر برغم نعومته، فهو مثل شبل غض متوحش..!..

حدّقت في وجهه وكأنها تستقرئ شخصيته وتتبينها من ملامحه، وقالت:

- أأنت هكذا دائماً..! تجيب دون أن تجيب.. أو تجيب على السؤال بسؤال..!؟

نظر إليها بهدوء وقال بنبرة هادئه فيها عتاب مبطن:

- وأنـت..؟ لمـاذا تحاوليـن أن تلعبـي دور الشرسـة والمشاكسـة والمتحديـة والمستفزة لحد الوقاحة كي تبدين امرأة قوية وقيادية في نظر شلة من النساء المعقّـدات ونفـر من الرجـال المحبطين..!.أنت في أعماقك لسـت كذلك..

لماذا تخافين أن تكوني طيبة، ورقيقة، وضعيفة كخيط الحرير الذي يذبح أيضاً..؟.. لماذا تخافين أن تشعي بأنوثتك الآسرة، ألإنَّ هذه الشلة من الكئيبات الخائبات وهؤلاء العاجزين ينظرون، إلى الطيبة والرقة والأنوثة كدليل على الجبن وضعف الشخصية وخور العزيمة..!؟.. لا أعتقد أنك شرسة ومستفزة مثلما تحاولين أن تبدي للآخرين..!!.. الشراسة ليست علامة القوة.. الشراسة في الجوهر هو خوف يهرب إلى الخارج.. هروب عنيف من الذات ومن الخطر أحيانا!..

كانت حواء الأعمى تنصت لكلماته وتحس أن مع كل كلمة وجملة منه تتكسر في أعماقها جدران جليدية.. صحيح أنها لا تتهشم لكن الفطور وخطوط الإنكسار تتوضح شيئا فشيئا.. وتزحف كثبان الثلج..

هي لم تلتق برجل يحاورها بهذه الطريقة.. حتى زوجها آدم عين الحياة، المثقف الليبرالي، ليس هكذا، بل على العكس فهو إنسان محبط، وفي أعماقه بحيرة من المرارة.. لا.. لا.. تحس أن كلمات هذا الرجل تخدّرها.. وتكشف هشاشتها الداخلية، فهو يزيح عنها أقنعتها بهدوء.. ودونما عنف وصراع رجولي وأنثوي.. عليها أن لا تستسلم بسهولة.. لكنها مشوشة.. وفجأة لبست قناعها الشرس وقالت:

- يبدو لي أنك رجل مثقف، وقارئ موسوعي، لكنك تستخدم كل ثقافتك وقراءاتك من أجل أن تغوي المراهقات، والنساء المحبطات المتعطشات للرومانسية المفقودة من حياتهن بسبب رتابة الحياة الزوجية وهموم الزوج والأطفال والعائلة.. أو ترضي الغرور الأنثوي للنساء الوحيدات وتدفعهن للتفكير بمغامرة عاطفية..!.. وفرّ كلامك هذا يا رجل.. أنا لست واحدة منهن.!..

نظر آدم المسكين إليها للحظات، وأدرك أنها تتحصن داخل قوقعتها، مثل السلحفاة، لكن خوفاً، فهي مذعورة.. وربما هي واحدة من هاتيك النساء اللاتي وصفتهن كضحايا محتملات.. فابتسم بمرارة، وقال بهدوء:

- لا نية لي بغوايتك.. ولا بغواية أية امرأة..
- كلكم تدّعون زهدكم في غواية النساء، لكنكم تركضون كالممسوسين وراء مؤخرات النساء وتنوراتهن القصيرة، وتقهقهون لنكاتهن السخيفة والسمجة، وذلك من أجل الإلتصاق بهن.. وولوجهن فقط!..

قالت ذلك مقاطعة له بنبرة عصبية محاولة أن تكتم غضبها الذي بدا له أنه يغلي كالمرجل داخلها.. انتبه آدم المسكين إلى توتر جسدها الفاتن وهي تتحدث.. راوده ما يشبه اليقين الداخلي من أنها امرأة محبطة، برغم كل ما تدعّي وتتظاهر به من قوة وشراسة.. لكن كيف له أن يدعها تواجه نفسها..!! وكيف له أن يعرف قصة اختطاف زوجها.. وما تم اتهامه به من سرقة ستمائة ألف دولار..!...فقال لها ليدير الحديث عنها وعن زوجها دون استفزازها:

- لا أعرف شيئا عن تجربتك مع الرجال.. ول..

فقاطعته بحدة:

- انتبه لكلامك.. لا تجربة لي سوى مع زوجي.. لست ممن تود أن تجرب كل شيء من أجل أن تراكم تجاربها لتستذكرها حينما تشيخ.. شخصياً ليس الجنس مهماً في حياتي.. أستطيع أن أعيش بدونه لفترة أطول مما يمكنك أن تتصور.. أنا أجد أن حياة الإنسان تتلخص في تحقيق مبادئه.. والجنس ليس سوى الجانب الحيواني في الإنسان، ويجب الإرتقاء بالذات الإنسانية والتعالي عليه وتقنينه ..الجنس ليس كل شيء في الحياة..!

ابتسم لها وأحس أنها بدأت تتداعى، فقال:

- أولاً.. أنا لم أتحدث عن الجنس قطّ.. وإنما علّقت على جوابك الذي كان تعليقا على اتهامك لي بسعيي إلى غوايتك.. وأنا تحدثت بشكل عام.. ولا يعنيني إن كانت تجربتك مع زوجك فقط أو لا.. وأؤكد لك أنني لا أريد غوايتك.. وليس لي رغبة في ذلك..

نظرت إليه مستغربة جوابه، حدقّت فيه للحظات متفرسة، ثم سألته مستفزة:

- لو افترضت جدلاً أنك صادق في كلامك بأنك لا تريد غوايتي ولا رغبة لك

في ذلك كما تدعي.. فسؤالي هو لماذا..؟ بماذا أنت تختلف عن الرجال..؟ لماذا لم تفكر بغوايتي.. ألا أعجبك كامرأة..؟ ألا أوحي لك بما يثير حواسّك الحيوانية..؟ ألا تراني جميلة ويمكنني التأثير في الرجال من هذا الجانب..؟

شعر آدم المسكين بأن هذه المرأة مسكينة، ومليئة بالوحشة والعزلة، برغم الضجيج الذي يحيطها.. وانتبه إلى نبرة انكسار أنثوي في صوتها، فهي تبحث عن أنوثتها الضائعة وسط الشعارات التي حجبت الحياة عنها.. امرأة محبطة ووحيدة، بجسد فاتن ومتوتر.. ووجد الفرصة أمامه لكي يقتحم عالمها الداخلي، فقال لها بنبرة دافئة ومشبعة بالإعجاب:

- على العكس.. أنت امرأة فاتنة.. مثيرة.. ذات شخصية جذابة جداً.. وأعتقد أنك في أعماقك امرأة رقيقة جداً، مليئة بالرومانسية التي تسخرين منها حينما تتكلمين.. وأنت متعطشة للحب الذي تخلو منه حياتك.. والذي تتمنينه.. أنت تتمنين أن تعيشي قصة حب عنيف.. يوازي كل هذا الحماس الذي تمنحينه لنشاطك الحقوقي وندواتك في مجال حقوق الإنسان، حتى لكأنك بكل هذا النشاط تهربين من الفراغ في حياتك..!..
- كفى أرجوك...!!

لم ينتبه آدم المسكين حينما كان يتحدث بأنها شحبت، ترقرقت الدموع في محجري عينيها.. وأنها شبه منهاره، بل ومستسلمة، فقد أسقط قناعها، بل وأزاح الصخرة التي تكتم على نبع مشاعرها الأنثوية وتسدّه، فتفجر نبعها.. وحين رفع رأسه إليها، انتبه لذلك، فقال لها بتأثر:

- أنا آسف..

نظرت إليه برقة.. انتبه لفتنتها وهي تنظر إليه هكذا، واسترسلت هي بالكلام:

- أنت فتحت باباً سرياً قد أقفلت عليه ورميت مفتاحه في بئر مظلمة.. لم يقترب أحد كي يفتحه، فكيف استطعت بكلماتك هذه أن تفتحه.. وكأنك تقول له : افتح ياسمسم.. نعم.. أنت محق.. نعم.. ليست حياتي سوى

هروب دائم.. كالذئاب التي قدرها الجري والهرب من شيء غامض.. ربما لا أبدو كذلك في عيون الناس.. لكني إنسانة محبطة.. أحاول أن أحدّق إلى أعماق الهاوية بعيون مفتوحة.. لا أخاف شيئا سوى نفسي.... أتعرف.. أنا أناضل.. وأقيم الندوات.. وأشارك في المؤتمرات والمنتديات.. لكن في أعماقي مؤمنة بلا جدوى كل هذا..

كان آدم المسكين يستمع إليها بانتباه شديد، وأحس أنها ربما لأول مرة تواجه نفسها، فسألها مقاطعاً:

- لماذ تستمرين إذن.. إذا كنت لا تؤمنين بذلك.. أو إذا ما تكشف لك خواء كل تلك الشعارات.. وسقطت أمامك الأقنعة..؟

نظرت إليه بدفء، وقالت:

- هل تعتقد أن الأمر سهل بأن تترك وراءك كل ما انفقته من سنوات.. ومن تعب وسهر ومعاناة.. وحققت لنفسك اسماً اجتماعيا وسياسيا..!! لا الأمر ليس سهلا.. حتى لو مرت بي حالات يأس بحيث أريد أن أرمي كل شيء وراء ظهري..

صمت هو للحظات.. نظر إليهامتفهما ألمها وإحباطها، وقال بنبرة متعاطفة:

- لكنك بذلك تضيعين عمرك في دورة شيطانية.. وتدورين داخل متاهة لا تفضي إلى شيء!..

نظرت إليه نظرات محايدة وكأنها تتحدث لإنسان قريب منها، وليس ذلك الشخص المشاكس الذي كان يواجهها قبل قليل من الوقت، وكانت تهجم عليه بشراسة، استغربت هي لثوان حينما انتبهت لذلك، لكنها واصلت:

- ليس تماماً.. فأنا أؤمن بنضال الناس من أجل حقوقهم.. وأننا كبشر قيمتنا الحقيقية هي في مواقفنا من الظلم والقمع وإهانة الإنسان.. وأنني بالرغم من رؤيتي للأقنعة تتكشف أمامي.. لكنني أواصل محتمية بمبادئي وأخلاقي.. النضال صار مهنتي.. لا أعرف أن أعيش دون ذلك.. فليست أمامي أية بدائل حقيقية.. إنني مشدودة لأفكاري وأخلاقي..

نظر إليها بمودة وأعجاب، وقال:

- لكن الأخلاق في الكثير من الأحيان تكون عبئاً..، تصير صخرة ثقيلة..

فقاطعته مؤيدة:

- نعم.. هذا صحيح.. تكون الأخلاق عبئاً.. وصخرة ثقيلة تدفع بنا إلى الهاوية، إذا لم نتحملها جيداً.. الأخلاق أحيانا كالثعبان الذي يلتف على الروح..

نظر إليها، وأدرك أنها هشة ومنهارة من الداخل، لكنها تنتظر من يحطم جدرانها الرطبة الآيلة للسقوط، فقال لها:

- لكنك من ناحية أخرى تُحسدين من قبل الكثير من النساء لأنك متزوجة من رجل مثقف، ومناضل، ويحترمك.. و..

فقاطعته بمرارة:

- ربما هذا صحيح أيضاً.. لكن الناس تحكم على ما تراه من الظاهر.. تحكم على شخصيته.. ومناقشاته المثيرة، وذكاء طروحاته، وصلابته.. لكنني لا أعيش هذا معه.. نحن في البيت لا نتحدث كثيراً.. بل معظم كلامنا لو دققت فيه هو من توافه الجمل.. هو أيضا رجل محبط.. وإحباطه الأكبر هو في رجولته.. فهو محبط من كل شيء.. وبحكم عمره فهو ليس بقوة الشباب.. ويعرف أنه لا يستطيع أن يروي عطشي الأنثوي.. لكنه يعرف أنني مخلصة له.. ولا أذهب مع أي شخص.. بل إن بعض أصدقائه حاولوا معي.. وأخبرته بذلك.. فزاد ذلك من إحباطه.. لكننا لا نعرف معنى لحياتنا غير النضال من أجل حقوق الإنسان..

نظر إليها بدهشة وقال بتوجس:

- هل هذا يعني أنكما لا..

سكت ولم يكمل.. نظرت إليه وخمّنت ما يود قوله، فقالت له:

- أكمل.. لا تتردد.. فأنا وهو متحرران من عقدة الكلام في الأمور الجسدية للإنسان.لها.. نعم.. أردت أن تقول إننا لا نتعاشر كرجل وامرأة..؟

فقال بتردد:

- نعم..

ابتسمت بمرارة وقالت بجرأة:

- لا.. لم يعاشرني منذ سنتين.. هل تصدق ذلك..

نظر إليها مندهشاً، فهذا الجسد الفاتن لا يليق به ألاّ يمس لسنتين، فقال وفي صوته نبرة مكتومة من الشبق:

- لا.. لا أصدق ما اسمعه..

انتبهت لنبرة الشبق في صوته، وشعرت هي بارتعاشة تسري في جسدها.. خافت مما يجري في جسدها من تحولات، فلجمت نفسها قائلة:

- لكنه إنسان رائع.. طيب.. ومشوش أيضاً.. حورب وأزيح من منصبه الإداري الكبير.. ونقل إلى قسم المحاسبة.. بالرغم من أنه ليس محاسباً وإنما قانوني.. لكنهم تحججوا بأن القسم يحتاج لمشورات قانونية.. ثم لفقوا له تهمة سرقة مبلغ ستمائة ألف دولار.. هي مرتبات الوزارة التي يعمل فيها.. هكذا السلطة دائما.. تقصي المعارض لها.. وتحاول تدميره.. وإذا ما قاومها فأنها تستخدم أقذر الوسائل لتشويه صورته أمام الناس، وتختلق له التهم التي تمس نزاهته، وتشغل ماكنتها الإعلامية في بث الشائعات مسيرة عشرات الصحفيين والإعلاميين المأجورين في ذلك..

- كيف جرى ذلك..؟

- ذهب القائمون على الأمر واستلموا المبلغ من البنك الرسمي للدولة.. جاءوا بها في حقيبة جلدية كبيرة كما قال لي قبل اختطافه بيومين.. ولا يعرف عن الموضوع أكثر من ذلك إلّا بعد اتهامه بسرقة الحقيبة والمبلغ الذي فيها.. لكنه لا يفعل ذلك.. والكل يعرف أنها تهمة لتشويه صورته.. واليوم فجراً جاء مجموعة من الرجال الذين يضعون قناعا موحداً على وجوههم. واختطفوه من مكتبته.. فهو صار منذ سنتين ينام هناك.. وحينما خرجت من غرفة نومي

رأيته مقبوضا عليه بين أيديهم.. ولم يسمحوا لي بالكلام.. خرجوا مسرعين بحيث لم أتمكن من تغيير ملابسي..

فكر آدم المسكين بآدم عين الحياة زوج هذه المرأة المثيرة في تلك اللحظات.. وسألها بتردد:

- ربما أنك لا تعلمين شيئاً عن أمر الحقيبة..

نظرت إليه مستغربة سؤاله، وقالت:

- ماذا تريد أن تقول..؟ إنني أعرفه جيداً.. لو كان قد فعلها لكنتُ أول من يعرف.. بل إنه يستشيرني في كل شيء.. حتى في أموره المشوشة ورغباته المحبطة..

نظر إليها مستفسراً وسأل:

- ماذا تقصدين بأموره المشوشة.. ورغباته المحبطة..

سكتت هي للحظات.. نظرت إليه وكأنها تسّر صديقا حميماً شيئاً خاصاً لا يقال، وقالت بهدوء:

- ذات يوم خرجت من الحمام.. كنت عارية.. ارتدي برنسا خفيفا.. ومفتوحا.. نظر إليّ متأملاً جسدي.. وقال لي بأن لديه رغبة ما لكن تحقيقها متوقف عليّ...نظرت إليه مستفسرة، فتردد قليلاً، لكنه كان لا يخاف أن يعبر عن آرائه مهما بدت غريبة.. فقال لي بأنه يتمنى أن يأتي بصديق له ليضاجعني أمامه..

دهش آدم المسكين عند سماعه ذلك، وسأل بتردد:

- وأنت.. هل وافقت..؟

نظرت إليه فزعة وقالت:

- ماذا تقول..؟

نظر إليها ثم قال بتردد لكن بهدوء:

- أليست لديك رغبة جنسية..؟ أنت امرأة فاتنة ومثيرة..

صمتت للحظة، أرادت أن تقول شيئاً لكنها غيّرت رأيها، فقالت:

- أنا أضع مبادئي فوق كل شيء.. أحاول أن أكبت غريزتي.. أنا أعيش لمبادئي وأخلاقي ..مبادئي فوق كل شيء.. مبادئي..

كان آدم المسكين قد اقترب منها دون أن تنتبه...وبينما هي مسترسلة ومندفعة في حديثها عن المبادئ أخرسها بمفاجئتها بأخذ وجهها وتقبيل شفتيها بحرارة..

لم تستطع أن تفعل شيئا.. كانت المفاجأة قد جمدّت حركتها.. ثم أخذ يقبلها من وجهها.. بينما استمرت هي في حديثها عن المبادئ التي تحميها من أن تقع في الزلل.. وأنها لا تقيم وزنا للجنس.. بينما مدّ هو يده ليداعب ما بين فخذيها.. عندها تفجرت شهوتها.. وخفت حديثها شيئاً فشيئاً.. وصمتت.. بينما أخذ لهاثها الذي كان أشبه بمواء القط يتصاعد بين لحظة وأخرى.. ولم تنتبه إلى أنه مدّ يده ليتحسس صدرها تحت البلوزه الرقيقه.... كان يقبلها بصورةٍ لم تمكنها من أخذ أنفاسها بانتظام.. حاولت أن تدير وجهها، لكنه كان قد مدّ إحدى يديه ممسكا بشعرها.. كانت لا تستطيع التنفس آو الهرب.. يده الأخرى توغلت في فتحه ردائها تتحسس جسدها.. فاستسلمت..

كان شعور مريح يجتاح جسدها.. بينما استمر آدم المسكين قابضاً بيده علي شعرها.. فجأة نهض آدم المسكين، وجذبها معه إلى الأعلى لتقف وأدارها.. شعرت به خلفها يحيطها.. كانت تشعر بأمان غريب طالما بحثت عنه.. استباحت يده جسدها.. لكنها فجأة، لا تعرف من أين اندفعت قوة غامضة سوداء في أعماقها، فدفعته بعيداً حتى كاد يسقط، و قالت له:

- لا أصدق أن ذلك يحدث لي.. لا أصدق...كيف كنت أعيش.. أين كنت كل هذا الوقت.. أنا مجنونة.. تباً لي.. كم كنت بلهاء ..أنا عمياء فعلاً..

نظرت إليه بغضب.. فتحت حقيبتها.. أخرجت بطاقة تعريفية فيها اسمها وعنوانها ورقم هاتفها.. مدتها له.. وقالت بنبرة آمرة:

- سأغادر الآن.. يمكنك الإتصال بي في أي وقت.. أحسّني ملوثة.. لا أريد أي تصريح صحفي ولا مقابلات.. شكراً لك.. الآن فتّحت عيني على نفسي.. لم انتبه لنفسي.. كنت عمياء..

نظر آدم المسكين إلى البطاقة وعرف العنوان.. لم يقل شيئاً.. كان مستغربا من ردة فعلها.. غادرت هي الغرفة.. بقيَ هو وحده.. مفكراً بغرابة النفس البشرية.. وبآدم عين الحياة الذي ليست له علاقة بالحقيبة ولا بالجثة المقطوعة الرأس.

****

كان آدم المسكين مستغرقا في أفكاره، محاولاً أن يربط بين كم المعلومات والشخصيات والأحداث التي مر بها خلال يومه هذا، حين دخل عليه الصحفي آدم الضائع، وهو يبتسم، قائلاً له:

- ماذا فعلت..؟ أنت ساحر..!! لقد رأيتها وهي تمشي مسرعة وكأنها تهرب من أشباح غامضة تطارها.. غادرت الفندق دون أن تلتفت..

نظر آدم المسكين إليه بتكاسل وقال بهدوء:

- لم أعمل لها أو معها أي شيء.. سوى أنني ناقشتها.. وكما قالت لي : بأنني فتّحت عينيّها.. ولم أفهم ماذا تقصد!..
- على أية حال.. أخبروك بأن سعادة المدير آدم آدم سينتظرك في مكتبه..
- نعم.. لكنهم لم يحددوا الموعد.. قال لي من اتصل بأنهم سيحددون الموعد ويتصلون بي..
- جيد.. المهم أنه قرر أن يلتقيك.. لاسيما وهو يتابعك بشكل دقيق.. وبالتأكيد الآن رأى من خلال الشاشات التي أمامه كيف غادرت حواء المسافر وحواء الأعمى الفندق..

ـ أنا أحس بالتعب.. سأذهب إلى غرفتي.

ـ لك ما تشاء..

توجه الصحفي آدم الضائع متجها إلى خارج الغرفة.. نهض آدم المسكين بهدوء.. حمل حقيبته وتبعه.. غادرا الغرفة التي كانت مشبعة بأنفاس حواء الأعمى وآدم المسكين.

الفصل التاسع

صدمة حواء الدلو – المدفون

أفاق آدم المسكين على ضجة أطفال يمرحون في شقته، وصوت امرأة تحاول أن تسكتهم مؤنبة بأن الأستاذ ينام في الغرفة المجاورة.. لم يفهم في تلك اللحظة ما يحدث.. ولا أين هو..؟.

بعد ثوان استعاد تركيزه وانتباهه لنفسه، فوجد أنه في سريره بغرفته وهو بكامل ملابسه.. لكن لم يستوعب الضجيج الطفولي في الشقة بعد!..

انتبه لصوت المرأة تتحدث بما يشبه الهمس، لكنه كان همساً عالياً بحيث سمعه، وتبين قولها الذي كررته بأن الأستاذ، وفهم أنها تعنيه، جاءوا به ليلة البارحة متأخراً، وكان متعباً جداً، وإنما أُدخل الغرفة لينام.. وسمع صوت أحد الطفلين يسأل بأنه لمْ يرَ الأستاذ حينما جاءوا به ليلة الأمس، فأجابته أمه بأنهما كانا نائمين!..

حاول آدم المسكين أن يسترجع تفاصيل الأحداث ويرتبها في ذهنه.. فبدأ يسأل نفسه أولاً عن هذه المرأة: من هي..؟.. وتذكر بشكل مشوش أنه التقى امرأة في بداية الثلاثينات، بائسة، زوجها اُختطف من قبل أناس مجهولين بتهمة المتاجرة بالمخدرات.. وهي لم تجد ما تعيل به نفسها، وعائلتها الصغيرة المكونة من ابنين استغرب حينما سمع اسميهما: قابيل وهابيل.. وأنه في لحظة لطف وإشفاق منه أعطاها مفتاح شقته وأرسلها لتسكن مع طفليها فيها. نعم هو يتذكر ذلك الآن جيداً، وتذكّر أن اسمها حواء المسافر..، وأنه حين فعل ذلك كان في فندق "استراحة مفيستو".. لكن كيف وصل هو إلى شقته..؟ وما معنى قولها: (جاءوا به ليلة البارحة متأخراً، وكان متعباً جداً، وإنما أُدخل الغرفة لينام).. حاول أن يتذكر..؛ لكنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً.. وعلى غير انتظار منه بدأت تتكشف

أمام عينه الداخلية تفاصيل ما جرى!!...

حاول أن يتذكر أي شيء منذ لحظة دخوله المصعد متجها إلى غرفته بالطابق الثالث.. لكنه لا يستطيع، بل تجسّدت في ذهنه تفاصيل غامضة.. وكأنه كان في مصعد يهبط إلى قاع الأرض.. وكان المصعد يهبط ويهبط.. وكان يشعر وكأنه يقطع مجرات هائلة، ألوان وأمطار غزيرة من الشهب.. ثم اجتاز أمواجا متلاطمة من الظلام الذي يحسه كأعماق محيط مهول.. ثم اجتاز صحارى من الضباب الحليبي.. إلى أن توقف كل شيء.. وانفتح باب المصعد العجيب.. بل يتذكر الآن أنه دخل قاعة لكنها لم تكن قاعة بالمعنى السائد..، فليس هناك سقف ولا جدران..، وإنما طاولة كبيرة تنتصب في الضباب.. وهناك التقى آدم آدم مدير فندق " استراحة مفيستو"، وكذلك تعرّف على امرأتين مثيرتين حواء الأبيض وحواء الأسود اللتين قيل له إنهما تحت أمرته من أجل تحقيق رغباته مهما كانت..!!.. وآخر ما يتذكره هو رفع معهم نخباً لكنه لا يذكر المناسبة.. ثم لا يذكر بعد ذلك شيئاً..!!؟؟.

فجأة، تذكر آدم المسكين شيئا، فتلفّت مرعوباً مفتشاً عن الحقيبة الجلدية.. واسترخت ملامحه قليلاً حينما وجدها بجانبه على السرير.. وبهدوء قام عن سريره.. توجه بحذر نحو باب غرفته.. أغلق الباب بهدوء وحذر.. ثم عاد على أطراف أصابعه إلى سريره مرة أخرى.. جلس هناك وسحب الحقيبة.. فتحها بهدوء فواجهته رزم الدولارات.. شعر بإسترخاء عذب سرى في جسده ونفسه.

انتبه إلى أن الهدوء قد عمّ الشقة، ولم يعد يسمع ضجيجاً، حتى ظن أنه قد توهم سماع الضجيج والحديث.. وبحذر شديد فتح باب غرفته ففوجئ برؤية المرأة الثلاثينية تجلس على الصوفا، وفي حضنها ابنها الذي في الثالثة، وإلى جانبها ابنها الآخر الذي في السابعة، وهم يشاهدون التلفزيون الذي كان حينها يعرض فيلماً كارتونياً، كاتمين صوت التلفزيون كي لا يزعجوه.

ارتبك قليلاً. أراد أن يرجع لغرفته، إلّا أن المرأة وضعت ابنها الصغير إلى جانبها على الصوفا وقامت من مكانها وهي تقول له بحفاوة وارتباك:

- صباح الخير أستاذ.. أرجو أن لا نكون قد أزعجناك وأيقظناك من النوم..؟.. الأطفال لا يتركون أحداً يرتاح.. مثل الشياطين يتحركون في كل زاوية..

لم يكن أمام آدم المسكين سوى أن يجيبها خجلاً:

- لا أبداً.. لم يزعجني أحد.. أنا استيقظت بشكل طبيعي.. لكن هل كنت مستيقظة حينما جئت أنا البارحة..؟

نظرت إليه بارتباك وخجل ممزوج بغواية وغنج أنثوي وقالت:

- لقد عدتَّ في آخر الليل وكأنكَ لم تكن على بعضك.. لم تكن واعياً لنفسك.

استمع آدم المسكين بانتباه شديد، وسألها وعلامات التعجب مرتسمة على وجهه:

- كيف جئت إذن.. وكيف وصلت الشقة إذا كنت بهذه الحالة التي وصفتني بها..؟

ارتبكت حواء المسافر أحنت رأسها لثوان، ثم رفعت رأسها إليه وقالت بخجل لكن بثبات:

- لقد جاءت بك امرأتان.. بدتا وكأنهما توأمان.. أنا كنتُ مستلقيةً مع ابني هابيل في الغرفة الصغيرة، بينما ابني الكبير قابيل كان قد غط في النوم.. كنت ما بين النوم واليقظة.. سمعت ضجة عند باب الشقة.. وحينما نظرت نحو باب الشقة المسدود رأيتهما تفتحانه.. كل منهما كانت تمسك بك من ذراع.. وأنت تميل برأسك متكئاً من كتف إلى كتف.. دخلتا.. واتجهتا بك إلى غرفة نومك وكأنهما تعرفان الشقة جيداً.. بعد قليل خرجتا بهدوء. نظرتا نحوي بتركيز وكأنهما استغربتا وجودي في الشقة.. فزعت لأني خفت أن تسألاني كيف دخلت الشقة، وبما أنك لا تستطيع توضيح أنك من سمح لي بالمجيء إلى هنا، لذا فكرتُ بأنهما ربما سوف تطردانني.. لكن نحن النساء الثلاث كنا في الوقت نفسه نتعجب من هذا الشبه الكبير بيننا.. كنت أحس وأنا أنظر لهما وكأني أنظر إلى نفسي.. لكن ربما لأني كنت بين النوم واليقظة.. لست متأكدة.. إذ تراءى لي أن المرأتين امتزجتا ببعضهما.. نصف من هذه تداخل

بنصف من تلك.. فصارتا امرأة واحدة ترتدي ثوبا نصفه أسود ونصفه الآخر أبيض.. واخترقت هذه المرأة الجديدة الباب دون أن تفتحه.!..

انتبه آدم المسكين لوصفها عن تداخلهما كجسدين وأمراتين في جسد واحد، واختراق الشكل الجديد لهما للباب.. وبرغم أن حواء المسافر كانت غير متاكدة مما رأته، إلّا أن آدم المسكين كان على يقين بأن ما وصفته هو ما جرى.

وقفا ينظران إلى بعضهما البعض.. فجأة، انتبه هو إلى أنها ترتدي ثوبا رماني اللون، شفافاً، يكشف عن تفاصيل جسدها المثير.

انتبهت هي لنظراته، وفي أعماقها تدفقت مشاعر بهجة غامضة أيقظت فيها رغبة خفية ممزوجة بالعرفان، وبالمكر في أن تشدّه لها، لتضمن وضعها وبقاءها مع طفليها في هذه الشقة..، كما انتبهت لارتباكه فانتهزت اللحظة وقالت له:

- هل تريد أن أعمل لك الفطور أستاذ..
- لا تكلفي نفسك.. يمكنني أن أقوم به..

نظرت إليه وعلى وجهها ما يشبه الاستنكار وقالت بغنج أنثوي:

- كيف تقوم به وأنا موجودة.. ما دمت موجودة سيكون الطبخ والتنظيف وترتيب الأفرشة من اختصاصي.. هذا أقل ما يمكنني أن أقدمه لك إكراماً لموقفك النبيل معنا.. بل عليّ أن أوفر لك كل الراحة، مهما كانت..

ونظرت إليه نظرة محملة بالدلالات الشبقية حينما لفظت كلماتها الأخيرة التي شددت على الكلمتين الأخيريتن فيهما بشكل خاص. ولم يكن آدم المسكين ساذجاً، إذ فهم من نظراتها وتشديدها اللفظي دعوتها لقبول جنسي غير مباشر.

مضت حواء المسافر نحو تلك الزاوية المفتوحة التي تشكل المطبخ، وانحنت بطريقة مثيرة ومقصودة مفتشة عن دورق الشاي.. فنظر هو إلى مؤخرتها، لكن ما أربكه هي أنها كانت قد انتبهت لنظراته.

في تلك اللحظات بالذات تعالى صراخ ينبئ عن حدوث كارثة. انتبها كلاهما إلى أن الصرخات تأتي من الطابق نفسه.. فأسرع هو إلى فتح الباب ووقفت هي خلفه لتعرف مثله مصدر الصوت. كانت الصرخات تأتي من الشقة المقابلة.

ولا إراديا خرج هو من شقته متجهاً إلى الشقة المقابلة التي كان بابها غير مغلق بالكامل.. فتح الباب ودخل دون استئذان، وهذا الأمر مقبول اجتماعيا في تلك الحالات والظروف التي يكون الصراخ والندب كنداء لطلب المساعدة.

وجد آدم المسكين نفسه في صالة الشقة المقابلة.. لم يجد أحداً.. شعر بالحرج والحيرة.. فكر أن يرجع ويغادر الشقة ما دام أحد لم يره فيها..! لكن صراخ حواء الدلو وندبها دفعه لا إراديا إلى التوغل في الشقة نحو مصدر الصوت.. فتوجه لجهة الصراخ.

انتبه آدم المسكين إلى أنه صار في غرفة النوم..، ووجد حواء الدلو في ثوبها البيتي تصرخ وتندب مولولة وتحرك بجسد زوجها الذي خمن هو بأنه قد فارق الحياة.

لم يستطع أن يتأكد آدم المسكين من أن الزوج قد مات فزوجته تغطيه بجسدها، لكنها ما أن انتبهت لوجوده في الغرفة حتى صارت في الجهة الأخرى من السرير، فتكشف المشهد أمام آدم المسكين الذي صُدم لما رآه.

ذعر آدم المسكين لما رأى زوج جارته لأول مرة وهو في لحظة موته.. فقد كان نسخة طبق الأصل، لكن كبيرة السن، من هيئة مدير فندق " استراحة مفيستو"..!!؟.

ما معنى هذا..؟ سأل نفسه.. لكن الموقف لم يتحمل التأملات!..

****

لم تستغرب حواء الدلو دخول آدم المسكين دون استئذان، وأخذت تروي له بأن زوجها كان طبيعياً جداً، حيث طلب منها أن تعدّ له القهوة كي يشربها وهو في الفراش..، وحين عادت إليه مع فنجان القهوة وجدته على هذه الحالة وقد فارق الحياة.. لكنها كانت غير مصدقة بأنه فارق الحياة فربما هو يمر بأزمة قلبية..

سألها آدم المسكين عن الهاتف.. أشارت إلى أنه في الصالة.. خرج هو.. كانت هي تشدّ زوجها عله يتحرك.. بعد لحظات عاد آدم المسكين وقال لها

بأن سيارة الإسعاف في الطريق.. وأثناء ذلك قالت له بأن عليها أن تتصل بإبنتها وتخبرها بالمصيبة..

خرجت من الغرفة فمشى خلفها إلى الصالون.. اتصلت هي بإبنتها.. لحظتها لم تكن تبكي أو تصرخ.. لكن ما أن مسكت التليفون حتى أخذت تصرخ وتولول وتبكي لتخبر ابنتها بمصاب الأب.. ولم تنس أن تخبر ابنتها بأن تستعد للطوارئ لأن الأب لم يترك شيئاً من المال.

كان آدم المسكين مصدوماً بما رأى.. في غرفة النوم.. ولم يكن في حالة تمكنه من التفكير والتأمل والتفسير!..

جلستْ هي على الصوفا الموجودة في الصالون.. كان جسدها يرتعش ويهتز من التوتر. ظل هو واقفاً.. فجأة استعادت حيويتها وأخذت تروي له بأن زوجها كان يحبه.. وكان يحثها على دعوته في الكثير من الأحيان إلى السهر معهما.. لكنه لم يكن موجوداً في الشقة.. وأثناء الحديث جلس هو إلى جانبها.. على الطرف الآخر من الصوفا.. كان يستمع لبوحها وكثافة الحنان والاهتمام التي تشع من كلماتها.!..

في تلك اللحظات دخلت حواء المسافر إلى الشقة. انتبه آدم المسكين إلى أنها لبست ثوباً آخر غير الذي كانت ترتديه، بينما رفعت حواء الدلو رأسها متفاجئة ومستغربة وجود هذه المرأة في شقتها.

صمتت حواء الدلو عن سرد حكايتها وهي تنظر إلى حواء المسافر نظرات استفهام وكأنها تريد توضيحاً منها، فانتبه آدم المسكين للموقف وقال معرّفاً:

- هذه حواء المسافر ابنة خالتي.. زوجها مسافر فجاءت هي وطفلاها إلى شقتي..

شعر آدم المسكين بالارتباك من كذبته وكأنه أذنب بحق حواء الدلو، بينما شعرتْ حواء المسافر بأنها صارت تنتمي لآدم المسكين وأسعدها أنه كذّب من أجلها.

نظرت حواء الدلو إليها ثم إلى آدم المسكين وكأنها تريد أن تقارن وتتأكد

مـن صدقـه، لكنهـا ظلـت صامتة ولم تعلق على كلامه.. شـعرت للحظات قصيرة بالضياع.. وأنها قد فقدت آدم المسكين بحضور هذه المرأة الفتية والتي تشع بريقاً جنسياً.

حواء المسافر أيضاً فوجئت بحواء الدلو وجمالها الهادئ المثير وإلى التشابه الكبير بينهما.. لكنها بحدسـها الأنثوي، وتوغلها في ملامح الاسـتغراب والدهشة وعـدم الرضـى الخفـي في نظرات حواء الدلو، خمنّت وجود خيط خفي يربط بين آدم المسكين وجارته.. لكنها لم تعرف ما هو بالضبط.!..

فـي تلـك اللحظات سُـمعت أصوات خطوات سـريعة تصعد السـلّم. ولكي يتخلـص آدم المسـكين مـن لحظـات الصمـت والتوتـر التي سـادت للحظات في المكان..، نهض متوجها إلى خارج الشقة وهو يقول لحواء الدلو:

- بالتأكيد أنهم رجال الإسعافات والطوارئ..

وفعـلا.. مـا أن وصـل باب الشـقة حتـى التقاهم وسـط الباحة بين الشـقتين فدعاهما إلى الدخول لشـقة حواء الدلو.. في تلك اللحظة أدركت حواء المسـافر بأن وجودها غير مرغوب فيه، لكنها لم تود المغادرة.. إذ أرادت أن تثبت أحقيتها بآدم المسـكين فهي ابنة خالته والأقرب إليه منها.. لكن حواء الدلو لم توليها أي اهتمام وكأنها غير موجودة، لاسـيما وأنها انشـغلت مع الفريق الطبي الذي دخل الشقة.. فقادتهم إلى غرفة النوم.. ولم يكن أمام حواء المسافر سوى مغادرة الشقة والرجوع إلى شقة آدم المسكين.

****

وضع الممرضان زوج حواء الدلو على نقالة الإسعاف، بعد أن فحصه الطبيب المرافـق.. وأكـد الوفاة.. بينما تعالى صراخ حواء الدلو.. وحين خرج الجميع من غرفة النوم.. نقل الممرضان الميت على نقالة وغادرا الشـقة، بينما جلس الطبيب المرافق على الصوفا وبيده لوح عليه استمارة طبية..

بدا الطبيب متضايقاً من صراخ وندب حواء الدلو..، فقاطعها بسؤال عن اسم

زوجها وعمره.. صمتت حواء الدلو وكأنها مسجل تم ايقاف تشغيله.. وأجابته بهدوء:

- آدم المدفون..

- عمره

- 65 سنة

لم يصدق آدم المسكين ما سمعه.. فهذا الاسم معروف لديه..!!فهو يعود لأحد الذين وجد هوياتهم الشخصية واستماراتهم في حقيبته الجلدية..!.. لكن كان عنوانه يشير إلى منطقة " الحياة الجديدة" وليس إلى عنوان البناية!!؟.. " ماذا يعني هذا..؟ ثم.. كيف أنها حواء الدلو بينما زوجها آدم المدفون..!!؟؟.. هل يعني أنها احتفظت بلقبها قبل الزواج ولم تأخذ لقب زوجها..؟".. سأل آدم المسكين نفسه.

وبينما انشغل الطبيب بترتيب عدته الطبية، ليغادر الشقة، سألها هو بنبرة تشبه الهمس:

- هل أعطيت الاسم الصحيح.. أم أخطأت فيه بحكم الصدمة التي أنت فيها..؟

نظرت إليه باستغراب برغم مسحة الحزن التي منحتها جلالاً خاصاً.. لم تفهم ماذا يقصد.. وبعد لحظات انتبهت لمفارقة الاسم، فقالت موضحة بهدوء:

- لا.. الاسم صحيح.. آدم المدفون.. وأنا أيضا اسمي حواء المدفون.. لكنني من برج الدلو لذلك لُقبت بحواء الدلو.!!..

وقف الطبيب الذي يقود المجموعة الطبية عند الباب وكأنه ينتظر مجيء حواء الدلو لترافق زوجها الميت.

فهمس آدم المسكين لها:

- سآتي معك.

دخلت هي إلى أعماق الشقة.. ظل هو واقفاً في الصالة محتاراً محاولاً اكتشاف لغز آدم المدفون وهذه الحواء الغامضة التي اكتشفها فجأة.. بعد لحظات

عادت وقد ارتدت معطفاً. وغادرا كلاهما الشقة..

في الباحة التي تمتد بين الشقتين انتبه آدم المسكين إلى أن حواء المسافر كانت تقف عند الباب تشاهد ما يجري أمامها.. وقبل أن يهّم بالنزول تذكّر الحقيبة الجلدية فأسرع إلى شقته.. اختفى فيها وسط دهشة الحواءين.. المسافر والدلو – المدفون.. وبعد لحظات عاد وهو يحمل الحقيبة الجلدية..، وقد استرخت ملامحه قليلاً.. ونزل السلّم سريعا.

الفصل العاشر

مرآة الرغبة

مكتبة
t.me/soramnqraa

دخلت حواء المسافر إلى الشقة. رأت أن ابنها قابيل قد انتقل إلى قناة تلفزيونية تبث فيلما كارتونيا عن السلاحف المقاتلة الخضراء، أما الصغير هابيل فقد كان مستلقيا على الصوفا وهو يداعب قدمه التي قربها من وجهه. لم تقل لابنها شيئاً وإنما أسرعت إلى النافذة العريضة المطلة على الشارع.. فتحتها.. وأخذت تتابع إدخال النقالة التي عليها جسد جارهم في الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف.. ثم دخول آدم المسكين ورأت جزءا من ذراعه يمتد خارج السيارة ليمسك بكف جارته كي يساعدها أيضا لدخول السيارة...دخل الطبيب إلى مقدمة السيارة وصعد الممرضان أيضا.. وانطلقت السيارة بسرعة معلنة صفيرها المدوي المزعج. بقيت هي عند النافذة إلى أن اختفت السيارة التي تقلهم عن الأفق الذي يمكن أن يجول فيه نظرها.

حينما ابتعدت عن النافذة رأت ابنها قابيل مأخوذا بفيلم الكارتون الذي يشاهده. كان فكرها مشوشاً، ولم تكن تعرف من أين تبدأ في التعمق والتفسير.. فأمامها ازدحمت الخطط والأسئلة.. فلأول مرة، ومنذ سنين، تشعر أنها تعيش كباقي البشر.. دون أن يهددها صاحب النزل مطالبا بالإيجار.. لكن من يضمن لها بأن آدم المسكين سوف يبقيها في هذه الشقة..؟ " ماذا لو طلب منها بعد فترة أن تغادر الشقة..؟ إلى أين ستذهب حينها؟ بلا شك سيفعل ذلك.. فهذه العجوز المتصابية والتي أعتقد لديها سيطرة عليه لما بينهما من علاقة غامضة يتدفعه إلى طردي واولادي.. أنا متأكدة..!.. لكن كيف يمكنني أن أوقف تاثيرها عليه..؟ واحتل أنا مكانتها..؟ علي أن أقترب منه إلى الدرجة التي لايمكنه بعدها أن

يفارقني.. لاسيما إذا ما منحته نفسي وأذقته عسلي..!!؟

لكن كيف يعيش هو..؟ يجب أن أعرف عنه كل شيء..! أعرف سر الحقيبة التي لا تفارقه ابداً..؟ الحقيبة التي كانت معه حينما كان في " استراحة مفيستو" ليحقق في وضع زوجي.. والآن عاد مسرعا ومرتبكا لأخذها بينما هو ذاهب إلى توديع جنازة في مستشفى..!!؟ ماذا في هذه الحقبة؟ علي أن أعرف سرّها." !!

كانت الأسئلة تزدحم في ذهن حواء المسافر حينما رن الهاتف المنزلي.. فزت هي وكذلك الأطفال.. رفع الطفل هابيل رأسه مستديرا بجسده ناظراً إلى أمه.. وكذا التفت قابيل إليها محولاً انتباهه عن شاشة التلفزيون..، بينما كانت هي تنظر إلى الهاتف متوجسة ومحتارة أتجيب أم لا..!!

اقتربت من الهاتف الذي كان يرن.. أرادت أن ترفع السماعة لكنها فكرت للحظة وأحجمت عن ذلك..!.وفي تلك اللحظة توقف الرنين.. وسمعت ابنها قابيل يسألها:

- ماما.. من الذي يتصل..؟

أجابته دون أن تنظر إليه وكأنها غاضبة من نفسها لأنها لم ترو فضولها برفع السماعة ومعرفة المتصل:

- من أين أعرف يا ابني..! العم آدم لديه علاقات كثيرة.. إذا اتصلوا مرة أخرى فسأجيب وأعرف!..

- هل هو عمي..؟

فوجئت حواء المسافر بالسؤال.. صمتت لحظة.. وقالت ببطء وهي تمط الكلمات:

- نعم.. هو عمك.. هو ابن خالتي..

قالت ذلك ودخلت غرفة آدم المسكين وكأنها تهرب من أسئلة صغيرها، أو تهرب إلى عالم آدم المسكين!..

****

حين صارت في غرفته أحست أنها اقترفت خطأً.. فربما هو لا يقبل أن تدخل إلى غرفته.. ظلت حائرة للحظات، ثم توجهت للسرير وأخذت ترتب الفراش وهي تقنع نفسها بأنه إذا ما أعترض على ترتيبها للسرير فهذا يعني أنه لا يريدها أن تدخل غرفته!..

حين رتبت وسادته وجدت نفسها لا إراديا تتشممها وكأنه تريد أن تتنفسه. تريد معرفة عطره ورائحته. وخلال لحظات خافت من تيار المشاعر التي اجتاحها، فكفت عن ذلك وكأنها تهرب من شيء تعرفه جيداً.!..

لم يستغرق ترتيب السرير سوى دقائق قليلة..، وحين انتهت منه ظلت واقفة في الغرفة يجتاحها فضول لمعرفة عالمه. انتبهت لتل الكتب المصفوفة والتي تسد جانب من جدار الغرفة. جلست مقرفصة على الأرض وأخذت تنظر تحت السرير. لم تجد شيئاً. نهضت.. انتبهت للدولاب الصندلي القديم قرب السرير. اقتربت منه.. وبهدوء فتحته.. كان فارغاً، إلا من بعض الفانيلات والقمصان المعلقة. وفي جانب آخر رف ضيق وجدت فيه ألبوما للصور العائلية. أخذته وجلست على حافة السرير.

وبهدوء وتوتر مكتوم فتحت الألبوم.. فشعرت بالصدمة وهي ترى الصورة الأولى..!. كانت الصورة لامرأة في عمرها تحمل صبياً في السنة الأولى من عمره.. حدقت في الصورة جيداً.. وارتعبت.. فالصورة كانت لها هي وهي تحمل ابنها قابيل الذي كان في عمر السنة..! ولديها مثل هذه الصورة بالضبط..!.. قرأت تحت الصورة جملة واحدة.. (**آدم – سنة أولى**).. وبلهفة وهيجان أخذت تقلب الصفحات.. فرأت بقية الصور.. كانت هي نفسها في جميع الصور.. بل رأت صورة لآدم وهو في الثالثة.. فكان شبيها لابنها هابيل.. وصورا لآدم في السابعة فكانت صورا شبيهة لابنها قابيل.. هي واثقة مما ترى.. فهذه صور لها مع ولديها.. ارتعبت من سؤال مرق في ذهنها: كيف يكون هو مرة هابيلَ ومرة قابيلَ..!؟.. قلبت الصفحات اللاحقة بسرعة.. ووصلت إلى آخر صفحة في الألبوم.. كانت تحمل صورة له جالساً على كرسي، مرتديا بيجاما بيتية، وهو يكتب..، ويبدو أن

من صوره قد فاجأه باللقطة. كم يبدو وسيما.. لكن هذه الصورة قريبة.. لأنها تكاد تشبهه حالياً.

شعرت بالخوف مما شاهدته.. نهضت بسرعة.. أرجعت الألبوم إلى الدولاب حيث كان.. وخرجت بهدوء من الغرفة.. رأت ابنها قابيل منسجما مع الفيلم الكارتوني.. والصغير هابيل بين النوم واليقظة.. لكنه يستلقي بهدوء على الصوفا.. توجهت إلى الغرفة التي سكنتها بشكل لا إرادي مع طفليها.. وسحبت حقيبة جلدية قديمة من تحت السرير.. وضعتها على السرير وفتحتها بسرعة وعجالة.. أخذت ألبوما للصور كان بين الملابس.. لم تجلس.. وإنما أخذت تقلبه وهي واقفة.. وهالها وكأنها كانت تعيد تقليب الألبوم الذي يخص آدم المسكين!..

خافت.. شعرت بنبضات قلبها تسرع.. جلست على السرير.. ووجدت نفسها أمام سؤال يفتح فاه مثل مغارة مظلمة: من أنا..؟ ومن هو..؟ هل أنا أمه..؟ وهل هو ابني..؟ كيف ذلك وهو في الخامسة والعشرين وأنا في الثالثة والثلاثين..؟ وكيف هو مرة هابيل ومرة قابيل..؟ ما الذي يجري!!.. ولا إراديا وجدت نفسها مشلولة عن التفكير.. وكأنها تحدق في الفراغ..! فجاة..، تعالى رنين الهاتف في الصالة. فزّت من سرحانها.. وبدون أيما تردد توجهت إلى الصالة.. مع نية للإجابة على المتصل.

****

خرجت حواء المسافر من الغرفة، لكنها ما أن صارت في الصالة حتى استعادت حيويتها واندفاعها، فتوجهت للهاتف الذي كان يرن وأخذت السماعة، وسمعت شخصاً من الطرف الآخر يسأل، فأجابت بدون تردد:

- نعم هذا منزله.. من حضرتك..؟ وماذا تريد منه..؟.. ماذا..؟ ماذا أخبره..؟ كل شيء تمام.. والمبلغ وجدوه بالتمام..!! من طرف من تتحدث.. هابيل السفاح..؟ سأخبره حينما يعود.. من أنا..؟ ولماذا تسأل..؟ ما علاقتك بمن أكون..؟ أنا ابنة خالته.. مع السلامة.

شعرت حواء المسافر بالضيق من هذا الاتصال؛ وبالتحديد من سؤال المتصل عنها وعن هويتها وعلاقتها بآدم المسكين..!. وفجأة انبثقت في ذهنها مجموعة من الأسئلة وكأنها استوعبتها للتو، على الرغم من أنها سألتها لنفسها قبل ذلك، لكن الأسئلة الآن صارت ملحة وحادة: " ما علاقتي بآدم المسكين حقاً..؟.. كيف أن جميع صوره تشير وكأني أمه..؟ هل أنا أشبهها إلى هذه الدرجة..؟ وإذا كان الأمر كذلك.. كيف هو في طفولته وسني عمره يشبه طفليّ قابيل وهابيل..؟"..

وبدون تردد دخلت الغرفة التي تنام مع طفليها فيها.. وهي غرفة والدي آدم المسكين.. وتوجهت للدولاب الذي كان مغلقا.. بحثت عن المفتاح في درج الطاولة ذات المرآة الكبيرة العكرة الموجودة في الغرفة؛ فلم تجد المفتاح.. وبينما هي تفتش في الجارور الآخر سمعت طقطقة الدولاب.. التفتت فرأت باب الدولاب مفتوحا.. شعرت بالدهشة.. وبهدوء نهضت إلى الدولاب فرأت ثيابا معلقة.. انتبهت إلى أن أحد الثياب يشبه الثوب الذي ترتديه الآن.. وبقية الثياب مثل ما لديها في الحقيبة الجلدية الملقاة على السرير.. أما بقية الثياب فهي قديمة تشبه الثياب التي كانت لديها والتي كانت ترتديها لحظة التقاط الصورة القديمة!..

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها.. لم تنتبه إلى المرآة الكبيرة التي كانت تغطي الباب من الداخل.. فتحت باب الدولاب بصورة أفضل ووقفت أمامها.. فلم تجد نفسها.. وإنما وجدت صورة لامرأة في الستين لكن تشبهها في الملامح.. ابتسمت المرأة لها بطيبة.. ثم تلاشت لتترك لها صورتها على المرآة..

فزعت حواء المسافر من ذلك.. أغلقت باب الدولاب بسرعة.. حملت حقيبتها الجلدية التي أغلقتها بعنف.. وغادرت الغرفة.

حين صارت في الصالة أخذت ابنها هابيل في حضنها..، وطلبت من قابيل إطفاء التلفزيون.. فكّرت بمغادرة الشقة الغامضة..!!.. فهي لم تعد تعرف نفسها.. : " هل أنا أمه..؟ لا.. هذا مستحيل.. أنا أكبره ببضع سنوات لا أكثر!! ثم من هي المرأة الستينية التي ظهرت في المرآة وابتسمت لي بطيبة..؟ هل هي روح أمه.. أم روحي أنا حينما أصير في الستين..؟ أم أن هذا البيت مسكون بالأرواح..؟ لا..

سأجن..! لكن إلى أين أذهب..؟ ومن سيعيلني..؟.. ثم أين سأضع له المفتاح..؟ ".. وبينما كانت أمواج الأسئلة تقذفها يمينا وشمالا.. سمعت طرقا خفيفاً على الباب.

فزّت من ضخب أسئلتها.. ووقفت قرب الباب وسألت:

- من هناك..؟

فجاء صوت رجل قال بهدوء وانكسار:

- أنا قابيل.. زوجك يا حواء..! افتحي.. لماذا هربت من المقبرة.. وجئت للبيت مرة أخرى..! افتحي..

لم تفهم حواء المسافر أي شيء من كلام الرجل، استغربت أنه ذكر اسمها.. لكن صوته طمأنها بنبرته الحنونة والمسالمة.. فظنت أنه، ربما، أحد الجيران، وقد اشتبه في الوصول إلى شقته.. وهو يظن أن شقة آدم المسكين هي شقته..! ففتحت الباب لترى أمامها رجلاً كبيراً في السن يكاد يشبه جارهم الذي مات اليوم!..

نظر الرجل إليها للحظات مستغربا.. ابتسم مع نفسه ابتسامة غامضة، ودخل دون استئذان منها.. وما أن صار داخل الشقة حتى سألها:

- آدم موجود..؟

نظرت إليه باستغراب وسألته:

- من أنت..؟ وكيف تدخل بلا استئذان..؟

نظر الرجل إليها نظرة متعاطفة وطيبة وقال لها:

- مالك يا حواء..؟ لماذا تصرين أن تبقي شابة ولا تعترفي بخطى العمر.. ولمسات السنين..!! لماذا تركت المقبرة.. وجئت إلى البيت ثانية..؟

استغربت حواء المسافر، وظنت أنها أمام مجنون.. لكن الرجل كان يبدو في كامل صحوه.. ونظراته الطيبة والحازمة لا تشي برجل لا يعي ما يقول، فقالت له:

- أيها العم.. أنا حواء المسافر.. ابنة خالة آدم المسكين صاحب الشقة.. وهذان طفلاي.. قابيل وهابيل.. وأنا حية ولست ميتة.. ولم أهرب من أية مقبرة..؟

صمت الرجل للحظات.. وقال لها وكأنه يحدث طفلة صغيرة، محاولا اقناعها بطريقة لينة:

- أنت حواء زوجتي الرائعة.. أم آدم ابننا الوحيد.. ونحن سافرنا وغادرنا هذا المكان.. وذهبنا بعيدا عن " استراحة مفيستو".. لكنك تصرين أن تعودي للحياة ولشبابك حينما كنت في بداية الثلاثين.. لملمي أشياءك ولنذهب..

استمعت حواء المسافر له وكأنها تستمع لمعتوه، وقالت وفي صوتها نبرة من غضب مكتوم:

- ماذا تقول.. يا رجل..؟ أنا حواء المسافر.. وهذان هما طفلاي.. ما بك.. أنا زوجة آدم المسافر الذي تم اختطافه قبل أسبوع تقريبا..

ابتسم الرجل لها وكأنه يستمع لمزحة طفولية، وقال لها:

- أنت تعرفين أن ابنينا، قابيل وهابيل، ماتا في طفولتهما..،قابيل في السابعة وهابيل في الثالثة، حينما اجتاحت الكوليرا " استراحة مفيستو" ونواحيها بكاملها.. وقد عوضتنا الحياة بعد فقدهما بآدم.. لكنك طوال عشرات السنين كنت لا تقبلين فكرة موتهما.. وحتى بعد صرنا من سكان المقبرة لا تتقبلين فكرة فقدانهما.. لذا هربت وجئت إلى هنا..

كان توضيح الرجل لها قد هزها.. وكأنما انكسر شيء ما بداخلها.. فقالت وكأنما تحدث نفسها:

- لكني حواء المسافر.. وزوجي آدم المسافر قد تم اختطافه..

ابتسم الرجل لها بحنان وقال:

- أنت تعرفين أن آدم المسافر هو حبيبك الذي هجرك.. ولم يقبل الزواج منك.. وحينما تعرفت على والدك في الدائرة كنت غاضبة.. ووافقت على الزواج مباشرة.. كما أن آدم المسافر كما تعرفين صار من أعوان هابيل السفاح.. وقتل في مشاجرة.. وقيل إنه ظهر في لوبي " استراحة مفيستو.."

فقالت له وكأنها تحت تأثير مخدر:

- لكن أطفالي..

نظر إليها مركزا ومتفكرا في ما سيقوله لها.. وبعد لحظات قال لها:

- لا يوجد أطفال يا حواء.. أنت تتوهمين وجودهم..

- كيف

قالت مرعوبة وهي تتلفت حولها.

كانت الشقة فارغة.. وحينما أرادت النهوض أحست بتعب شديد.. نهضت بصعوبة.. ودخلت الغرفة مفتشة عن أطفالها.. وهي تقول:

- هذا غير صحيح.. ربما دخلا إلى الغرفة..

دخلت الغرفة.. لم تجد أحداً.. ظنت أنهما ربما اختبآ في الدولاب كما كانا يفعلان معها عادة.. فتحت باب الدولاب فلم تجد أحداً.. نظرت إلى المرآة فوجدت امرأة ستينية.. حركت يدها فحركت المرأة الصورة يدها.. قربت رأسها فقربت المرأة في المرآة رأسها.. إذن هي هذه.. لم يكذب الرجل في الصالة.. وأنها هي أم آدم المسكين..! صُدمت..

كان الرجل لا يزال ينتظر في الصالة.. خرجت امرأة في الستين من الغرفة.. نظرت إليه بحزن.. سرحت بصرها في الشقة.. ثم تمتمت:

- والمفتاح..!؟

- لا ضير.. أنت تعرفين أنك لا تملكين أي مفتاح.. ومفتاحك وهمي..

- وآدم.. ابني..

- دعيه لهمومه.... ولنذهب الآن..

لم تجبه بأي شيء.. استدار هو مد يده اليها.. اقتربت منه.. وضع يده على كتفها.. وغادرا الشقة مخترقين الباب.

الفصل الحادي عشر

8 & 3

كان الوقت متأخراً مساءً حينما عادا من المستشفى. وقف آدم المسكين في الباحة التي بين الشقتين والتي تغمرها أضاءة شاحبة.. كان في حيرة من أمره.. هل يدخل مع حواء الدلو- المدفون، التي كانت حزينة وتنظر إليه بتوسل غامض بأن يوآسيها ويدخل معها.. أو يدخل شقته ليطمئن على حواء المسافر وطفليها.

نظر إليها نظرة حائرة.. انتبهت لحيرته، فأشفقت عليه، لذا قالت له بنبرة طيبة وحزينة:

- أتعبتك معي اليوم.. لولاك لما عرفت كيف سأتصرف.. أنا موجودة في شقتي، سأعدّ لقمة كي نأكلها، كما سأعد الشاي.. خذ راحتك.. سأنتظرك..

أحس آدم المسكين بشيء من الاسترخاء، وفي أعماقه شكرها لأنها منحته حرية التصرف دون أن تحرجه.

في تلك اللحظة انتبه آدم المسكين إلى أن شقته مظلمة.. وبابها لم يطبق تماماً.. لم يقل شيئا.. استغرب ذلك!.

توجهت حواء الدلو- المدفون إلى شقتها، وتحرك هو نحو شقته.

****

دخل آدم المسكين شقته. ضغط على زر الكهرباء فأنار الشقة ضوء ساطع.. لكن الصمت كان مهيمنا. ظن أن حواء المسافر وأطفالها ينامون في غرفة والديه.. وضع حقيبته الجلدية التي لا تفارقه على الصوفا.. لم يكن يعرف ماذا يفعل..

كان مشوشاً.. فما جرى في المستشفى وفي قاعة التشريح لم يكن سهلاً، بل كان مفاجئاً له.. فكر أن يستفسر من حواء الدلو- المدفون فيما بعد عما رآه.

تقدم نحو غرفتها بضع خطوات ليتأكد من نومها ونوم الأطفال لكنه تردد. عاد إلى الصوفا.. أخذ حقيبته الجلدية واتجه إلى غرفته.

أضاء غرفته.. واتجه واضعا الحقيبة على السرير. انتبه إلى أن الفراش في الغرفة مرتب بشكل يذكره بترتيب الأسرة في الفنادق.. :" إذن هي قد دخلت غرفته ورتبت السرير"..!!. هكذا قال لنفسه.

جلس على حافة السرير.. فكر مع نفسه بأنه حسناً يفعل حينما يحمل حقيبته أنّى أتجه.. فلو كان قد تركها فلربما فتحتها حواء المسافر.. وهو لا يعرفها جيداً، فربما ستسرقه.. وستسرق عمره..!.. عليه أن يكون حذراً..!..

فجأة تعالى ضجيج التلفزيون في الصالة.. فّز من استرخائه وتداعيات الأسئلة في ذهنه.. قفز هو من السرير مغادراً غرفته.

استغرب آدم المسكين حينما لم يجد أحداً في الصالة. نظر إلى شاشة التلفزيون فوجد أنها تبث فيلما كارتونيا عن السلاحف الخضراء المقاتلة (تورتلز). تذكر سلسلة هذا الفيلم الذي كان يشاهده في طفولته حينما كان في السابعة من العمر. سرّح نظراته في الصالة مستغرباً. سأل نفسه : " حين دخلت كان التلفزيون مغلقا.. فكيف اشتغل الان وحده..؟ ربما استيقظ الصغير قابيل.. لكن أين هو..؟.."

ظل واقفا أمام غرفته.. توجه إلى الريموت كونترول.. ضغط عليه وأطفأ التلفزيون. توقف الضجيج. وبهدوء.. وبخطى حذرة.. توجه إلى غرفة والديه ليتأكد من الأمر.. وقف عند الباب مرتبكا.. وبهدوء حذر جداً فتح الباب.. كانت الغرفة مظلمة، لكن ضوء الصالة كان يكفي لرؤية ما فيها عند فتح الباب.

فوجئ آدم المسكين بأن الغرفة فارغة. وبعد ثوان استوعب المشهد.. وتيقن مما رآه.. ففتحَ الباب بالكامل وأضاء الغرفة. لم يكن هناك أي أثر لحواء المسافر وطفليها.. استغرب.. غادر الغرفة.. لاحظ أن غرفة الحمام ليست مضيئة...وبرغم ذلك طرق عليها طرقات خفيفة ليتأكد من خلوها.. فتح الباب فهبت روائح عطنة

إلى أنفه.. أغلق الباب.. مضى لغرفته.. فتح باب غرفته.. لكنه لم يدخل.. عاد إلى الصالة.. وقف في وسطها حائراً.. فجأة.. وبدون أيما فكرة مسبقة أخذ الحقيبة الجلدية وأتجه إلى غرفته.. وضعها في الدولاب.. وأغلق عليها بالمفتاح الذي كان في قفل الدولاب.. ثم سحب المفتاح واضعاً إياه في جيبه.. وخرج من الغرفة إلى الصالة..

انتبه بطريقة لا إرادية إلى أن مفتاح الشقة موجود على الطاولة الصغيرة قرب الصوفا.. فكر مع نفسه بأنها تركت المفتاح هنا لذلك أطبقت باب الشقة ولم تقفلها.. أخذ مفتاح الشقة.. غادرها.. غالقا الباب خلفه.

****

حين صار في الباحة التي بين الشقتين وقف للحظات حائراً.. محاولاً أن يجد تفسيراً لاختفاء حواء المسافر مع طفليها.. سأل نفسه: " لماذا غادرت الشقة مع طفليها..؟ وكيف تركت الباب مفتوحا..؟ وماذا عن التلفزيون الذي أخذ يبث فيلما لحاله..؟ ولماذا لم تنتظر إلى حين عودتي..؟ أيكون أن زوجها قد تحرر من الاختطاف.. وجاء لأخذهم..؟ لكن لو الأمر كذلك فكيف عرف أنهم هنا عندي..؟.. لا.لا. هناك شيء غامض في هذه القصة..!".. وبدون تردد توجه إلى شقة حواء الدلو المدفون.. وطرق الباب طرقا خفيفاً.

فُتح الباب فانسل إلى الداخل بخفة.

****

حين صار آدم المسكين في الصالة انتبه إلى أن حواء الدلو المدفون قد أعدّت مائدة وافرة بدت وكأنها لعدة أشخاص؛ فسأل نفسه: " كيف استطاعت أن تحضر كل هذا الطعام في هذا الوقت القصير..؟".. لكنه انتبه إلى أن الأصناف كانت من الأطعمة الجاهزة.. الكبة الجاهزة بأنواعها.. وبقايا طعام تم تسخينه.. وسلطة تم إعدادها خلال هذه الفترة الوجيزة التي قضاها في شقته، كما انتبه إلى

أن الشاي قد تم إعداده.

كان مرتبكاً.. وقد لاحظتْ هي ذلك.. بل لاحظتْ سرعة مجيئة إليها فقد كانت تقدّر بأنه سيمكث وقتاً أطول فقد كان النهار عصيباً لكليهما..! إلّا أن هذا الأمر منحها بعض العزاء في ذلك اليوم العصيب.. بل وآنسها وأنساها حزنها، إذ كانت تنتظر أن يأتي لتكون معه لأول مرة في شقتها ووحدهما.. لكنها كانت برغم ذلك مرتبكة، وفي ذهنها أن تفاتحه بأمر جرى صباحاً لكنها أجّلت ذلك إلى ما بعد العشاء.

****

دعته إلى المائدة التي تلتصق من أحد جوانبها بالجدار. جلسا حولها متقابلين.. كانا مرتبكين.. فلأول مرة تجلس معه حول مائدة واحدة وفي شقتها وبغياب زوجها؛ وبرغم طبيعة اللقاء ومناسبته فقد أحسّت بخصوصية اللقاء.

أخذت الصحن الذي أمامه.. وملأته له بالطعام.. وأخذت صحناً آخر وضعت فيه السلطة.. وقربت منه جفنة الخبز فأخذ منها قطعة.. ثم صبت لنفسها أيضاً.. وكانت تقوم بكل ذلك صامتة وكأنه غير موجود.. لكنها كانت خلال هذا الوقت تفكر بماذا ستحدثه وكيف يتنتهي الليلة.!!..

بدآ يأكلان.. كان يمضغان الطعام بشكل آلي دونما لذة بالأكل.. كل منهما يفكر بماذا سيخبر الآخر.. وكيف عليه تجاوز هذا الصمت الذي أخذ يمتد بينهما.. لكن حجة كل منهما كانت أحداث اليوم، وما شاهداه في المشرحة من تفاصيل مرعبة.. وما رافق ذلك من إجراءات إدارية..

استغرب آدم المسكين، حينما كانا ينتظران الطبيب الشرعي الذي دخل المشرحة كي يشرح الجثة ويشخص حالة الوفاة، تكون هي بهذا السكون الغريب والاسترخاء الخفي المقنع بالحزن.. بل بدت له وكأنها تخلصت من عبء ثقيل.. لكنها لا تريد البوح بذلك.!..

كانت هي تأكل ببطء وبلا شهية، محاولة أن تمنحه الفرصة للأكل على راحته

حتى يشبع.. وحينما انتبهت إلى أنه قد انتهى فعلا من الأكل.. قامت هي داعية إياه للجلوس على الصوفا كي يشربا الشاي.

ولم تمض دقائق حتى كانا يشربان الشاي بهدوء.. لكن الارتباك بينهما كان قائما.. انتبهت هي للتوتر الذي يعاني منه، ولكي تزيل الارباك عنهما قالت له بهدوء واهتمام واضح:

- أراك مرتبكا...أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام..!؟.

زاد ارتباكه لصراحتها في مواجهة ارتباكه.. صمت للحظات قصيرة ثم قال بتوتر حاول أن يكتمه لكنه لم يستطع:

- لا أدري ما أقول.. لقد كان باب الشقة مفتوحاً.. وحينما دخلت لم أجد أحداً.. لقد رحلت ابنة خالتي مع طفليها دون أن تخبرني..

نظرت إليه بتركيز شديد للحظات، ثم سألته مستفسرة بارتباك وقلق واضح:

- من التي رحلت مع طفليها دون أن تخبرك..؟

- ابنة خالتي.. التي كانت صباحا هنا.. وعرّفتك عليها!..

نظرت حواء الدلو – المدفون إليه بتمعن.. صمتت لحظات وقالت له:

- لماذا تصرّ على أن التي كانت موجودة صباحا.. أو لأقل بدقة أكبر التي ترآت لنا صباحاً أنها ابنة خالتك!..

نظر آدم المسكين إليها مستغرباً، وراوده خاطر بأنها عرفت بأن حواء المسافر ليست ابنة خالته، فسأل محاولا تجنب المواجهة الصريحة:

- ترآت لنا صباحاً..؟ ماذا تقصدين..؟

في تلك اللحظات رن الهاتف البيتي.. وكان على طاولة متحركة صغيرة بالقرب من الصوفا حيث يجلسان.. فأخذت السماعة دون أن تبذل جهداً في ذلك، وبدأت تتحدث.. فهم آدم المسكين من خلال الجملة الأولى إلى أنها كانت تتحدث مع ابنتها، وأخذ يلهي نفسه بشرب الشاي ويستمع إلى حديثها رغماً عنه:

ـوكيف سأتصرف غداً.. نحتاج لمصاريف ما يعادل إثني عشر ألفا.. نعم يا ابنتي..

الأرض.. القبر ومراسيم العزاء كلها مكلفة.. وسيأتي الأقرباء.. وسيبقون هنا ما بين أسبوع إلى أربعين يوماً.. أبوك لم يترك لي شيئاً.. حتى راتبه التقاعدي لم يكن يكفينا.. فقد استدان مبلغا أيضاً.. لا أعرف كم.. لا أعرف... (صمت للحظات).. ومن أين سآتي بالمال..؟ أنترك أباك في ثلاجة المشرحة..!!؟ ماذا تقولين.. لا.. لا.. هذا غير ممكن..!! أستدين.. وأسدّد ذلك..؟ من أين أستدين يا ابنتي.. وكيف سأسدّد..؟؟.. هذا أبوك يا ابنتي.. أعرف أن زوجك بخيل.. وأنه قادر أن يساعدنا في هذه المحنة لكنه لا يريد..؟.. حاولي يا ابنتي.. حاولي.. (بعد لحظات صمت).. وماذا سنفعل..؟ أيكون مصيره أن نتركه في ثلاجة المشرحة..!؟..

ووضعت سماعة الهاتف في موضعها منفعلة.. فهم آدم المسكين من سياق الكلام بأنها تواجه إشكالاً ماديا من أجل مراسيم الدفن وإقامة مجلس العزاء، فسألها:

- هل هناك مشكلة..؟

وجدت حواء الدلو- المدفون في سؤاله خيط أمل أو نافذة تبث من خلالها معاناتها وثقل ما سمعت من ابنتها التي عجزت عن توفير أي مبلغ لإقامة مراسيم الدفن والعزاء، فقالت بحزن وشكوى:

- ابنتي عجزت عن توفير أي مبلغ لإقامة مراسيم الدفن والعزاء.. زوجها بخيل جداً.. على الرغم من أن زوجي كان يساعده كثيراً حينما كان في الوظيفة.،الآن زوجي ملقى في ثلاجة المشرحة، بينما زوج ابنتي البخيل لا يريد تحمل مراسيم الدفن والمتطلبات الأخرى للعزاء.. ولا أعرف كم يكلّف ذلك.. كم كلفك أنت قبل عام حينما واجهت المشكلة ذاتها..!؟

لم يعط آدم المسكين أي جواب على الرغم من أنه يعرف التكاليف، لكنه تذكر بأنه احتاج لقبرين وليس شخصاً واحداً.. بينما ستكون نفقات مراسيم العزاء هي نفسها ولا تفرق إلا قليلا سواء لشخص أو أكثر.. ربما النفقات الأخرى ستكون على الأقرباء الذين سيتوافدون عليها كما سمع وسيبقون عندها..، فقال:

- أعتقد بلغ في حدود الإثني عشر ألف دولار.. لكني احتجت حينها لقبرين وليس قبرا واحداً!..

توتر وجه حواء الدلو- المدفون، فقال لها لا إراديا:

- لا تقلقي.. أنا موجود.. وسأساعدك..

- أنت..؟

قالت ذلك باستغراب، ولم تفهم معنى كلامه، نظرا لبعضهما البعض، ولم يستطع هو أن يوضح لها أي شيء، وإنما قام فجأة عن الصوفا.. التفت اليها وقال:

- انتظري..

وغادر الشقة إلى شقته.

****

حين صار في غرفته.. أخرج المفتاح من جيبه.. وفتح الدولاب.. ومد يده فأخرج الحقيبة.. وضعها على السرير.. فتحها.. أخذ منها رزمة من الدولارات ووضعها في جيبه.. كان يعرف أنها إثنا عشر ألفا من الدولارات.. لكن كان متأثرا بوضع حواء الدلو- المدفون، وهو يشعر بأنه يكن لها محبة خفية.. ولا يريد أن تكون في مثل هذا الوضع المذل.. فالحاجة مذلة.. لاسيما الحاجة للمال!..

أغلق الحقيبة.. أرجعها إلى الدولاب.. أقفل عليها بالمفتاح.. وغادر الغرفة.

****

دخل آدم المسكين الشقة.. وما أن صار في وسط الصالة حتى أخرج رزمة الدولارات من جيبه ومدّها إلى حواء الدلو – المدفون التي كانت لا تزال تجلس على الصوفا.. نظرت إليه وإلى رزمة الدولارات غير مصدقة.. ظلت صامتة للحظات بينما هو كان يقف مادا لها برزمة النقود.. وبيد مرتجفة مدّت يدها وأخذت الرزمة وهي تقول بنبرة مليئة بالانفعال والمشاعر المزحمة بينما العبرة تخنقها: ..

- لا أعرف كيف أشكرك.. أنت أنقذتني.. سأظل طول عمري ممتنة لك.. ولا أنسى هذا الجميل.. أنا الآن عاجزة عن التفكير.. مشلولة.. ولا أعرف كيف سأسدد هذا المبلغ لك.. لكني سأرجع هذا المبلغ لك بأي شكل..

شعر آدم المسكين بالحرج وهو يستمع لها.. بل شعر بالخجل والارتباك وهو يستمع لكلمات الشكر والامتنان منها.وكلما واصلت الكلام كان ارتباكه يزداد، فهو لا يحب الشكر والامتنان لاسيما في مثل هذه المواقف.. فقال لها:

- لا تفكري بالأمر رجاء.. لو لم أكن قادرا على مساعدتك لما أبديت استعدادي لذلك.. فأرجوك لا تربكيني وتخجليني بالتشكر..

تألقت نظراتها واسترخت ملامحها.. لكنها انتبهت فعلا إلى ارتباكه وخجله من كلمات الشكر التي وجهتها له، فأرادت أن تغير الموضع رأفة به، فتوقفت عن التشكر، نظرت إليه بحنان.. ومدت يدها إليه.. فمد يده إليها.. فسحبته برفق وأجلسته على الصوف إلى جانبها.. إزداد ارتباكه، ولكي ينقذ نفسه من تيارات انفعالاته التي أخذت تضغط على صدره، سألها وكأنه يهرب من نفسه:

- أنت قلت إن ابنة خالتي ترآت لك صباحا..

نظرت هي بطيبة، صمتت للحظات وكأنها تريد أن تكشف عن مدى جدّية حديثه، فهذا ما كانت تريد أن تحدثه به منذ الصباح حينما قدمها لها.. فقالت:

- نعم ترآت لنا.. فلم يكن ثمة أحد هنا صباحاً.. أقصد لم تكن ابنة خالتك..

نظر إليها مستفسراً بغرابة وسألها بتوجس:

- ماذا تقصدين..؟.. ألم أعرّفك عليها قبل وصول سيارة الأسعاف..!!؟.

صمتت للحظات وكأنها تزن مع نفسها وقع ما ستجيبه عليه، ثم قالت:

- نعم.. لكن ترآت لي صباحاً.. لكن ليست ابنة خالتك.. وإنما أمك.. وقد استغربت أنك انتبهت لوجودها أيضاً.. لكن ما أثار استغرابي أنك قدمتها لي بأنها ابنة خالتك التي سافر زوجها فجاءت مع طفليها لتعيش معك..؛ بينما أنا كنت أرى صديقتي أمك..!. بقيت قليلا ثم اختفت.. أنت تعرف كم

كنت أحب أمك.. قد كانت صديقتي.. لذلك لم استغرب مجيئها إليّ في هذه المحنة.. لكني استغربت إلى أنك لم تنتبه إلى أنها امك..؟؟

ذهل هو مما سمع.. وقال:

- أمي..؟
- نعم أمك.. وليس ابنة خالتك..
- ماذا تقولين..؟
- ماذا أقول..! أنا أقول الحقيقة.. من رأيتها كانت روح أمك.. وهي امرأة في الستين تقريبا.. وليس ابنة خالتك مع طفليها..

لم يقل لها شيئا.. وإنما نهض عن الصوفا.. نظر إليها متأملاً.. للحظات ثم غادر الشقة.

****

لم تفهم حواء الدلو المدفون لماذا غادر آدم المسكين الشقة، إذ أنها لم تقل له ما يغضب، سوى أنها كانت صريحة معه. فكرّت مع نفسها بأنه ربما شعر بالإحراج لهذا التشوش الذي وقع فيه ولم يستطع أن يفسره لها.. إذ كيف أنه رأى أمه لكنها قدمها كابنة خالته.!..لكنها برغم ذلك أحست نحوه بمشاعر رقيقة عارمة وكأن نبعاً تفجر داخلها. فجأة نهضت عن الصوفا. توجهت إلى غرفة النوم.. وضعت رزمة النقود في دولاب خاص وأقفلت عليه. ألقت نظرة على السرير الفارغ.. غادرت الغرفة.. رجعت إلى الصالة.. أخذت تلملم الصحون عن المائدة.. انشغلت لبعض الوقت بترتيب المائدة..

كانت تفكر به.. بمبادرته الكريمة.. بالوقوف إلى جانبها.. فكرت مع نفسها بأنه فقير الحال، فمن أين له هذا المال..؟ هل هو غني دون أن تعرف..! هي تعرف أن عائلته فقيرة فمن أين جاء بالمال..!؟. ثم هي تحتاجه غداً.. تحتاج أن يكون معها في المقبرة.. إلى أن تأتي ابنتها وزوجها.. فجأة..، راودتها فكرة

جريئة.. خافت منها.. حاولت أن تبعدها عن ذهنها، لكنها لم تستطع.. فرغبتها في رؤيته والذهاب إليه أخذت تجتاح كيانها.. ولا إرادياً وجدت نفسها تتجه إلى شقته.

****

عند باب شقته نقرت على الباب نقرات خفيفة. وبعد لحظات فتح آدم لها الباب. أحس بفرح غامر عند رؤيتها، فقد كان قبل لحظات ينتقد نفسه على سوء تصرفه بمغادرة الشقة دون أيما توضيح ولا تحية ولا أي شيء يخص مراسيم الدفن.. وها هي تأتي إليه بنفسها.. وتغامر في مثل هذه الساعة من الليل.. وهذا ما أربكه قليلاً.

لم يقل شيئا.. وإنما فسح لها المجال للدخول.. مرقت هي وجلست على الصوفا.. أطبق هو باب الشقة وجلس إلى الطرف الآخر من الصوفا.. نظرت إليه مستفسرة وسألته:

- هل أنت غاضب مني..؟ لا تزعل مني.. أنا أحيانا أقول أشياء لا أقصدها.. وربما انزعجتْ من جملة ما ربما قلتها..
- لا أبداً.. أنا زعلان من نفسي.. لأني لم أحترم الحزن الذي أنت فيه.. وتركتك دونما أن أتفق معك على تفاصيل الغد..

نظرت إليه نظرات رقيقة وقالت له:

- أسمعني يا آدم.. أنت إنسان رقيق القلب.. طيب.. وروحك صافية.. أنت حالم.. رقمك هو 3.. وأنا إنسانة عملية.. رقمي هو 8.. لكنك بالنسبة لي مثل الروح.. الآن.. أنا وحيدة.. ويمكنني أن أكون معك بالطريقة التي تشتهيها.. لكن ولأكن صريحة معك.. هذا لا يناسبني.. أنا الآن وحيدة.. وأحتاج إلى رجل يرعاني.. يكون معي.. لا استطيع أن أستقبل سنواتي المقبلة دون رجل إلى جانبي.. ولا أعتقد أنك ستكون إلى جانبي.. لكنك تحتل روحي وذاكرتي.. أنا مشوشة.. ماذا أفعل.. لا أدري..!.. ثم أنا أحب

أن أكون مستقلة.. لا أبادل حريتي بأي شيء.. يا إلهي.. ما الذي أقوله لك في مثل هذه الساعة من الليل.. يبدو أنني تحت تأثير الصدمة.. عموما.. في كل الأحوال لا أريد أن أفقدك.. كيف أشرح لك ذلك.. أنا نفسي لا أعرف ما بي.. سنلتقي صباحا.

ثم نهضت فجأة وسط دهشته.. وغادرت الشقة.

بقي آدم المسكين مندهشاً من بوحها.. هو يعرف أنه يكن لها مشاعر لو عرفتها لتركت الدنيا وما فيها وتبعته.. لكنها في الوقت نفسه امرأة رقمها هو 8.. رقمها مرتبط بالمال.. وهو أبعد ما يكون عن المال..!.. تذكر قولا لشكسبير بأنه كلما كثر المال والذهب تضاءلت الروح.. فكيف تقول إنه روحها بينما المال هو عالمها..!! وبرغم ذلك.. يحس أنها تمنحه بوجودها في عالمه سعادة لا تستشعرها هي وإنما تنبع من داخله هو.. فهو يعشق اهتمامها به.. لكنه في الوقت نفسه استغرب رؤيتها لأمه وليس لحواء المسافر.. وظن أن صدمة فقدانها زوجها قد أثرت عليها وجعلتها مشوشة نوعاً ما.

فجأة رن الهاتف.. أحس بالخوف المباغت.. من تراه يتصل به في مثل هذه الساعة من الليل..؟ وبارتباك أخذ سماعة الهاتف.. وقال بهدوء:

- نعم..

وما أن سمع الصوت في الطرف المقابل حتى ارتج كيانه.. وانتابه نشاط مفاجئ.. وقال:

- نعم.. أستاذ آدم الضايع.. سأكون غداً بعد الظهر.. هل تحدد الوعد للقاء الأستاذ مدير الفندق.. طيب.. سأكون في الموعد.. قبل ذلك سأكون مشغولاً.. نعم.. نعم.. هو جاري الذي توفي.. سأكون غدا مع زوجته في مراسيم الدفن.. تعرفونها..؟ وتعرفون جاري أيضاً..؟ أعرف.. أعرف أنكم تعرفون.. وأنتم تعرفون أنني أعرف أنكم تعرفون.. غداً إذن سنلتقي في " استراحة مفيستو".. وربما سأكون في غرفتي قبل هذا الوقت..

ويبدو أن الآخر وضع السماعة لأن الحوار انتهى بدون تحايا وأماني بالليلة الهانئة!..

نهـض آدم المسـكين عـن الصوفـا.. أحـس بأنفاس حـواء الدلـو – المدفون وعطرهـا فـي الصالـة.. وضع المفتاح في قفل البـاب.. أغلق الباب.. ثم اتجه إلى غرفته.

الفصل الثاني عشر

عربة الوهم

استيقظ آدم المسكين على طرقات خفيفة على الباب. التفت جانبا إلى الساعة اليدوية التي وضعها جانبا.. فرأى أنها الساعة السابعة.. استمرت الطرقات الخفيفة على الباب.. خمن أنها جارته، فليس هناك من يطرق الباب بهذا الهدوء سواها.

سحب بنطاله الذي كان قد ألقاه على الطرف الآخر من السريرالعريض. نهض عن سريره.. ارتدى البنطال البيجي اللون، وتوجه إلى خارج الغرفة ليفتح الباب. نظر والنعاس لم يفارقه بعد من خلال عين الباب السحرية فرأى جارته وهي تحمل صينية بفنجانين من القهوة مع دلة القهوة. فتح الباب. انبهر بها.. كانت في ثوب أسود قصير إلى حد الركبة. وكانت قد صفت شعرها.. وارتدت معطفا أسود خفيفا فوق ثوبها الأسود. كانت سيدة مهابة.

ابتسمت له بهدوء وقالت وهي تدخل دون استئذان:

- صباح الخير..
- صباح النور..

وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة.. اتجه هو نحو الحمام. جلست هي على الصوفا وقربت الطاولة منها، ثم صبّت هي القهوة في الفنجانين فتعالى البخار منهما.

حين خرج من الحمام توجه مباشرة إلى غرفته، بينما كانت هي تنظر إليه بإعجاب واسترخاء مشوب بفضول.

بعد لحظات عاد وقد ارتدى بلوزة سوداء على بنطاله وقد صفف شعره

الطويـل ورش عطـراً رجاليـا زكيـاً مـن ماركة "رومـا".. فأعجبها أنه لبس السـواد احتراما لها.

جلـس إلـى جانبهـا على الصوفـا مرتبكا من حضورها الأنثـوي الطاغي ومن تلقائيتها في التعامل معه.. فقالت له:

- اتصلت بابنتي وأخبرتها بموقفك الذي لا ينسى بتقديم المساعدة.. ستذهب هي وزوجها لإعداد كل شيء.. بل وحتى القيام بنقل الجثمان من المشرحة إلى المقبرة..
- هل هذا يعني أننا سنتوجه إلى المقبرة مباشرة..!؟

سـأل آدم المسـكين وهو يأخذ رشفة من القهوة.. وضعت هي الفنجان الذي كانت قد ارتشفت منه لكنها ظلت ممسكة به، على الطاولة وقالت:

- نعم.. وهذا يعني أن أمامنا بعض الوقت.. فالمقبرة كما أعرف ليست ببعيدة عنّا..
- نعم.. نعم.. ليست بعيدة.. أبعد قليلاً من " استراحة مفيستو.."

نظرت إليه بدهشة، وسألته:

- "استراحة مفيستو"..! من أين تعرف هذا الفندق...؟

استغرب آدم المسكين من دهشتها لذكره اسم الفندق " استراحة مفيستو"، بل دهش لمعرفتها هي به.. فسألها:

- بل أنت من أين تعرفين " استراحة مفيستو"..؟

ارتبكت قليلا، لم تنظر إليه وإنما انشغلت بالنظر إلى أعماق فنجانها، وقالت:

- في فندق " اسـتراحة مفيسـتو" كانت ليلة زفافي.. وقد بقينا لأسـبوع قي ذلك الفندق الرائع.. كانت أياماً لا تنسى!..

استمع آدم المسكين لها بانتباه شديد وسألها بتوتر مكتوم:

- زفافك كان في " استراحة مفيستو"..؟

نظرت إليه وكأنها تعرف لماذا يسألها، وابتسمت قائلة باسترخاء:

- نعم.. بل كما قلت لك.. بقينا فيه أسبوعاً.. سكنّا في غرفة بالطابق الثالث.. مطلة على الشارع العام..

- بالطابق الثالث..؟

سأل آدم المسكين مستغرباً. انتبهت لنبرة الدهشة والتوتر والانتباه في سؤاله، لكنها لم تبد أي ملمح لانتباهها له، بل صمتت للحظات ثم أجابت بهدوء:

- نعم بالطابق الثالث.. وفي غرفة لا أنسى رقمها.. لغرابته..

- ماذا كان رقمها...؟

سأل آدم المسكين بتوتر وكأنه يتوقع رقم الغرفة الغريب..! فكان متلهفا لسماع جوابها الذي تباطأت قليلا في قوله، نظرت إليه بتركيز وقالت:

- 777..

- ماذا..؟

- وهذا ما أثار استغرابي في حينها.. فنحن في الطابق الثالث فلماذا كانت تلك الغرفة تحمل ذلك الرقم..؟

سرت رعشة باردة في جسد آدم المسكين. راوده شعور غامض بأن هذه المرأة ربما ليست هي جارته البسيطة الطيبة..!.. " لا.لا.. هذا مستحيل.. ظننت لا علاقة لها بذلك المكان الغامض.. نعم.. نعم.. فزوجها أحد الذين رأيت هوياتهم في الحقيبة الجلدية ربما هي واحدة من سكان الفندق الغامض..!!" هكذا تواردت الأسئلة والخواطر في نفسه كالبرق.. فجأة.. نهض عن الصوفا.. وقطع الحديث.. قائلاً:

- أنا جاهز.. هل نذهب.. فلدي موعد..

فوجئت هي بحركته هذه.. ظلت جالسة للحظات.. أدركت أنه صار يرتاب منها.. لم يزعجها ذلك.. فهي كائن من تكون، فأنها تحمل له مشاعر خاصة جداً في أعماقها..! نظرت إليه بطيبة.. وقالت بتعاطف:

- أنت محق.. علينا أن نذهب إلى المقبرة...

لم يقل هو شيئاً، فقد كان يريد حقا مغادرة الشقة إذ أحس بضيق لا يدرك له سببا واضحاً.. كان واقفا ومتهيئاً للخروج، لكنها ظلت مسترخية في جلستها، وقالت وكأنها تحاول مواصلة الجلوس والحديث:

- أنا يا آدم أشعر بأني غير مستقرة.. وعلى الرغم من أن كل من عرفني عن قرب قد أحبني..؛ لكن كل منهم أحبني على طريقته.. إلاّ أني أبحث عن حب يرضيني.. أشعر بأني محتاجة إلى أحد يحبني بجد وبشكل حقيقي!..

فوجئ من بوحها الذي لا يتناسب مع وضعها ومع الموقف الذي هما فيه، لكنه وجد نفسه منجذباً لهذا البوح فقال لها:

- أنت تفكرين بحب الآخرين لك.. لكنك لم تفكري أن تحبي.. ما يهمك هو أن يحبك الآخرون..، لكن حب الآخرين هو مشاعر من الخارج تتوجه نحوك.. المهم أنت.. المهم أن تحبي أنت.. لأن حبك ينبع من داخلك.. عيشي مشاعرك أنت.. فربما هناك العديد ممن يحبنا.. لكننا لا نشعر تجاههم بالحب.. فما جدوى ذلك الحب.. قد يرضي غرورنا بأننا محبوبون وليس أكثر.. وأعتقد أن هناك من يكتفي بذلك.. فكثير من النساء يعشن مع رجال لا يحبنهم، لكنهن يقتتن على حب هؤلاء الرجال لهم..!.. إنهم يضيّعون حياتهم أو يبحثون لها عن تبرير.!..

صمتت لحظات وهي تحاول أن تستوعب كلامه وتسربه لأعماقها، ونظرت إليه بتركيز ثم سألت:

- وأنت!..

ارتبك.. صمت للحظة.. ثم قال:

- أنا.. ماذا أنا..؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة وقالت:

- وأنت.. هل تشعر بالحب..

ارتبك.. أراد أن يعترف لها.. لكنه كان مكتظاً بالمشاعر.أحس بالحرج.. وفي

تلك اللحظة رن الهاتف.. لم يود أن يجيب.. لكنها نظرت إلى الهاتف الذي يرن ثم إليه وفي عينيها نظرات مستفهمة عن عدم رده على المتصل، فأحس بالحرج، فأخذ سماعة الهاتف وهو يجيب بهدوء مصطنع، بينما نهضت بهدوء.. أخذت الصينية.. وعند الباب أشارت له بأنها ستحمل الصينية وتعود.. فهز رأسه وهو يجيب على الاتصال:

- آدم.. (صمت).. نعم.. نعم.. أعرف.. سأكون موجودا في الموعد المحدد..

أحس آدم المسكين بالراحة لأن الاتصال الهاتفي أنقذه من الموقف المحرج الذي كان فيه. ولم يكن بالإمكان مواصلة الحديث.. أنهى الحديث بسرعة.. وغادر الشقة.. وفي اللحظة التي صار هو خارج شقته كانت هي قد خرجت من شقتها.. فنزلا السلّم معاً.

عند باب البناية التقاهما البواب الحارس، فتقدم من حواء الدلو – المدفون مقدما لها العزاء بكلمات تقليدية.

أوقفا سيارة تاكسي.واتجها إلى المقبرة.

حين كانا في التاكسي.. وبدت اللوحة الإعلانية الضخمة لفندق "استراحة مفيستو" ومرّا من أمامه باتجاه المقبرة. نظرت حواء الدلو- المدفون إلى وجه آدم المسكين وكأنها تريد أن تقرأ فيه ما يكتمه من مشاعر وأفكار.. إلاّ أنه انتبه لذلك فلم يبد اهتماماً استثنائياً وكأن لا علاقة له بهذا المبنى.

ابتسمت هي مع نفسها.ومدت كفها ضاغطة على كفه التي كانت منبسطة على المقعد في المسافة بينهما.. شعر بدفق من الحنان من بادرتها هذه.. فحاول أن يمسك أضابعها ويبقيها في كفه.. نظرا لبعضهما بحنان.. وتحدثا بلغة العيون للحظات.. انتبه السائق لهما عبر مرآة السيارة التي أمامه، وابتسم مع نفسه.

****

حين وصلا إلى المقبرة، ونزلا من سيارة التاكسي، لم يجدا أية إشارة لحضور ناس.. فلا سيارات أمام سياج المقبرة.. ولا نأمة تُسمع سوى صمت القبور.. شعرا

بأن ثمة خطأ ما في الأمر.. أمن المعقول أنهما وصلا مبكرين جداً..!؟.

دخلا المقبرة.. لم تكن هي تعرف إلى أين تتجه، فالمقبرة كبيرة.. وهناك ثمة أشجار تغطي بعض جوانبها.. لكن آدم المسكين وجد نفسه يتجه لا إراديا إلى حيث قبري والديه.. مشت هي إلى جانبه دون أن تسأله إلى أين يتجه.. فكأنها أدركت أنه يتجه إلى هناك.

وصلا إلى قبر والديه. كان قلبه يخفق بسرعة.. فقد استعاد كل الأحداث التي جرت له قبل أيام.. وحانت منه التفاتة نحو القبر القريب الذي عثر عنده على الحقيبة فهاله ما رأى.. كانت هناك حفرة لا تزال ندية في مكان ذلك القبر.. وكأنه لم يكن هناك قبر أصلاً.. بل وجد أن كل شيء جاهز.. حتى شاهدة القبر المرمرية كانت جاهزة.. وتحمل اسم " آدم المدفون".. موضوعة على كومة التراب عند رأس الحفرة..

التفت إلى حواء الدلو – المدفون ورمقها بنظرات مستفسرة.. واستغرب أنها لم تكن متفاجئة أبداً.. التفتت إليه.. وعرفت ماذا يسأل بنظراته.. صمتت.. لم تجبه.. وإنما فتحت حقيبتها.. أخرجت قطعة من القماش الأبيض.. انحنت.. ومسحت الشاهدة منظفة إياها مما علق عليها من أتربة. وحين استقامت نظرت إليه وقالت:

- يبدو أن هذه الحفرة ستكون مكانا للقبر.!..

نظر إليها منذهلا من هدوئها ونبرة صوتها الباردة.. وقال وهو متوتر:

- لكن هنا كان قبر لميت آخر.. كنت أراه كلما أزور قبر والدي..

نظرت إليه بهدوء وقالت:

- ربما أنت غير منتبه للأمر.. كيف يمكن أن يحفروا قبرا بهذا العمق فوق قبر آخر.. ولماذا هنا بالذات، إذا كان هنا قبر كما تقول..

- لكني شخصيا منتبه لذلك.. كنت هنا قبل أيام..

نظرت إليه وكأنها عاجزة عن تقبل كلامه، وقالت:

- لا أعرف كيف أجيبك.. لكن بالتأكيد أن زوج ابنتي كان هنا.. واتفق مع حفار

القبـور علـى إيجاد أرض لتكـون قبرا لزوجي.. فوجدوا هـذه البقعة خالية.. الآن أنـت تقـول إن قبـرا كان هنـا.. لكـن ليس هنا أية آثار لهـدم قبر أو بقايا لحجارة.. هل تجد شيئاً..

نظر آدم المسكين إلى الحفرة وما حولها فلم يجد أي أثر ولو بسيط لحجارة قبر سابق.. كانت الأرض منبسطة حول حفرة القبر..

فجأة.. سُمعت ضجة تأتي من جهة مدخل المقبرة.. التفت.. فهاله المنظر.. بل من شدة ارتباكه كاد يسقط في الحفرة التي ستكون قبراً لآدم المدفون لولا أنها أسرعت فمسكت بذراعه.

إذ ترآى لآدم المسكين مجموعة من الرجال والنساء كلهم بوجه آدم آدم مدير فندق " اسـتراحة مفيسـتو" والنسـاء كلهن يتشـابهن مثل حواء الأبيض والأسـود.. كانـوا متجهيـن نحوهما.. لكنهم مـا أن رأوه أمامهم حتى انعطفوا في درب جانبي بين القبور.

أدركت هي بأنه رأى شيئا أرعبه.. فقالت له:

- يبـدو أنهـم سـيتأخرون.. وأننـا جئنـا مبكريـن.. أو أن هنـاك مشـكلة مـا قـد حصلت.. دعنا نذهب إلى المستشفى فربما لا يزالون هناك.. وربما سنلتقيهم في الطريق..
- نعم.. نعم...دعينا نغادر المقبرة.

ومشـى قبلهـا بخطـوات.. تبعتـه صامتـة وهي تحـاول مع نفسـها أن تبرر له مخاوفه.. وتذكرت قوله لها حينما كانا في الشقة بأن المهم مشاعر الإنسان الداخلية في الحب.. فهي التي من خلالها يشعر بالسعادة.. وهي من خلال مشاعرها نحوه تشعر بالسعادة..

****

حين وصلا إلى المستشـفى، واتجها إلى القسـم الذي تحفظ فيه الجثث لم يجدا أحداً. عادا إلى مكتب الاستعلامات، وسألت حواء الدلو- المدفون الموظف

المتواجد هناك إن كانت ابنتها مع زوجها قد جاءا وأخذا الجثة للدفن؛ فأجابها الموظف بأن هناك من جاء واستلم الجثة وذهبا بها إلى الدفن كما يعتقد.

كان آدم المسكين يحس بأن هناك شيئا ما غير دقيق في كل هذه الوضع الذي هو فيه.. لكنه لم يشأ يترك نفسه تنساق مع هواجسه المخيفة والغامضة.. ولأول مرة شعر بالخوف من حواء الدلو – المدفون..

سمع صوتاً في أعماقه يهمس " أنا خائف.. الأشياء تتهاوى وتنهار مثل قصر من الرمل بناه طفل على ساحل بحر متلاطم الموج.. أخاف من نفسي.. أخاف من هذه المرأة الغامضة.. أخاف من آدم آدم.. أخاف الحياة.." ..

****

كانت حواء الدلو – المدفون تتحرك وكأنها تؤدي دوراً تقليدياً لها.. حتى الأسئلة كان يبدو أنها تعرف الأجوبة عليها قبل أن تقال.. وكأنها مسرحية مكررة.. لكنها انتبهت إلى أن نظرات آدم المسكين صارت تشي بالتوجس والخوف.. وملامحه تشير إلى أنه في رحلة وحوار مع الذات.. فقالت له وهما يتجهان إلى خارج المستشفى:

- ما بك..؟ هل هناك شيء ما يشغلك..؟

التفت إليها وهما يمشيان.. لم يقل شيئاً.. أراد أن يفتح فمه لكنه تدارك نفسه وصمت.. انتبهت هي إلى ذلك.. فسألته مؤكدة:

- بالتأكيد ثمة فكرة ما تشغلك.. قل ما يدور في ذهنك.. لا تصدّ أفكارك التي تود الانطلاق.. حينها ستتمرد عليك وتؤذيك.. ستخرب حياتك..

لم يجبها.. كانا قد صارا خارج المستشفى.. أوقف هو سيارة تاكسي.. دخلا فيها وطلبا من السائق التوجه للمقبرة ثانية!..

لم يتحدثا طوال المسافة.. وبرغم أن كفه كانت مسترخية على المقعد لكنها لم تمسك بها، ولم يسع هو إلى التقرب منها.. نظرت هي إلى كفه.. وإلى ملامحه المتوترة وسألته بما يشبه الهمس:

- ما بك..؟
- لاشيء بي.. أشعر بالوحدة..
- وأنت معي أيضاً..؟
- بصراحة.. : نعم.. أنت نفسك لا تفكرين إلاّ بنفسك..
- يبدو لي أن لديك فكرة سيئة عني..!؟

نظر إلى جانب الطريق.. ثم التفت إليها وقال:

- أتعرفين.. يحدث أحيانا أن تراودك فكرة ما.. فكرة أقرب إلى الجنون.. فكرة أنك تجدين من تحلمين أن تكوني معه.. وتتصورين أن وجدت قدرك الجميل.. فكرة أقرب إلى الجنون.. فكرة من القوة والوضوح تبدو لك أنها واقعية.. وحقيقية.. وممكنة جداً.. بل وملحة.. وقابلة للتحقيق.. لكن سرعان ما تتحول هذه الفكرة إلى سم حقيقي للروح.. وتجدين أنك سممّت حياتك بهذه الفكرة.. لاسيما حينما تجدين نفسك وحيدة مرة أخرى!..

نظرت إليه وكأنها توبخ طفلا وقالت:

- الحياة كابوس.. بل هي في أحسن الأحوال حلم سيء.. وأنصحك.. لا تذكر للناس أنك وحيد.. وغير سعيد.. لا تذكّر أحداً بمصيره ومعاناته التي يخفيها عن غيره، فالناس تهرب من وحدتها وتعاستها.. ووحشتها.. وتحاول أن تقنع نفسها أنها سعيدة.. وأن الحياة هي هكذا.. بينما تحاول أنت أن تشعرهم بوحدتهم..
- لكنك كما يبدو لي لست من هؤلاء.. كما أنك لست وحيدة.. لديك ابنة.. وكان لديك زوج!..

لم تجبه.. نظرت من نافذة السيارة.. انتبه آدم المسكين إلى أن السيارة تسير في طريق صحراوي.. ليس هناك سوى كثبان من الرمل.. لا شيء في الأفق سوى الرمل البرتقالي.. وهما في سيارة سوداء تنهب الطريق الإسفلتي مسرعة.. استغرب آدم المسكين.. فهما الآن في الصحراء، بينما المسافة بين المقبرة والمدينة ليست بعيدة.. وهي داخل المدينة...وكانا قد رجعا قبل قليل منها إلى المستشفى.. وهما كما يفترض أن يكونا في الطريق نفسه الذي أتيا منه..

أراد أن يسأل السائق الذي لم يكن يرى من جسده شيئا.. إلاّ أنها التفت إليه وقالت:

- سأعترف لك بشيء.. أنا لست أنا.. مثلما أنت لست أنت.. لست رقيقة القلب كما أبدو لك أو تصورتني.. ولست حلماً أرضياً.. أنا عملية.. أحب الأقوياء.. لا أحب المتشكين.. التعيسين.. الضعفاء الذين لا يأخذون مصائرهم بأيديهم.. الذين يشعرون بأنهم ضحايا القدر.. هؤلاء الذين إذا وضعتهم في الجنة لرددوا مع أنفسهم: يا للجحيم.. أنا لا يهمني أن أكون عاشقة.. لست رومانسية.. لا أريد الخضوع لمشاعري التي تجعلني ضعيفة أمام اي رجل.. المهم أن يحبني الرجل ويهتم بي.. هذا ما يعنيني أكثر مما يعنيني أن أكون عاشقة..
- لكن الحب يطهر القلوب من رجس الأنانية...!.

نظرت إليه نظرة ساخرة وسألت بمزاح:

- وهل الأنانية رجس..!.. أنت قارئ جيد للكتب يا آدم...وربما قرأت كما قرأتُ أنا في شبابي لكاتب مشهور.. يقول بأن الأنانية العميقة هي أساس جميع الفضائل.. وأن فضيلة أي عمل هو على قدر ما ينطوي عليه من أنانية.. أحبب نفسك أيها الكائن تلك هي القاعدة.. والحياة صفقة.. فلا تهدر مالك.. انتبه لحقيبتك.. ولا تعط منها إلاّ ما يحقق لك السعادة واللذة..
- الأنانية العميقة.. ما هذا..؟
- إياك أن تخلط بين الأنانية وشهوة التملك.. أن تمتلك الآخرين ومشاعرهم.. فتلك قضية خاسرة.. لأنك حينها تفقد نفسك..! إنني أعرف أن الصراحة شر أحيانا.. لكني أشعر بلذة خلع القناع أحيانا.. وليس الجميع من يحسن ذلك.. أتعرف ما هي مشكلتك يا آدم..

نظر إليها متسائلاً لكنه لم يسألها، فواصلت هي:

- مشكلتك أنك في عزلتك لا تسمع سوى موسيقى الصمت.. بينما لو أنصتّ للحياة لوجدتها جوقة صراخ وضوضاء.. بل حتى كوكب الأرض فأنه في

الكون اللانهائي لا يطلق سوى الأنين والآهات..!..

كان آدم يستمع إليها بانتباه شديد.. وأدرك أن المرأة التي يبحث عنها في حواء الدلو هي ليست سوى وهم.. وأن هذه المرأة ليست سوى حواء المدفون الذي زوجها هو أحد الذين وجد هويته في الحقيبة الجلدية.. وأن هذه المرأة لا تختلف عن نساء آدم آدم صاحب " استراحة مفيستو".. فقال لها يائساً:

- قد أكون كبشاً ضالاً.. وإنسانا خاطئاً.. ضل الطريق القويم.. ودخل في دروب مظلمة.. لكن ضلالي وخطيئتي كانا صادقين ومخلصين.. لأن فكرة سامية هي التي كانت تقودني كالمسحور..

نظرت إليه وكأنها أم تؤنب ابنها وقالت:

- لكن هذا لا يعفيك من الخطأ والضلال...!.

فأجابها بغضب مكتوم:

- ومن الذي يقرر الخطأ والضلال؟...

لم تنظر إليه وأنما رددت مع نفسها وبصوت عال:

- هذا هو السؤال..

فجأة اختلف المشهد.. وتعالى الصخب.. التفت آدم المسكين فرأى أن السيارة صارت تسير في وسط شارع صاخب في المدينة.. ووصلت إلى المقبرة من جهة الشارع الرئيسي الأخرى. طلبت هي من السائق الذي لحد الآن لم يتبين لآدم المسكين بأن ينتظرهما هنا فسيعودان بعد قليل.

****

دخلا المقبرة.. توجها نحو الحفرة التي كانت قد أُعدّت لاستقبال الجثمان.. لكن الدهشة هزّت كيان آدم المسكين إذ أنهما لم يجدا الحفرة وإنما كان هناك مكانها قبر..، قبر قديم البناء، جاف الحيطان، متآكل في بعض جوانبه، وفي واجهته شاهدة تحمل اسم آدم المدفون.!!..

نظر إلى حواء الدلو- المدفون متعجبا ومستفسراً فوجدها هادئة جداً، وكأن ذلك شيء طبيعي..!.. شعر بالخوف منها.. لكنه حاول أن يستنهض الشجاعة في نفسه قائلاً لنفسه : " إنني أعرف أنني أمثل دوراً في مسرحية غامضة.. وأعرف أنه لا بد وأن لهذه المسرحية من خاتمة ونهاية للأحداث.. لكن أية نهاية تنتظرني.. حتى هذه المرأة التي أحببتها.. اتضح أنها وهم غامض.. ".. وبدون أي كلام استدارت هي..، متجهة لمغادرة المقبرة.. تبعها مذهولاً..

****

حين وصلا السيارة حاول آدم المسكين أن يرى السائق.. حدّق في واجهة السيارة حيث يفترض أن يراه، لكن لا أحد كان في مقعد القيادة..

فكّر مع نفسه، بأنه ربما ذهب لقضاء حاجة.. دخلا السيارة.. كانت هي صامتة وكأنها تعرف بأن آدم المسكين صار يخافها ولا يثق بها.. لما رآه من غرائب..!. فجأة وجّهت انتباهها إلى مقعد القيادة وقالت مخاطبة السائق:

- تحرك.. أوصل الأستاذ آدم إلى فندق " استراحة مفيستو".. ثم نواصل نحن سيرنا.

استغرب آدم المسكين ذلك، فليس هناك سائق في السيارة، إلاّ أن دهشته كانت كبيرة حينما تحركت السيارة.. سأل نفسه : " كيف عرفت أنني أريد الذهاب إلى " استراحة مفيستو"..!!؟.."

كان ثمة توتر بينهما. وصلت السيارة إلى الجهة المقابلة لفندق " استراحة مفيستو".. نظر هو إليها وكأنه يودع أحلامه المجهضة. لم تنظر هي نحوه.. كانت عيناها مغمضتين.

خرج من السيارة دون أن يقول شيئاً.. صار في الشارع ..تحركت السيارة.. واختفت فجأة...استغرب هو.. لم يشأ أن يتركها وهما في هذه الحالة.. لكنها بدت وكأنها تريد ذلك..

فجأة تذكر أنه ترك حقيبته في الشقة.. ولم يشأ أن يذهب لمقابلة المدير دون

أن تكون الحقيبة معه.. فأوقف سيارة تاكسي.. واتجه إلى شقته.

****

حين وصل الطابق الذي فيه شقته لم يدخل شقته.. كان يريد رؤية حواء الدلو.. لكنه كان مرتبكاً من طريقة افتراقهما قبل قليل.. ولم يكن متأكدا من وجودها في شقتها. أخرج المفتاح ووضع في قفل الباب.. وفتح شقته.. وفي تلك اللحظة بالذات فتحت هي باب شقتها.. كانت في ثوبها الأسود.. نظرت إليه بحنان وشوق.. ولم يكن يعرف ماذا يفعل.. ولاشعوريا اندفع نحوها.. ففتحت باب شقتها ودخلت قليلا.. فدخل إليها.. وأغلق باب الشقة.. أحتضنها.. وأخذا يقبلان بعضهما بنهم.. ويده تجولان في جسدها.. وبشكل جنوني أخذها غلى الصوفا.. حركت هي الصوفا قليلا فتحولت إلى سرير عريض.. شرعا ينزعان ملابس بعضهما.. ولا يعرف كيف دخل فيها.. ضمته إليها وهي تسأله : " هل تحبني..؟.. هل تحبني..؟".. وكان هو يتمتم لاهثاً.:" نعم أحبك.. نعم أحبك.. وأنت..؟"...لم تجبه.. كانت تلهث من المتعة.. متعة أن يعترف لها بحبه.. أحتضنته بذَرعيها وبساقيها وأرادت أن يذوب فيها وتذوب فيه.. ووجدت نفسها تعترف له :" نعم أحبك.. لكن لماذا أنت مستعجل.. ".. وتفجر فيها.

****

ظلا على تلاصقهما.. كانت تداعب شعره.. قالت له مذكرة:

- ألم يكن لديك موعد..؟

فجأة قفز عن الصوفا.. كانت هي منفرجة الساقين أمامه.. ابتسمت له حينما رأته ينظر إلى حديقتها المشذبة الأعشاب وزهرتها البرية والمهذبة.. قال لها:

- يجب أن أذهب الآن.. وسأعود إليك.. علي لقاء شخص ما هناك..
- أعرف.. ستقابل صاحب " استراحة مفيستو".. إذهب.. لكن انتبه..

لـم يفهـم معنـى كلماتهـا بالضبط.. ولم يكـن لديه الوقت الكافـي للنقاش.. فغادر الشـقة مسـرعا. دخل شـقته.. ذهب إلى الحمام.. ومن ثم إلى غرفته.. فتح الدولاب وسحب الحقيبة الجلدية.. وغادر الشقة بسرعة.

الفصل الثالث عشر

قاع السماء...قاع الأرض

دخل آدم المسكين الفندق.وجد أن هناك أكثر من موظف من المتشابهين في الوجه واللبس ينتظرونه في اللوبي وهم يقفون بانتظام، بينما كان الصحفي آدم الضائع ينتظره جالساً. وما أن رآه حتى هب واقفاً.. وهو يقول:

- أين أنت يا أستاذ آدم.. المدير ينتظرك..

- أنا في الموعد.. بل وقبله بقليل..

قال آدم المسكين ذلك، بينما توجه الصحفي إلى الجهة الأخرى من الممر.. تبعه آدم المسكين.. وأثناء ذلك أخذ يستعيد في ذاكرته أول لقاء له مع مدير الفندق.. لكن كلمات حواء الدلو حبيبته لم تفارقه: إذهب.. لكن انتبه..!. أخذ يشعر بالندم لأنه لم يستفسر منها عن معنى تحذيرها..!

انهالت الذكريات وتداعت الصور أمام عينه الداخلية.. تراءى له مشهد مقابلته الأولى والوحيدة معه.. حينها لم يكن يعرف أنه مدير الفندق.. يتذكر جيداً أنه التقى شخصاً كان في بدلة سوداء وحذاء أبيض.. وقد عرف اسمه قبل أن يتحدث معه.. قابله عند باب الفندق، وأخبره أن لا مكان له في الفندق ونصحه بالتوجه إلى المقبرة، ويذكر أن آخر صورة في ذهنه للمدير كانت عندما شاهده يبتسم له من إحدى شرفات الفندق في الطابق الثالث...

فجأة توقف آدم المسكين عن السير.. أحس بأنفاسه تتسارع.. وعرق بارد بدأ يرطب جبينه.. إنه الآن على يقين بأنه المدير كان في غرفته التي يسكن هو الآن فيها بالطابق الثالث.. هو يعرف بأنه حين وصل الفندق بعد عودته من المقبرة

استقبلوه في مكتب الاستعلامات.. وقالوا له بأن غرفته محجوزة بأمر المدير في الطابق الثالث.. هل الأمر كان مصادفة..؟

هو يعرف جيداً بأنه لا مصادفات في هذا الفندق الغامض.!..مثلما ليست مصادفة أن تكون ليلة زفاف حواء الدلو – المدفون في هذا الفندق وفي غرفته بالذات..!

التفتَ الصحفي آدم الضائع بشكل عفوي ففوجئ بآدم المسكين واقفاً؛ شاحب الوجه؛ مرتبكاً، وثمة علامات خوف ترتسم على ملامحه.. بدا له وكأنه يعاني من أزمة قلبية.. توقف.. رجع إليه.. سأله بقلق واضح:

- ما بك أستاذ آدم..؟

لم يشأ آدم المسكين أن يكشف له عمّا اكتشفه، فقال بصوت متقطع:

- لا شيء.. هي حالات تأتيني فجأة.. ثم تمضي لحالها.. المهم.. أين هو مكتب المدير..

- إنه في الطابق التاسع..

نظر إليه آدم المسكين باستغراب، وقال:

- ظننته في الطابق الثالث!..

- لا.لا. إنه في الطابق التاسع.. كان أحيانا يسكن في الطابق الثالث.. في الغرفة المرقمة 777، لكنه الآن في الطابق التاسع...هل أنت على ما يرام..؟ هل تستطيع المشي..؟.

- نعم.. نعم.. لا تقلق...أنا بخير..

وسار الصحفي وآدم المسكين خلفه.. وبين خطوة وأخرى كان الصحفي آدم الضائع يلتفت ليتأكد من حالة آدم ووضعه.!..

كانا يمشيان دون أن يصلا إلى أي مصعد، إذ بدا الممّرلآدم المسكين طويلاً

بشكل لا يمكن رؤية نهايته بوضوح.. فجأة تغير شكل المكان.. وأعيدت صياغته بلمح البصر.. وصار هناك ممر جانبي سارا فيه.. ثم تشكّل المكان والممّر مرة أخرى..

انتبه آدم المسكين إلى أن التغيير في المكان يجري مثلما يجري عند اللعب بالأبعاد الثلاثية في تخطيطات الكمبيوتر.. أو الانتقالات التي تجري في المكان بلمح البصر مثلما رآها في مسلسل تلفزيوني شهير للفنتازيا العلمية..

وجد نفسه يجتاز ممّراً زجاجياً طويلاً.. انتبه.. لا.. هذا ليس زجاجاً بل مادة جيلاتينية شفافة جداً.. وطرية جداً.. كان كل شيء يبدو واضحا من الجدران الشفافة.!..

انتبه آدم المسكين إلى أن الممّر يخترق المدينة وجميع شوارعها وساحاتها.. حتى بدت المدينة كلها جزءاً تابعاً لفندق " استراحة مفيستو".. لكنه انتبه بأن شوارع المدينة وساحاتها يتم اجتيازها بسرعة مذهلة كلقطات فيلم سريع.!..

أثار انتباهه مشاهد المدينة.. هذه هي منطقته.. وذاك الحي الذي هو فيه.. وحتى البناية التي فيها شقته مرت من جانبه بسرعة خاطفة.. بدا له الأمر وكأنه لا يمشي، وإنما يقف في ممّر أشبه بقطار سريع..!. سأل نفسه: أين أنا..؟ هل من المعقول أن المدينة جزء من "استراحة مفيستو "..؟؟ ماذا يعني ذلك..؟.

فجأة، تغير شكل الممر.. وجد آدم المسكين نفسه بمعية الصحفي آدم في ممر عريض، أنواره خافتة بشاعرية ودفء.. كان هو يسير خطوة خلف الصحفي آدم الضائع، وكانا لا يتكلمان.. إذ كان هو منشغلاً بأفكاره، بينما كان الصحفي يتجنب الأسئلة.!..

اجتازا الممر.. وصلا إلى بوابة ضخمة، طرازها مختلف عن كل ما يحيطها، وكأنها لا تنتمي لطراز بناء فندق" استراحة مفيستو.!.."

ارتبك الصحفي آدم الضائع.. توقف على مبعدة ثلاثة أمتار من البوابة، التفت لآدم المسكين قائلاً:

- لقد وصلنا البواية التي تقود لمكتب سعادة المدير آدم آدم..

نظر آدم المسكين إلى البوابة فقرأ نقشا واضحا وكبيرا مخطوط بشكل بارز عليها:

أيها الداخلون، أطرحوا عنكم كلّ أمل..

تذكر آدم المسكين هذه االجملة.. إنها جملة شهيرة وردت في (**جحيم**) الشاعر دانتي أليغيري، والتي كانت منقوشة على باب الجحيم.. سرت رعشة في جسده.. سأل نفسه : أين أنا..؟ وإلى أين أتجه..؟.. انتبه الصحفي لمخاوفه.. فأراد أن يواسيه، فقال له:

- هذه مجرد أبيات يحبها المدير العام وقد قرأها في أحد الكتب.. لا تخف!..

فجأة.. دمدم ما يشبه الرعد.. ورافقه ضجيج هائل..، وأخذت البوابة تُفتح لهما شيئا فشيئاً، وحينما صار بإمكانهما العبور عبر الفتحة التي انفرجت عن انفتاح البوابة، مرقا داخلين.

وجد آدم المسكين نفسه في ممر مضاء إضاءة دافئة.. مريحة وتبعث الهدوء للنفس.. والممر بدا وكأنه ممر في فندق مبني على طراز فن العمارة في القرن السابع عشر.!..

كان منبهراً وخائفاً في أعماقه، بينما كان الصحفي آدم الضائع يسير وكأنه اعتاد السير في ذلك الممر. سار خلفه. إلى أن توقفا عند باب مصعد يتوسط الممّر.!..

بعد ثوان، انفتح باب المصعد.. دخلا.. أحس آدم المسكين بدهشة حبست أنفاسه..! كابينة المصعد كانت واسعة جداً، مما أثارت استغراب آدم المسكين..!.. ففي المصعد كانت هناك مقاعد وثيرة وأرائك، وصوفا وثيرة، أمامها طاولات وضعت عليها صوان مليئة بالفواكه المتنوعة.. وتوزعت عليها كؤوس من الكريستال الملون، وقناني كريستالية تشع منها أشعة ملونة تعكس أنواع الشراب الذي فيها، لكنه لم يعرف ما هو ولم يستطع أن يميزه..! كما توزعت في الزوايا مناضد وضعت عليها مزهريات تحتضن زهوراً حقيقية تمنح عطرها للمكان.. وثمة نافورة تنشر الضوء الملون..

ضغط الصحفي آدم الضائع على زر الطابق التاسع.. لكن الذي فوجئ به آدم

المسكين هو أن المصعد أخذ يهبط بسرعة فائقة وكأنه قطار سريع يهبط.. استمر المصعد بالهبوط السريع الخارق لفترة لم يدرك آدم المسكين إن كانت طويلة أم قصيرة.. إذ توقف المصعد فجأة.

رفع آدم المسكين رأسه إلى لوحة الأرقام فوجد أن المصعد توقف عند الطابق التاسع.. لكن في الأسفل.. وليس في الأعلى.

"ما الذي يجري..؟".. سأل آدم المسكين نفسه..

****

فُتح باب المصعد.. واجهته نسمة منعشة ومشبعة بالعطور الطيبة.. " لا.. لستُ في الجحيم".. هكذا فكّر آدم المسكين مع نفسه. خرجا من المصعد.. وجد آدم المسكين نفسه في ممر عريض أنيق يشبه في طرازه ما كان عليه المصعد في الأعلى..

لم يلتفت الصحفي آدم الضائع إليه، وإنما مشى أمامه وكأنه غير موجود.. حاول آدم المسكين أن يلحق به قليلاً.. فقد كان الآخر يسرع في خطاه.. فجأة انطفأت الأضواء في الممر لثوان..

أضيء الممّر مرة أخرى، فوجد نفسه في ممرّ آخر ضيق تغمره إضاءة حليبية شديدة تكاد تعشي العين، حيث اختفت الملامح والحدود بين الجدران والأبعاد.. وفي لحظات انسحبت هذه الإضاءة وكأنها شفطت بشكل غامض، فوجد نفسه وحيداً في ممر أنيق يشبه أحد طوابق فندق " استراحة مفيستو"، لكنه طابق مختلف نوعاً ما.. فقد كان الممرّ مزّيناً بلوحات فنية عالمية شهيرة.. عرف منها لوحة "ولادة فينوس".. ولوحات أخرى لنساء عاريات، ولوحات تمثل بورتريهات لوجوه نسائية تذكّره كلها برغم اختلافها بجارته حواء الدلو.!..

لم يكن آدم المسكين يعرف إلى أين يتجه فالممر طويل.. وعريض وكأنه متحف للفن التشكيلي. الممّر فارغ.. لا صوت.. لا نأمة.. سوى صوت الصمت والسكون.

كان يمشي حذراً.. وببطء شديد..، عسى أن يكتشف شيئاً أو يظهر أحد ليدّله على مكتب المدير آدم آدم.. لكن لا أحد.. " أين أنا..؟ وأين اختفى الصحفي آدم الضائع دليلي..؟ كيف سأعرف مكتب المدير بينما لا أجد أحداً لأسأله أو أجد قطعة ترشدني إليه..؟.. " هكذا كان آدم المسكين يسأل نفسه.

فجأة.. فُتح أمامه، على بعد أمتار، باب. خرجتْ امرأة أنيقة بثوب أبيض كلاسيكي الطراز، مغلق من الأعلى عند الرقبة، ويصل إلى ما تحت الركبة بقليل، وبيدها حقيبة فضية أشبه بكتاب أنيق. شعرها كان مصفوفا بطريقة كلاسيكية أيضاً.. انتبه لها.. كانت تشبه حواء الدلو...!؟.

- أهلا وسهلاً بك أستاذ آدم.. نحن بانتظارك!..

لم تترك له المرأة الأنيقة فرصة للتفكير إذ قدّمت نفسها وهي تمدّ له كفها مصافحة:

- حواء الأبيض..

ارتبك آدم المسكين، راوده إحساس بأنه التقى هذه المرأة وأنه يعرفها.. لكنه لا يتذكر أين.. ومتى.. وكيف..!!.. وبعد لحظات مدّ كفه مصافحاً أيضاً.

وقفت المرأة جانباً بطريقة فيها الكثير من الاحترام كي يدخل هو. انتبه آدم المسكين إلى الحقيبة الجلدية التي في يده فجأة.. كان قد نسي طول سيره بأنها في يده.. شعر بالراحة للحظات. دخل فتبعته المرأة داخلة أيضاً.

****

وجد آدم المسكين نفسه في قاعة غارقة في البياض الحليبي الضبابي. ورأى أمامه طاولة اجتماعات كبيرة الحجم سوداء، يجلس المدير الذي عرفه مباشرة، حول أحد أطرافها على كرسي كبير من الجلد الأحمر.. بينما رأى في مواجهته امرأة وكأنها نسخة طبق الأصل من المرأة التي استقبلته، لكن هذه المرأة كانت بثوب أسود وتضع أمامها حقيبة سوداء تشبه حقيبة حواء الأبيض أيضاً. وشعر بأنه يعرفها أيضاً وأنه رآها لكنه أيضاً لا يذكر أين.. ومتى.. وكيف..!.

كان المكان وكأنه ليس في غرفة وإنما هو فوق الغيم أو في بحر من الضباب. شعر أنه كان في هذا المكان سابقاً.. وكأنه رأى كل ما يدور هنا.. بل وتوقع ما سيحدث أيضاً.. وفعلاً جرى ما كان يتوقعه أو يتكرر في ذهنه..!

نهض الرجل الذي عرفه آدم المسكين فوراً فقد قابله عند باب الفندق. أقبل عليه وهو يبتسم.. انتبه إلى أنه في نفس ملابسه السابقة.. بدلة سوداء.. أما حذاؤه الأبيض فقد كان غارقا في الضباب الحليبي.. قال المدير مرحباً:

- أهلا وسهلا بك أستاذ آدم..

مدّ كفه مصافحاً. مد آدم المسكين كفه أيضاً فشدّ الآخر عليها بحرارة وحميمية، وكأنه يعرفه شخصياً معرفة جيدة.

مضت حواء الأبيض التي استقبلته ودارت حول الطاولة. جلست إلى جانب المرأة الأخرى التي بدت نسخة منها. انتبه آدم المسكين لهما. ابتسم المدير آدم آدم، وهما لا يزالان واقفين، وقال له:

- تعرّف إليهما.. حواء الأبيض.. وهي التي استقبلتك.. وإلى جانبها حواء الأسود..

أومأت حواء الأسود له برأسها مرحبة. أخذه المدير ليجلسه قربه إلى جانب الطاولة.. وطلب من المرأتين بإشارة من يده أن تقتربا أيضا وتصيرا في المقابل من آدم المسكين.

انتبه آدم المسكين إلى أنه جلس، لكن الحقيبة لا تزال في كفه، وكأنها جزء من جسده وكيانه. شعر بالارتباك، فوضع الحقيبة الجلدية على كرسي إلى جانبه.

ابتسم المدير آدم آدم، وتبادل النظرات مع المرأتين اللتين ارتسمت ابتسامة غامضة على وجهيهما. انتبه آدم المسكين لذلك، فارتبك، إلّا أن المدير دفعه إلى تجاوز ارتباكه حينما قال له:

- ضع الحقيبة الجلدية على الطاولة أمامك يا أستاذ آدم..

وبيد مرتعشة وضع آدم المسكين الحقيبة الجلدية على الطاولة. توجه إليه

المدير قائلاً:

- هل تعرفني يا آدم..؟

ارتبك آدم المسكين من السؤال، وقال مرتبكاً:

- أعتقد أنني أمام السيد آدم آدم مدير فندق " استراحة مفيستو!.."

- صحيح.. هل تتذكر أنك التقيتني سابقاً..؟

استغرب آدم المسكين السؤال.. نظر إلى المرأتين اللتين بدتا خاشعتين في حضرة هذا المدير.. فقال متردداً:

- أعتقد أننا التقينا عند باب الفندق.!..وأننا التقينا هنا أيضاً.. لكني لا أعرف كيف..!

- صحيح هذا أيضاً.. وهل تذكر بماذا نصحتك حينما التقينا أول مرة عند باب الفندق..؟

صمت آدم المسكين لثوان، ثم قال:

- قلت لي لا مكان لي في هذا الفندق.. ونصحتني بالذهاب إلى المقبرة..

- وماذا وجدت في المقبرة..؟ قال المدير مبتسماً.

- وجدت.. وجدت.. وجدت هذه الحقيبة..

نظر المدير إليه وعلى وجهه ابتسامة دافئة وقال بما يشبه المزاح:

- وماذا رأيت أيضاً..؟

شعر آدم المسكين وكأنه في تحقيق لكنه غير جنائي، وأن المدير يعرف عنه كل شيء، ولا يمكن اللف والدوران معه، فقال:

- رأيت جثة مقطوعة الرأس..

- هل عرفتها لمن..؟

أطرق آدم المسكين برأسة وقال:

- ظننتها لك أول الأمر.. لأنها كانت ترتدي الملابس نفسها التي كنت ترتديها

سابقا والآن.. كما أن ملامحها الجسدية تشبه ملامحك!..

- يعني كما أنا الآن أيضاً!....

لم يفهم آدم المسكين.. فرفع رأسه.. لكنه ذهل حينما رأى المدير يجلس إلى جانبه وهو بدون رأس..!

قفز من الكرسي، لكن في لحظات عاد الرأس إلى جسد المدير.. فشعر آدم المسكين بأنه قد توهم بأن المدير يجلس بدون رأس ..!..أحس بالخجل من تصرفه.. عاد للجلوس على الكرسي.. لم يبد أية من الجالسين ما يشي بأنه فوجئ من قفزته، فقال له المدير مبتسماً:

- لكنك لم تكن على يقين من هوية الجثة.. أليس كذلك؟

- نعم..

تمتم آدم المسكين مرتبكا. ابتسم المدير له ابتسامة تبعث على الطمأنينة في النفس، وقال:

- لكنك الآن عرفت من هو صاحب الجثة المقطوعة الرأس!..

نظر آدم المسكين إليه مشككا وسأل:

- هل هذا يعني هو أنك نفسك كنت الجثة المقطوعة الرأس..؟

- ومن تراه غيري...!!.

صُدم آدم المسكين للحظات.. استعاد السيطرة على نفسه قليلاً وسأل:

- والحقيبة المليئة برزم المال..؟

- هي لك.. حقيبتك..

قال المدير ذلك وظل مركزاً نظره على وجه آدم المسكين ليعرف ردود فعله. كان وجه آدم المسكين ساكناً كالمرآة، لكنه كان يعكس فوضى من المشاعر التي تتداخل.. وسمع آدم المسكين يقول بصوت يكاد يكون مختنقاً:

- لي أنا.. حقيبتي أنا..؟ كيف ذلك..؟ هي ليست حقيبتي.. وأنا إنسان فقير.. وليس لدي هذا المبلغ.. إنه ليس لي..

تبادل المدير النظرات بينه وبين المرأتين، فتدخلت حواء الأبيض بإشارة نظر من المدير، فقالت:

- أستاذ آدم.. أعتقد أن سعادة المدير الأستاذ آدم آدم قال لك بوضوح بأن الحقيبة المليئة بالنقود تعود لك.. والجثة المقطوعة الرأس تعود له.. أو على الأقل تراءى لك ذلك.. فكما ترى أنه يجلس بالقرب منك.. وأنت تعرف بأن في الحقيبة خمسون رزمة من الدولارات.. والتي تشكل ستمائة ألف دولار.. أليس كذلك؟

نظر آدم المسكين إليها دون أن يفهم بالضبط ما تقصده من أن الحقيبة هي ملكه، ولم يستغرب أنها تعرف كل المبلغ الموجود في الحقيبة بالتفصيل، فهو الآن يدرك أنهم من وضع الحقيبة في المقبرة، ودعوه للذهاب إلى هناك بقصدية.. لكن الحقيبة ليست له.. هو متأكد من ذلك.. فقال بتردد:

- لكن الحقيبة ليست لي..؟ فأنا وجدتها في المقبرة.. وأعتقد أنكم تعرفون ذلك...!.

ابتسمت حواء الأسود له ابتسامة مغرية، وقالت موضحة:

- أستاذ آدم.. نحن نعرف أنك ذهبت إلى المقبرة يائسا وخالي اليدين.. وأنك هناك عثرت على الحقيبة بالقرب من الجثة المقطوعة الرأس.. نحن نعرف ما جرى لك.. وكيف استدنت من هابيل السفاح ما يعادل رزمة من الدولارات تقريبا.. وأنه هددك.. وكان فعلاً قد اتجه إلى شقتك كي يقضي عليك.. لكن المدير اتصل به.. وكلفه بأمر ما دفعه للتأخر قليلاً في الوصول إليك.. وفي هذه الأثناء خرجت أنت خائفاً.. وجرى الذي جرى من اللقاء والذهاب إلى المقبرة.. والعثور على الحقيبة.. فقد أراد الأستاذ آدم آدم أن يمنحك فرصة أخرى.. كي تسدد دينك.. وتتصرف ببقية حياتك التي كان يمكن أن تنتهي قبل يومين..

أخذ آدم المسكين يتبادل النظر بين المدير والمرأتين.. نظرات مليئة بالتساؤل و اللافهم، وقال مؤكداً:

- إنني لا أفهم شيئاً.. ما معنى كل هذا..؟ وكيف تمنحونني فرصة أخرى..؟

هل هذا يعني أنكم من وضع الحقيبة هناك كي أعثر عليها..؟ ولماذا تفعلون ذلك..؟

مـرّت لحظـات صمت مشـحونة بين الجميع. لـم ينهها إلّا تدخل المدير آدم آدم حينما قال موضحاً:

- أنـت شـاب تفكـر كثيراً.. وتشـك كثيراً.. وهـذا ما دفعنا للبحث عن وسـيلة لمساعدتك.. بأن نمنحك فرصة أخرى في الحياة.. حياتك لو لم نقرر ذلك لكانت قد انتهت عصر ذلك اليوم حينما جاءك الاتصال من هابيل السفاح.. أتدري ما جرى أو ما يفترض أن يجري..؟

نظر آدم المسكين بخوف وقال بتردد:

- لا..

- إذن.. أنظر..

واشار بإصبعه.. على الفضاء الذي أمامه.. فظهرت شاشة في الضباب.. رأى فيها ما يشـبه الفيلم السـينمائي.. رأى آدم المسـكين نفسـه في شقته.. ورأى سيارة جيب تقف عند الباب.. وفجأة رأى في لقطة قريبة هابيل السفاح جالساً مع أعوانه داخل السـيارة.. كانت اللقطة تبدو وكأنها فيلم سـينمائي.. يخرج اثنان من حليقي الـرأس ومـن ذوي العضلات المفتولة.. يصعـدان.. يضغطان على جرس الباب.. يتردد في فتحه.. يصرخان به بأن يفتح لأنهما يعرفان أنه في الشقة.. يتردد.. فيبدآن برفـس البـاب.. فيتجه هو إلى الباب.. يفتحه.. يدخلان.. يرتعب هو.. يجلسـان.. يسـألهما كي يهدأ من غضبهما قليلاً وليكسـب بعض الوقت عمّا يشـربان.. يقول أحدهما بأن يريد ماءً.. يتجه إلى المطبخ.. يذهب خلفه.. ويرشق رأسه من الخلف برصاصتين.. يسقط هو على وجهه.. ويغادران الشقة..

أشـار المدير آدم آدم بإصبعه مرة أخرى فاختفى كل شـيء في الضباب.. ثم التفت إلى آدم المسكين وقال:

- هذا ما كان يجب أن يحدث.. لكنّا غيّرنا السيناريو.. وما تبقى مرّ بك خلال هذين اليومين!..

ارتعب آدم المسكين من المصير الذي كان يترقبه. التفت إلى المدير وسأل بخوف:

- أنا لا أعرف ما أقول.. إنني أشكركم طبعاً.. لكني برغم ذلك لا أفهم معنى منحي الحقيبة.. وماذا تريدون مقابل ذلك..؟

تبادل المدير النظرات ذات المعنى مع المرأتين مع ابتسامة المنتصر، ثم التفت إلى آدم المسكين وقال:

- ألم أقل لك إنك ذكي.. وتفكر كثيراً.. وتشك كثيراً.. ولهذا نحاول أن نساعدك.. لكن قبل أن أجيبك يجب أن أسالك ثم أوضح لك.. هل تعتقد أن ما في الحقيبة هو مال للإنفاق فقط..؟

نظر آدم المسكين إلى المدير ومن ثم إلى المرأتين وعاد بنظراته إلى المدير مرة أخرى وقال:

- نعم.. رزم من المال.. حتى أنني عددتها بنفسي..

ابتسم المدير له برقة وقال:

- طبعا هي مال.. رزم من المال.. لكنها هي ليست مالاً أيضاً!..

- ماذا..؟ وما هي أيضاً..؟ سأل آدم المسكين متوجساً.

لم يجب المدير مباشرة.. نظر إلى المرأتين للحظات.. ثم التفت إلى آدم المسكين وقال بحزم:

- إنها عمرك.. أو ما تبقى لك من العمر!..

- ماذا..؟

صرخ آدم المسكين فزعا بصوت عال.. حتى استغربت المرأتان من ذلك، إلّا المدير بدا ساكناً وكأنه كان يتوقع رد فعل آدم المسكين..

توتر الجو للحظات، وامتد الصمت.. فواصل المدير آدم آدم كلامه بنفس الحزم:

- إنها سنوات عمرك.. كل رزمة تعادل سنة من عمرك.. لذلك رزم الدولارات

ستكون ما يعادل 50 خمسين عاماً من العمر.. وهي التي بيدك الآن في هذه الحقيبة.. لكن كما قلت لك.. كل رزمة هي سنة من عمرك.. وإنفاقك منها هو إنفاق من سنوات عمرك!..

أحس آدم المسكين بالخوف، لكنه وبسرعة خاطفة حسب المبلغ وقسمه على سنوات عمره يعني أن كل شهر يساوي ألف دولار..!.. وأنه منح هابيل السفاح رزمة وجارته رزمة.. يعني أنه فقد سنتين من عمره في يومين..!! لكنه أيضاً أحس بأن هناك شيئا ناقصاً لم يفهمه بعد، ولم يجبه أحد عليه، فسأل:

- ولماذا تفعلون ذلك..؟ ما هو المقابل..؟

صمت المدير قليلا.. ثم قال:

- أنت هو المقابل..
- لم أفهم..؟
- حينما تنتهي نقودك ستأتي إلى الفندق لتتحول نسخة مني.. كبقية الموظفين.. ولو كنت امرأة لصرت مثل بقية الحواءات..

نظر آدم المسكين إليه مذهولاً وسأل:

- هل تقصد بعد أن أموت..؟
- نعم..

نظر آدم المسكين إليه برعب وسأل:

- هل تقصد بأن جميع من في الفندق هم موتى..؟

لم يجبه المدير وإنما ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة ثم تبادل النظرات مع المرأتين وقال:

- وماذا تعتقد أنت..؟
- لا أدري..

ابتسم المدير وقال له:

- إذن حين تنتهي نقودك ستعرف ذلك.. لكن أمامك الآن قراران ومصيران..
- لم أفهم...
- أما أن تقبل الحقيبة والنقود وتتقبل الاتفاق بعد نفادها..! أو تنتظر مصيرك على يد هابيل السفاح.. ونحن نعرف أنه هددك ثانية لأن النقود اختفت من خزنته.. واتهمك بأنك مارست خدعة بصرية مع موظف المكتب..! قرر.. الآن.. ولا مجال للتأخر..

فكّر آدم المسكين للحظات، وحسب ما تبقى لديه من مال تعادل ثمانية وأربعين عاماً.. بينما لو رفض فستكون نهايته البشعة على يد أعوان هابيل السفاح، فقال بيأس:

- نعم.. أوافق..!..

صحيح أنه نطق بكلمة الموافقة، لكنه في أعماقه كان يهمس في أعماقه (لا أوافق)..

- وبشرطنا..؟ أكد المدير آدم آدم
- نعم..
- وأن تتحول إلى نسخة مني..؟

صمت آدم المسكين للحظات ثم أجاب:

- نعم..

حرك المدير إصبعه فظهرت على الطاولة أربعة أقداح صغيرة من الكريستال مع قنينة فيها شراب وردي.. قامت حواء الأبيض ودارت حول الطاولة وصارت قرب آدم المسكين.. مالت بجسدها قربه.. وأخذت القنينة وصبّت منها في الأقداح الكريستالية شرابا ورديا فاح عطره في المكان.. وزعت الكؤوس، بغنج، على الجالسين.. ورفع المدير كأسه وقال:

- قبل أن رفع نخبك بودي أن أقول لك إن هاتين المرأتين.. حواء الأسود وحواء الأبيض بين يديك...بكل حرارة جسديهما وقدراتهما الخارقة..

وهما حاضرتان بين يديك في أية لحظة تفكر فيها بهما، أو تحتاجهما.. أنت مالكهما وحر فيهما.. والآن.. نخب آدم المسكين..

فصاحت المرأتان:

- نخب آدم المسكين..

وشرب آدم المسكين نخب منح روحه التي باعها مقابل رزم من المال..

فجأة.. اختفى كل شيء. ولم يعد آدم المسكين يعرف أين هو.

****

أفاق آدم المسكين. وجد نفسه على سريره في غرفته بالفندق. وكانت يداه حرتان.. فز مرعوباً.. مفتشاً عن الحقيبة الجلدية.. اطمئن قليلاً حينما وجدها على الطاولة. نهض بسرعة.. فتحها فوجد رزم المال فيها. شعر بصداع في رأسه.. أحس برغبة في مغادرة الغرفة والذهاب إلى حواء الدلو.. دخل غرفة الحمام ليغسل وجهه وينشط نفسه قليلاً..

وقف أمام المرآة.. ما أن نظر إلى في المرآة حتى فز متراجعاً.. وجد نفسه في منتصف الأربعينات.. بل وجد نفسه نسخة طبق الأصل من المدير آدم آدم.. غسل وجهه.. فربما الأمر لا يعدو وهماً من أوهامه.. نظر إلى نفسه بوجهه المبتل.. لا.لم يتغير شيء.. أنه هو المدير العام آدم آدم.. فرّ من غرفة الحمام.. أخذ الحقيبة الجلدية التي أحسها تحمل إليه اللعنة..

فكّر مع نفسه بأن الاتفاق أن يتحول إلى نسخة من مدير فندق " استراحة مفيستو" بعد نفاد المال.. وبعد أن يغادر الحياة.. لأن حياته مرتبطة برزم المال.. وهو لم يمت بعد..!

عليه أن يفسر ما يجري له..!

عليه أن يقابل المدير..!

عليه أن يلغي الاتفاق.. لكن كيف..!!؟؟

فجأة برقت في ذهنه فكرة أضاءة عتمة روحه.. إذن.. عليه أن يرجع الحقيبة إلى مكانها في المقبرة..!.. نعم.. عندها يلغى الاتفاق تلقائيا.. فلا مال لديه كي ينفقه..!.. وبدون تردد أخذ الحقيبة الجلدية.. فتحها.. عدّها.. استغرب أن المبلغ عاد كما كان حينما عثر على الحقيبة.. خمسون رزمة من الدولارات.. وغادر الغرفة.

حين صار في اللوبي انتبه إلى ان الجميع ينحنون أمامه ويحيونه بتبجيل شديد.. حتى موظف الاستعلامات وقف كالصنم حينما مر هو.

غادر الفندق. أوقف سيارة تاكسي. دخلها وطلب من السائق التوجه إلى المقبرة.

****

دخل المقبرة.. اتجه إلى حيث قبري والديه. ومن هناك انعطف إلى حيث القبر الذي وجد عنده الجثة والحقيبة الجلدية. والذي صار حفرة، ثم صار قبراً لآدم المدفون زوج حواء الدلو.. لكنه فوجئ بأن ثمة قبراً جديداً نديا بُني هناك..! استغرب.. فقد كان نهار اليوم هنا ولم يكن هذا القبر موجوداً..!

وضع الحقيبة الجلدية هناك حيث وجدها بالضبط.... راوده فضول لمعرفة الميت.. اقترب منها.. وقرأ على شاهدة القبر المرمرية التي كُتب عليها: هنا قبر آدم آدم مدير فندق " استراحة مفيستو" سابقاً.. أرتعب.. تراجع إلى الوراء فتعثر وسقط على قبر أمه..!.. أحس بأنه يغمى عليه.. ويغوص في الظلام المضيء.

****

فتح عينيه.. كانت الشمس تميل إلى الانحسار في الأفق البعيد. وكانت ثمة أشجار جرداء تحيط بالمقبرة.. لم يعد آدم يعرف نفسه جيداً.. هل هو آدم المسكين.. أو آدم آدم مدير فندق " استراحة مفيستو".. شعر بأنه خفيف جداً.. وانتبه إلى أنه يلبس بدلة سوداء وحذاء أبيض.. استغرب ذلك.. نهض بصعوبة وغادر المقبرة.كان الشارع فارغاً.. بل ميتاً فلا أثر لأية حركة فيه.. ظل يمشي.. راودته

رغبة في أن يكون مع حواء الدلو، إلا أنه يعترض على نفسه مقرراً أن لا يرى أيا من الأوادم والحواءات.. أحس أنه تخفف من عبء الاتفاق حول مقايضة العمر بالمال.. وتخلص من لعنة الحقيبة الجلدية.. لكنه لم يعد يعرف من هو بالذات..

برليـــن – الجزائر – برلين

2016 – 2 – 21

2016 – 3 – 21

مكتبة
t.me/soramnqraa

استراحة مفيستو

تُعد رواية " استراحة مفيستو" هي الرواية التاسعة للشاعر والروائي بُرهان شاوي، لكنها الثالثة خارج سلسلة المتاهات التي صدرت منها إلى الآن ست متاهات، وتأتي منفردة بعد "الجحيم المقدس" و "مشرحة بغداد".

رواية غرائبية يتداخل فيها الواقعي والسحري، المرئي وغير المرئي، الواقعي والفنتازي، وكل ذلك يسوق إلى طرح أسئلة وجودية عن جدوى الحياة.. والثمن الذي على الإنسان أن يقدمه من أجل أن ينعم بلحظة الوجود الإنساني.

رواية عن صفقة الحياة.. ومقايضتها بتحقيق الأحلام.. صفقة بين آدم آدم صاحب فندق "استراحة مفيستو" وآدم المسكين.. تنويع وتناص معكوس وبعيد حول فكرة غواية مفيستو أو إبليس لآدم.. وهو هنا ليس شيطانا إبليس كما في الأساطير الدينية وإنما هو آدم.. صاحب الأرض.. والخليفة - الشيطان.. الذي همه غواية الشاب آدم المسكين المتوحد الذي لا ينشد من الوجود سوى معرفة حقيقة الوجود..!.. كيف تنتهي هذ الغواية التي تتداخل فيها جوقة من الحواءات والأوادم.. الموتى.. الذين باعوا أرواحهم لآدم آدم من أجل النعيم في "استراحة مفيستو".. هذا ما سيتوغل فيه القارئ من خلال متاهة الموتى في هذه الرواية..!

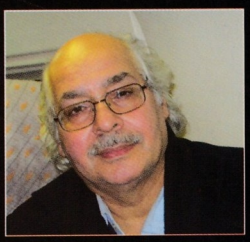

بُرهان شاوي

شاعر وروائي

صدرت له لحد الآن ثماني روايات: **الجحيم المقدس، مشرحة بغداد، متاهة آدم، متاهة حواء، متاهة قابيل، متاهة الأشباح، متاهة إبليس، متاهة الأرواح المنسية..**

كما صدرت له سبع مجموعات شعرية: **مراثي الطوطم، رماد المجوسي، ضوء أسود، تراب الشمس، رماد القمر، شموع للسيدة السومرية، خطوات الروح..**

ولدية العديد من الكتب الفكرية منها: **وهم الحرية، عن الإبداع وسلوك المبدع، سحر السينما، جماليات اللغة السينمائية، نظريات التأثير الإعلامي، الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ - المجلد الأول حضارات الشرق القديم**

كما ترجم عن الروسية أشعار كل من: **أوسيب ماندلشتام، يوسف برودسكي، آنا آخماتوفا، فلاديمير فيسوتسكي.**

ISBN: 978-614-02-1426-2

ISBN: 978-9938-902-79-2

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

كلمة KALIMA

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم

www.neelwafurat.com - www.nwf.com

لوحة الغلاف للفنان: كاسبر دافيد فريدريش 1774-1840